إذا أعجبك الكتاب فرجاءً حاول أن تشتري النسخ الورقية
الكتاب والناشرون العرب معترون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم ضمانٌ لاستمرارهم
من أقوال الرفيق الغير مناضل أبو عبدو البغل

النقيب سركيس طوروسيان

مدونة ابو عبدو

من الدردنيل إلى فلسطين

ABU ABDO ALBAGL

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

5485

من الدردنيل
إلى فلسطين

النقيب سركيس طوروسيان

من الدردنيل إلى فلسطين

قصة حقيقية عن خمس جبهات قتال لتركيا وحلفائها وقصة حب في الحرملك

قدّم له د. جوزيف كشيشيان
ترجمه إلى العربية عبد الرحمن أياس

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

FROM DARDANELLES TO PALESTINE

By

CAPTAIN SARKIS TOROSSIAN

First published: MEADOR, Publishing Company Publishers

Boston 1929

First Published in Arabic in October 2014

Copyright ©**Riad El-Rayyes Books S.A.L.**

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb — www.elrayyes-books.com

www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-595-2

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, elctronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: تشرين أول (أكتوبر) ٢٠١٤

لشراء النسخة الإلكترونية:

www.arabicebook.com

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو — علي الحاج حسن

شكر

بدأت فكرة ترجمة هذا الكتاب مع الدكتور زافين مانكجيان. هذا الرجل الموسوعي أصبح طبيب أسنان بهدف كسب القوت وتلميذ تاريخ للتمتع بثمار عمله. وقبل كل شيء آخر، رغب في أن يعرف جيل جديد من العرب الحقيقة. لذلك شرع في هذا المشروع. وباعتباره أرمنياً وُلِد في فلسطين، مع إقامة قصيرة في لبنان بعيد الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى في ١٩٤٨، بقي زافين وفياً لجذوره ولم ينسَ قط. وحين طلب مني أن أكتب مقدمة قصيرة للرواية التاريخية التي خطها سركيس طوروسيان، أسعدني جداً أن أضيف صوتي إلى هذه المساهمة المهمة، خصوصاً في ضوء الذكرى المئوية للإبادة الأرمنية في ٢٠١٥.

وعلى غرار معظم الأرمن الذين وجد آباؤهم ملجأ في العالم العربي، لا يمكن أن ننسى اللطف الذي أبداه المئات من الألوف

إن لم يكن الملايين، إذ آووا المسحوقين وقدموا لهم فرصاً لينجحوا. من دير الزور إلى حلب إلى جبيل، ومن القامشلي إلى دمشق إلى القدس، ومن الحسكة إلى القلمون إلى عمان ومواقع أبعد، فتح العرب - كانوا مسلمين مؤمنين في معظمهم - أبوابهم لأمة مسيحية مدمرة. وعلى غرار طوروسيان، نجونا نحن أيضاً وعرفنا الازدهار لأسباب كان هذا التعاطف من بينها.

وثمة إشارتا تقدير واجبتان أيضاً. الأولى لعبد الرحمن أياس، الذي ترجم الكتاب بدقة، والثانية لرياض نجيب الريس، الذي وجد ميزة في الكتاب في وقت ينقب قلائل فيه في الماضي للتعلم من تواريخهم الخاصة بهم. لقد أصبح الاثنان شريكينا في هذا المشروع وأضافا صوتيهما إلى قلق داهم مفاده أن من يتذكرون يضيفون قيمة إلى الإنسانية.

د. ج. كشيشيان

المحتويات

شكر ٧
المحتويات ٩
صور وشخصيات ١١
تقديم بقلم د. جوزف كشيشيان
طوروسيان العرب: كيف أجبرت الإبادة الأرمنية ضابطاً عثمانياً
موالياً على مناصرة الثورة العربية ١٥
شهادة من الحكومة العثمانية ٥٠
سيرة ذاتية ٥٣
مقدمة النسخة الإنكليزية ٥٥
الفصل الأول :أيام الحرب العالمية الأولى ٥٧
الفصل الثاني: الأيام الذهبية للحرملك ٦٥
الفصل الثالث: معارك بحرية في الدردنيل ٧٩
الفصل الرابع: من الدردنيل إلى المسلخ ١٠٩

الفصل الخامس: السحب السوداء تتبدد وأشعة الحب تسطع ١٢٣
الفصل السادس: جبهة شبه جزيرة غاليبولي ١٣٣
الفصل السابع: سر الحرملك ١٤٩
الفصل الثامن: مصير والديّ الحزين ١٦١
الفصل التاسع: الجبهتان المقدونية والرومانية ١٧٧
الفصل العاشر: لقاء غير متوقع واجتماع سري ١٨٩
الفصل الحادي عشر: جبهة بلاد ما بين النهرين ١٩٧
الفصل الثاني عشر: لقائي بشقيقتي في الصحراء ٢١٣
الفصل الثالث عشر: الجبهة الفلسطينية ٢٢٥
الفصل الرابع عشر: في المقاومة العربية السرّية ٢٤٣
الفصل الخامس عشر: على طريق الانتقام الدموي ٢٦١
الفصل السادس عشر: لقائي بشقيقيّ والتحاقي بالفيلق
الفرنسي للشرق ٢٧٣
الفصل السابع عشر: وراء خطوط العصابات التركية ٢٨٥
فهرس الأعلام ٢٩٧
فهرس الأماكن ٣٠٣

صور وشخصيات

النقيب طوروسيان ٤٧

شهادتا الجدارة الخاصتان بالنقيب طوروسيان
من الحكومتين العثمانية والفرنسية.............................. ٥١

والدا النقيب طوروسيان وشقيقته كما بدوا قبل الحرب ٧٥

النقيب طوروسيان في القسطنطينية، حزيران ١٩١٥ .... ٨٥

النقيب طوروسيان مع عدد من الضباط الأتراك
في معسكر قرب القسطنطينية ٩٥

النقيب طوروسيان في المقر العام في بلغاريا عند الجبهة المقدونية
قرب كافالا ١٠٥

النقيب طوروسيان في جبهة موناستير ١١٥

معسكر النقيب طوروسيان عند الجبهة الرومانية قرب بوخارست ١٢٥

النقيب طوروسيان ورفاقه خلال العودة من مهمة عند الشيخ موسى ١٤٣

النقيب طوروسيان عند جبهة بلاد ما بين النهرين يتلقى
إسعافات أولية في المستشفى الميداني إثر إصابة في يده................ ١٥٣

النقيب طوروسيان يلتقي بشقيقته في الصحراء قرب تل حلف ١٦٣

مجموعة من المتطوعين الأرمن من أميركا يؤدون الخدمة مع الفرنسيين
بقيادة الجنرال أللنبي. يلاحظ العلم الأميركي مرفوعاً في وسطهم.
وثمة شقيقان للنقيب طوروسيان من ضمن المجموعة.................. ١٧٣

القائد طوروسيان مسؤولاً عن ستة آلاف خيّال عربي في جيش
الحلفاء المتوجه إلى دمشق ١٨٣

النقيب طوروسيان مع ٨٠٠ متطوع في الطريق من دمشق
إلى بيروت ٢٠٣

شقيق النقيب طوروسيان، الرقيب بارسيغ طوروسيان. قاتل بشجاعة
في فلسطين وعند جبهة كيليكيا. نال أوسمة من إنكلترا وفرنسا ٢٠٩

النقيب طوروسيان مع مجموعة من ضباط الجيش الأميركي
في أحد المعسكرات.. ٢٢٩

قوات النقيب طوروسيان (عرب وقبليون وبدو) خلال المعركة مع
الجيشين التركيين السابع والثامن عند نهر الأردن قرب جسر دامية ٢٣٥

النقيب طوروسيان، قائد مفرزة في المقر العام للخيّالة التابع للفيلق
الأرمني ذي القيادة الفرنسية من بيروت إلى كيليكيا ٢٣٧

النقيب طوروسيان مع اثنين من قادة المجموعات وراء خطوط
العصابات التركية... ٢٥٧

العريف آرام طوروسيان، شقيق النقيب طوروسيان. جاء متطوعاً مع
شقيقه من الولايات المتحدة. قاتل بشجاعة في فلسطين وعند جبهة
كيليكيا نال أوسمة من إنكلترا وفرنسا ٢٧٥

الديوان الهاشمي

بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن علي ملك البلاد العربية وشريف مكة واميرها الى الامرا الاجلا
الاماجد الامير فيصل والامير عبد العزيز الجربا السلام ورحمة الله وبركاته اما
بعد صدرت الاحرف من ام القرى بتاريخ ١٨ رجب ١٣٣٦ نحمد الله الذي لا اله
الا هو اليكم ثم نصلي ونسلم على حبيبه واله وصحبه وسلم ونخبركم باننا ولله الثناء له تبارك
وتعالى بصحة وعافية ونعمة من فضله ضافية وافيه اسبل الله علينا واياكم سوابغ نعمه
وان المرغوب بتحري المحافظة على كل من تخلف باطرافكم وجهاتكم وبين عشائركم
من الطائفة اليعقوبية الارمنية تساعدوهم على كل امورهم وتحافظون عليهم
كما تحافظون على انفسكم واموالكم وابنائكم وتسهلون كل ما يحتاجون اليه في
ظعنهم واقامتهم فانهم اهل ذمة المسلمين والذي قال فيهم صلوات الله عليه
وسلامه من اخذ عليهم عقال بعير كنت خصمه يوم القيامه وهذا من اهم
ما نكلفكم به وننتظر من شيمكم وحميتكم والله يتولانا واياكم بتوفيقه والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته

كما يتبين من مرسوم أصدره الشريف حسين بن علي(الوثيقة المثبتة)، دُعِي العرب إلى حماية الأرمن ليس فقط لأن القيادة الهاشمية كانت تكره السلوك العثماني بل أيضاً لأهداف إنسانية. ولعل هذا من أفضل الأدلة على الالتزامات العربية الصادقة تجاه الأمة[١] الأرمنية. وكانت الوثيقة، المكتوبة على ما يبدو في ١٨ نيسان ١٩١٨ والموجهة إلى الحكام والزعماء العرب، صُوِّرت للمرة الأولى في دراسة ركزت على المشاكل التي واجهها الأرمن في سورية بعد الإبادة، وأمرت الجميع بحماية اللاجئين الأرمن ومساعدتهم.

---

(١) انظر نارين مرغريان، وضع المرحّلين الأرمن المُوطّنين في سورية نتيجة للإبادة الأرمنية، والعلاقات الأرمنية - العربية (١٩١٥ - ١٩٢٤) [بالأرمنية]، يريفان، متحف ومعهد الإبادة الأرمنية، ٢٠١٣.

تقديم

طوروسيان العرب

كيف أجبرت الإبادة الأرمنية ضابطاً عثمانياً موالياً على مناصرة الثورة العربية

بقلم د. جوزيف كشيشيان

على الرغم من الأعمال الوحشية العثمانية المرتكبة بحق مجموعات سكانية أقلوية، كان الأرمن واليونانيون واليهود، من بين آخرين، رعايا موالين للسلطان، وخدم كثيرون منهم في القوات المسلحة للدفاع عن السلطنة في وجه أعداء كثيرين. وقُتِل كثيرون في ساحات معارك عديدة لأنهم كانوا ذوي بأس وثقة، ولأنهم كانوا مخلصين لحكامهم. حتى ولو تغاضى التأريخ المعاصر بقسوة عن تضحياتهم، وحذفت منه وثائق تثبت بطولاتهم وتفانيهم، واستنتج بخلاف ذلك، أن غير الأتراك قلّما ضحوا بدماء دفاعاً عن الباب العالي وشرعيته. وثمة إجحاف حقاً في القول إن الحكام العثمانيين، باستثناء حكم جمعية الاتحاد والترقي بعد ١٩٠٨ خصوصاً، تبنوا معايير ناقصة للمواطنية. ففي الواقع، هلك ضباط ومجندون أرمن وغير

أتراك آخرون، فيما أُبيد في شكل منهجي آباؤهم وأشقاؤهم وشقيقاتهم، المحميون زعماً بفضل مراسيم مرنة اعترفت بالولاء وكافأت عليه. وجُرِّد الناجون بدورهم من أسلحتهم وأُعدِموا، ورُموا في أغلب الأحيان في معارك خاسرة حيث كانوا مجرد وقود[1].

كان سركيس طوروسيان، المواطن الأرمني المولد في السلطنة العثمانية، جندياً متفوقاً دافع عن الباب العالي على الرغم من مخاوف متأصلة فرضت عليه أن يروّض شياطين نائمة في روحه. ولأنه فعل ذلك خلال معظم شبابه، وتخرج من كلية عسكرية بارزة، وتلقى تدريباً متقدماً في ألمانيا، وخدم بتميز في الجيش، واستحق أوسمة لمهاراته، وقاتل بنزاهة لحماية مصالح بلاده وتعزيزها، فقد قام بإنجازات أقل ما يُقال إنها كانت استثنائية. وعلى الرغم من حملة مخجلة لتشويه سمعته وسمعة «مذكراته» بعدما نُشِرت ترجمتها التركية في عام ٢٠١٢، أخضع طوروسيان في ذروة حملة غاليبولي مخاوفه، خصوصاً حين اكتشف العذابات غير المُدرَكة التي مورست بحق عامته عموماً وعائلته خصوصاً والتي ظلت قيد الكتمان. وفي قنوطه وحزنه، حوّل انتقامه إلى عمل إذ راح يخطط تدريجياً للثأر حين فقد الأمل بالعدالة، واختار القتال من أجل التحرر العربي لأن هذا ألهمه، وفي عمل لا بد من أنه كان نبيلاً إلى أقصى حد، قرر نقل خبرته العسكرية إلى الأمة الوحيدة التي قدمت ملاذاً إلى المئات من ألوف الأرمن.

وعمل سركيس طوروسيان، خلال ذلك، ضمن إمكانية دمج اللاجئين الأرمن في فترة قصيرة جداً في الأمم العربية حيث استقروا، حتى مع تمتع عدد قليل من مواطنيه بهذا النوع من الامتياز بعد ٦٠٠ سنة من التعايش في السلطنة العثمانية. وبكلمات بسيطة، ساعدت القومية العربية على حفظ

الأمة الأرمنية من الانقراض الكامل، فالتقاليد المشرقية والإسلامية النبيلة المُمارَسة من العرب الورعين آوت الناجين من الإبادة وحمتهم وسمحت لهم بممارسة شعائرهم ومنحتهم سائر حقوق الإنسان الأساسية التي حُرِموا منها في أراضيهم الأصلية.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب، هو أولاً وقبل كل شيء، قصة جندي موالٍ تعرّض لخيانة وتخلى في المقابل عن أي تعهدات قدمها في شأن تأييد مبادئ السلطنة العثمانية، استمرت بطولة النقيب سركيس طوروسيان. ففيما لخصت قصة حياته المآسي التي واجهها الأرمن والولادة الجديدة التي سمحت بها القومية العربية، حوّلت هاتان الحقيقتان القمع إلى نجاة وأبدلتا بالمظالم فرصاً. لذلك كان من المفيد تقديم ترجمة لكتابه النقدي إلى القارئ العربي، فيما تستعد الأمة الأرمنية لإحياء الذكرى المئوية للإبادة - تُؤرَّخ رمزياً في ٢٤ نيسان ١٩١٤ حين اعتُقِل المفكرون الألمع للأمة وأُعدِموا من دون محاكمة - لسببين على الأقل: أولاً، لمشاطرة قصة اشتراك ضابط أرمني في الثورة العربية، وثانياً، للإضاءة على دَين طوروسيان علينا على صعيد الإرث الذي تركه وراءه.

وفيما عانى العرب المشرقيون غضب السلطات العثمانية لستة قرون تقريباً وعرفوا جيداً أن الأرمن والأشوريين وأقليات أخرى عانت، وإذ فتح معظمهم ذراعيه لاستقبال الناجين البؤساء الذين أُجبِروا على السير في الصحاري السورية وأبعد، ثمة أهمية أيضاً للإشارة إلى أن كثيرين رفعوا الولاء والخدمة فوق كل اعتبار. ونتيجة لذلك ولأن الأرمن والعرب تشاركوا إرثاً مشتركاً من القومية - إذ سعى كل من الأمتين إلى الحرية -

تقصى عدد قليل من الكتّاب ما عانته الأمتان معاً وغطى عدد قليل المرحلة الحساسة التي عاشها النقيب طوروسيان. ومن الواجب إضافة أن هذه المذكرات، إذ كانت مساهمة متواضعة باتجاه الأهداف الأكبر التي خصت الأمتان نفسيهما بها، أثارت مع ذلك أسئلة جذرية تستحق قراءة ثانية، وهي تُقدَّم اليوم إلى جيل جديد من العرب - مع عرفان.

من هو سركيس طوروسيان؟

وُلِد سركيس طوروسيان في ١٨٩٣ لعائلة أرمنية من الفلاحين، في قرية إفيريك (ديفيلي في تركيا ما بعد أتاتورك) بولاية قيصرية وسط الأناضول. وبعد التخرج من مدرسة أبرشية، أظهر الفتى اهتماماً بفنون القتال ورغب في أن يصبح جندياً، مع أن القانون العثماني كان يحظر على غير المسلمين الالتحاق بالجيش، أقله حتى ثورة ١٩٠٨ على الرغم من بقاء ضوابط لفترة طويلة بعد ذلك[٢]. التحق سركيس الشاب المقدام بمدرسة في إدرين، وهي مدينة في تراقيا الشرقية القريبة من الحدود مع اليونان وبلغاريا، حيث صادق عربياً عثمانياً اسمه محرَّم [Muharrem بالتركية] كان والده الباشا يعمل عميداً في القسطنطينية [اتخذت إسطنبول في النهاية اسمها الحالي في ١٩٣٠]. وفيما متّن الشابان صداقتهما، وفي ضوء الرفقة المتنامية بين ابنه وسركيس،نال طوروسيان ثقة الباشا، والأهم بسبب سر مكنون حفظه العميد في قلبه، ضمن للأرمني مقعداً في الكلية العسكرية. وفي ١٩١٤، تخرج الشابان برتبة ملازم ثانٍ وكُلِّفا فوراً بالعمل في فرقة المدفعية بالجيش التي كانت تستعد للحرب. وكان السر هو هوية ابنة الضابط (شقيقة محرّم)

جميلَة [Jamileh]، التي يعني اسمها حرفياً بالعربية «حلوة»، وكانت فتاة أرمنية أنقذها الباشا.

أُغرِم طوروسيان بجميلة، التي رُبِّيت كشابة مسلمة حقيقية، تعيش في عائلة محترمة وتقليدية، من دون أن تعرف هويتها الأصلية. وبعد تخرجه من الكلية العسكرية، أُرسِل التلميذ العسكري الشاب إلى إيسن في ألمانيا، إلى المصنع العسكري لـ«كراب» في شكل أدق، حيث نال لفترة ثلاثة أشهر تدريباً متقدماً على استخدام المدافع. ولدى بدء الحرب العالمية الأولى، عُيِّن طوروسيان قائداً لحصن أرطغرل لحماية مدخل الدردنيل. في بداية ١٩١٥، حين كانت حملة غاليبولي في مراحلها الأولى، نُسِب إلى طوروسيان ورجاله الفضل في إغراق بارجة بريطانية، على الرغم من قوله إن جهوده أدت إلى تدمير ثلاثة طرادات حربية إنكليزية بين ١٩ شباط و١٨ آذار ١٩١٥، إلى جانب غواصة في نيسان ١٩١٥ قد تكون **HMS E15** التابعة للبحرية الملكية البريطانية. وكما يرد أدناه، لم تعد هذه الإنجازات البطولية ترد في الوثائق العثمانية/ التركية، على الرغم من أن طوروسيان ذكر أن قائده، جواد باشا، قرّظ جهوده في معارك مختلفة، وأن وزير الحرب أنور باشا، هنأه شخصياً وعرّفه بفخر إلى ضباط ألمان رفيعي الرتب، بمن فيهم كولمار فرايهر فون در غولتز وليمان فون ساندرز، اللذان كانا في مهمة إنقاذ لإسعاف القوات العثمانية.

وعلى الرغم من نفي المؤرخين الأتراك المعاصرين، ووفق صورة في هذا الكتاب، نال طوروسيان من أنور باشا وسام الحرب للدولة العثمانية، وهو بالتأكيد مكافأة بارزة لأي ضابط عثماني[٣]. وبدت واقعة تشكيك بعض

المؤرخين في حقيقة المستند وذهابهم بعيداً حتى زعم أن طوروسيان ربما اختلقها، غير قابلة للتصديق لأن الضابط العثماني رُقِّي وأُرسِل إلى ساحة معركة غاليبولي للدفاع عن الدولة. ويقول المنطق البسيط إن ما من أرمني كان قادراً على أن يُرسَل إلى ساحة معركة حساسة كهذه لو لم يكن شخصاً صادقاً.

حملة غاليبولي

بين ٢٥ نيسان ١٩١٥ و٩ حزيران ١٩١٦، دافعت السلطنة العثمانية عن مضائق الدردنيل الحيوية في مواجهة بريطانيا وفرنسا اللتين رغبتا معاً في ضمان الطريق البحرية لروسيا التي كانت حليفة للغرب وقتئذ. وتعرضت شبه جزيرة غاليبولي لهجمات وحشية أعقبتها إنزالات طموحة، وربما شمل الهدف غزواً في نهاية المطاف للمدينة العاصمة، على الرغم من أن الاعتداءات صُدَّت بنجاح. وبالنسبة إلى تركيا المعاصرة، مثّلت حملة غاليبولي، أو معركة تشاناكالي، إنجازات على صعيد الصمود العسكري في ضوء فشل أكثر من نصف مليون جندي حليف في تحقيق أهدافهم وسحبهم في نهاية المطاف. وأدّت الحملة التي طالت لثمانية أشهر إلى خسائر بشرية فادحة، يُقدَّر أنها فاقت ربع المليون في كل طرف، ما يجعلها إحدى أكثر الحملات دموية في الحرب العالمية الأولى(٤).

قاتل سركيس طوروسيان في غاليبولي كضابط عثماني موالٍ إلى جانب صديقه الأفضل محرّم الذي أُصيب بجراح بالغة في ٢٩ أيلول ١٩١٥. وحين علم طوروسيان بما حصل، وأن الشاب الجريح طلب رؤية «صديقه»، فسارع إلى رؤيته. وخلال ساعات مؤثرة وطويلة، وقبيل وفاة

محرّم، انقلبت حياة طوروسيان رأساً على عقب حين اكتشف أن جميلة كانت أرمنية على الرغم من كل شيء وأن الباشا كان قد أنقذها من موت محتّم. وترافق الاعتراف المذهل، الصادر عن «الشقيق» المحتضر، برغبة واضحة بأن يتزوج طوروسيان جميلة، الأمر الذي أدى إلى لقاء دراماتيكي آخر حين نقل سركيس الاعتراف إلى الشابة[٥].

بحلول آذار ١٩١٥، أي قبل بدء حملة غاليبولي حيث خدم - يستحق الأمر التكرار - بتميز، كشف طوروسيان أن الثرثرة عن مذابح الأرمن بدأت تكثر. وعرف ربما أن الأرمن الموظفين في الدولة كانوا يُعفَون تدريجياً من مهامهم وأن الجنود الأرمن كانوا يُجرَّدون منهجياً من سلاحهم. كتب طوروسيان: «سرت شائعات عن أن مجازر كبرى ستُرتكَب وأن الكتلة السكانية الأرمنية ستُباد أو ستُجبَر على عبودية رهيبة في الداخل»... و«بدأت أتساءل عمّا سيكون مصيري أنا»[٦]. وفي الصفحات التالية لهذا القلق العميق، وصف اللقاء الذي أجراه مع جواد باشا، قائده في غاليبولي، الذي عرف بأن ضباطاً مسيحيين كانوا يُجرَّدون من أسلحتهم وأن طوروسيان سمع بالتأكيد عن الأمر المنهجي، على الرغم من أنه فعل ما في وسعه كله للتخفيف من مخاوف الشاب، فهو لم يرغب في خسارة أي من جنوده الأكفياء. وفي ضوء الوضع الحساس في غاليبولي، رغب جواد باشا في بقاء طوروسيان في الخدمة الفعلية ورجا تكراراً وزير الحرب أنور باشا بإبقاء «ضابط لا يمكن استبدال أحد به» إلى جانبه. وحين أُمِر طوروسيان بالمثول أمام أنور باشا، خبِر ذل الاعتقال مع قتلة معادين للأرمن لأنه مثُل بسيفه ومسدسه الجانبي، على الرغم من أن توابع وزير الحرب أحضروه

في نهاية المطاف من النظارة واعتذروا لمعاملة «بطل وطني» بعدم احترام، وأعادوا مسدسه وسيفه، وقادوه إلى ديوان أنور باشا(٧). وهذه المصادفات الطريفة هي من أفضل الأقسام في الكتاب فهي تبيّن الوضع المعطل فعلاً للبيروقراطية العثمانية.

الإبادة الأرمنية في ١٩١٥

الأكيد أن طوروسيان كان قلقاً على حياته وخائفاً من الموت، على الرغم من أنه بدأ يسأل نفسه أسئلة جذرية، وكان منهمكاً في كثير من معارك غاليبولي وخلال المراحل الأولى للإبادة، حين رُحِّل الأرمن بالقوة في ما كان سراً معلناً بين الضباط العثمانيين الرفيعي الرتب، استمر طوروسيان في الخدمة، مطمئناً إلى أن أي أذى لن يلحق بعائلته المباشرة. تستحيل معرفة السبب وراء إيمانه هذا، وليس في كتابه ما يساند الرأي الخاص بثقته في أشخاص مثل أنور باشا، الذي أعطاه شخصياً، في ما يبدو، ضمانات بأن أي أذى لن يلحق بوالديه. لكن طوروسيان كتب أن حاكم ولاية قيصرية، وهو شخص اسمه صالح زكي بك، تجاهل في ما يبدو أوامر أنور باشا وتابع ترحيل عائلته. ويبدو أن هذا هو ما حصل في حالة والد طوروسيان، أوهانس، ووالدته، فارتوهي، اللذين قُتِلا في ما نجت شقيقته الوحيدة، بايزر. وليس واضحاً متى اكتشف سركيس الحقيقة، فهو استمر في الخدمة في مقدونيا ثم رومانيا وأخيراً شبه الجزيرة العربية، باحثاً عن شقيقته في طريقه، وهو وجدها في نهاية المطاف في مخيم اعتقال في تل حلف بسورية. ورغم أنه أنقذها، حينها، إلا أنها تُوفِّيت لاحقاً في ظروف صحية سيئة.

سلبت الإبادة الأرمنية حيوات حوالى ١,٥ مليون إنسان، وكان هدفها الأول والأخير القضاء على أمة[٨]. وفي ما يتجاوز هؤلاء الذين قضوا في ظروف بشعة، يجب الإقرار بأن الخطط العثمانية فشلت لأن تلك الأمة نجت بل وازدهرت. فإذا صح أن الأرمن دُمِّروا في وطنهم الأم، فقد تأسست المئات من الأوطان الجديدة، خصوصاً في العالم العربي - في لبنان وسورية والعراق وفلسطين ومصر - وفي بلدان غربية كثيرة، في طليعتها فرنسا وكندا وبريطانيا والولايات المتحدة الأميركية، وفي الأخيرة، وجد طوروسيان ملجأً.

وشارك طوروسيان قراءه في تأملات عميقة، رواها بوتيرة سريعة، تبرز كيف ساعدت شهادة شاهد العيان التي قدمتها بايزر إلى شقيقها الضابط على صقل خططه للانشقاق، ولو أمكن، للانتقام لعائلته الشهيدة وأمته. وفيما شكك كتّاب أتراك قلائل في ولاء طوروسيان للباب العالي، من المهم تكرار أنه لم ينشق إلا بعدما تلقى تأكيداً، من شقيقته الناجية وليس من أحد آخر، أن والديهما ذُبِحا. بكلمات أخرى، بعدما أكدت بايزر أن معظم أفراد عائلتهما قضوا في الإبادة، غيّر طوروسيان ولاءه وانضمّ إلى معارضي السلطنة. لكنه على الرغم من ذلك، وفي شكل عرّضه لخطر كبير، استمر في الخدمة العسكرية وظل على اتصال بقادة عرب، خصوصاً الرائد نوري بك (نوري يوسف)، وهو ضابط أركان عربي من الفيلق الـ١٤ كان ينتمي إلى عائلة نبيلة وشُنِق قريبه في دمشق بأمر من جمال باشا[٩].

ومن اللحظات المهمة في الكتاب، على الرغم من قِصرِها الشديد في ضوء أهميتها، الرحلة المحفوفة بخطر كبير التي قام بها النقيب من نابلس إلى غزة

مع رجال موثوقين قلائل للبحث عن جميلة. فخلال انتقاله عبر الأراضي الخاضعة للبريطانيين من الضفة الغربية إلى ما سيصبح في نهاية المطاف إحدى أكثر مناطق العالم كثافة سكانية، حيث عاشت جميلة وأمها بعدما غادر الباشا القسطنطينية عائداً إلى شبه الجزيرة العربية، قدّم طوروسيان تأملات عميقة في الأوضاع في فلسطين. كانت الشابة، وهي يتيمة أرمنية أنقذها الباشا خلال مجزرة سابقة، مكسورة القلب بسبب فقدان أخيها ودخلت في حال من الذهول. ولا يمكن أن يستخلص القارئ من نص طوروسيان إن كان الوعي الإضافي بهويتها الحقيقية، وربما معرفة أن حبيبها منهمك في معارك خطرة، والمخاوف من ألّا تراه مجدداً، قررت مصيرها. ما يُقال للقارئ هو أن جميلة كانت على مشارف الموت حين وصل سركيس إلى غزة وتُوفِّيت بين ذراعيه بعد وقت قصير. يتذكر قائلاً: «حملتُ جميلة بين ذراعيّ، وذاب الألم والذعر في عينيها حتى التمعتا مجدداً كنجمتين، نجمتين في ليلة شرقية، وذبل الجفنان رويداً، فتوفيت كحلم عابر»[10]. هذه الجملة المعقدة بيّنت كيف أن الضابط الشاب الحزين أضاف جميلته إلى العدد المتنامي لضحايا الإبادة، ما أكد أكثر تصميمه على مقاتلة نظام لم يأتِ بغير الموت والأذى.

مؤرخون أتراك يناقشون المذكرات

ترجم أيهان أكتر مذكرات النقيب طوروسيان، ونُشِر الكتاب بالتركية في ٢٠١٢ تحت العنوان Çanakkale'den Filistin Cephesine[11]. ووفق المحرر، وهو أستاذ في جامعة بيلجي في إسطنبول، اختار التأريخ التركي الرسمي أن

يمحو تماماً اسم طوروسيان من سجلاته كلها واختار أن يتجاهل نجاحاته النادرة في حملة غاليبولي، بما فيها إغراق بوارج حليفة كثيرة، لأن أصول الضابط أرمنية. وعلى الرغم من استحقاقاته الطنانة، أحيا توافر الكتاب باللغة التركية إلى حد أبعد المعضلة الوجودية الخاصة بأنقرة والبالغة من العمر قرناً من الزمن وجعلها تتصالح أخيراً مع الإبادة الأرمنية. وفي الواقع ساعد أي نقاش تركي حول ما تقرر رسمياً أنه أمر غير موجود، في الدفع قدماً بالبحث عن الحقيقة حتى ولو أطلق مؤرخون أتراك حملة إنكار كامل شككت في أصالة المذكرات، والأسوأ أنها تساءلت عمّا إن كان طوروسيان موجوداً أصلاً[١٢].

ويُعزى إلى الأستاذ أكتر إطلاقه نقاشاً نادراً، تعامل مباشرة مع الجنود المسيحيين الذين خدموا في الجيش العثماني، والمصير المحتمل الذي آلوا إليه. وتساءل أكتر عن مصير عائلاتهم، فهم على الأرجح لديهم عائلات. وشكك في الرواية الرسمية حول غاليبولي التي ركزت على البارجة التي أُغرِقت في ذروة المعارك على حساب الضباط الموالين من غير الأتراك الذين ضحوا بحيواتهم من أجل السلطنة، واستطرد في شأن الأسباب التي جعلت المقاربة الرسمية تختار الإنكار. وعبّر أكتر عن ذهوله لارتياح المؤرخين الأتراك إلى النقاشات العادية حول تلة محددة، مثلاً، أو ما حدث في نقطة أخرى، من دون أي رغبة منهم في معرفة من كان موجوداً والأسباب التي دفعت غير الأتراك إلى القتال ببسالة. وبالنسبة إلى تانير أكشام بالمقدار نفسه كأكتر، كانت اتجاهات هذا النقاش «مثيرة لحرج وعار مباشرين»، فأي شخص لم يستطع أن يتوقع كثيراً من «بلد تصرف فيه حتى المفكرون بهذا

الشكل»، واستنتج أكشام، أن من غير المفاجئ إذاً «أن الإبادة [كانت و] لا تزال سراً وأن سجلات الأراضي [كانت و]لا تزال مصنفة من منطلقات تتعلق بالأمن القومي»[١٣].

وواجه أكتر وأكشام طبعاً اتهامات أخرى أيضاً، على الرغم من أن باحثَين في جامعة سابانجي، كانا قد أصرّا على أن المذكرات مزيفة، سخرا منهما أكثر من غيرهما. فالأستاذ خليل بركتاي، وهو مؤرخ بارز وُلِد لعائلة شيوعية تركية من المفكرين إلى جانب عمله معلقاً في Taraf، وهي صحيفة لبرالية، والأستاذ حاقان إردم، المتخصص في العبودية العثمانية وجيش التجنيد العثماني، انتقدا مقدمة أكتر وعابا عليه قبوله وصف طوروسيان لمعارك غاليبولي. وكتب إردم كتاباً منفصلاً عن طوروسيان صب الزيت على النار واستدرج أكشام إلى النقاش، فالأخير طلب مستندات عائلية لإضافة قيمة إلى النقاشات[١٤]. وأصر الرجلان على ألّا رجل باسم سركيس طوروسيان كان موجوداً، على الرغم من أن بركتاي ركز انتقاداته على المذكرات، لا الرجل، بدعوى أنه، أي بركتاي، يحترم الحزن المفترض للأمة الأرمنية التي نهضت بعد «أعمال الترحيل» الجماعية «ولكن الإجبارية»، على حد وصفه. وقال بأن المذكرات الأرمنية لا تستند كلها إلى وقائع، ما أبرز معضلته، فبركتاي كان أحد المؤرخين الأتراك القليلين جداً الذين أقروا على الأقل بأن الأرمن العثمانيين رُحِّلوا جماعياً خلال الحرب العالمية الأولى.

من جهته، قارن حاقان إردم طروحات طوروسيان بمصادر تركية أخرى، مؤكداً أن النقيب أساء تمثيل أحداث تاريخية وحرّفها. وأصر إردم على أن طوروسيان قارن نفسه بـ«تي. إي. لورنس»، وهو ضابط استخبارات

بريطاني، على الرغم من أن الأمر لم يكن كذلك (كما سنرى لاحقاً). كذلك أصر إردم على أن طوروسيان اختلق إشارات كثيرة ذات طابع استشراقي لإرضاء الذائقة الأميركية المفترض أنها كانت تنجذب إلى المشاهد الغريبة للحرملك في عشرينيات القرن الماضي. وهذا ليس صحيحاً أيضاً، كما يمكن للقارئ أن يستنتج بنفسه. وفي الواقع، كانت ثمة مزاعم كثيرة لإردم، من بينها أن طوروسيان لم يتخرج من الكلية العسكرية، وأنه لم يخض المعارك التي وصفها، وأنه هاجر إلى الولايات المتحدة في ١٩١٦ (وليس ١٩٢٠)، ما عكّر المياه أكثر وحرف النقاشات.

ووفق وصف مفصل في الصفحات الإلكترونية لأكشام، رد الأستاذ أكثر في سلسلة مقالات نُشِرت في طرف، فيما جمع أكشام مستندات أصلية فنّدت التأكيدات الواردة أعلاه. ففي الواقع، أكدت أوراق وثائقية أميركية رسمية صادرة عن سلطات الهجرة ووزارة العمل أن طوروسيان دخل إلى الولايات المتحدة في ٢٣ كانون الأول ١٩٢٠. وأعطت حفيدة سركيس طوروسيان، لويز شرايبر، أكشام وثيقتين عثمانيتين أصليتين تعودان إلى ميداليات الحرب التي مُنِحت لجدها، وكانت صورتان عنهما تردان في الكتاب، ولكن أمكن الآن التحقق منهما في شكل مستقل. طبعاً، شكك المنتقدون في أصالة توقيع أنور باشا، وقالوا إن ختم قيادة الفيلق الـ٢١ يسهل تزويره. وإن لم يكن طوروسيان لصاً أيضاً تمكن بطريقة ما من الحصول على الختم، كانت تصعب معرفة الطريقة التي تمكن من خلالها من الحصول عليه، هذا إذا وُجِد الرجل أصلاً. كذلك، ووفق ما يستطيع القارئ معرفته بنفسه أيضاً، لا يمكن لكمية التفاصيل حول المعارك

المختلفة والخرائط التي رسمها لغاليبولي، أن تصدر إلا عن رجل عسكري حتى ولو شكك «خبراء» جالسون في مكاتبهم في نزاهته، على الرغم من أن هذا هو ما مُرِّر على أنه عمل بحثي في دوائر الإنكار.

وكان ثمة أمر إشكالي أكثر، يستطيع القارئ أن يراه بنفسه، ويتمثل في أن طوروسيان أورد ١٧ صورة في كتابه، صورت ١٣ منها الكاتب في بزات عسكرية عند جبهات مختلفة. وبيّنته واحدة مرتدياً ملابس المتمردين بعدما التحق بالعصابات الأرمنية في نهاية الحرب، فيما بيّنته ثانية مصوَّراً مع ضباط في الجيش الأميركي مرتدياً ملابس مدنية. وكانت أكثرُ الصور إثارة للاهتمام صورتي شقيقيه، الرقيب بارسيغ طوروسيان والعريف آرام طوروسيان، ويرتدي كل منهما زي الفيلق الأجنبي الفرنسي. وكانت ثمة صورة مع شقيقته بايزر في مخيم الاعتقال بتل حلف، تشمل في مفارقة، خمسة جنود عثمانيين آخرين. على المرء أن يسأل كيف يمكن لنسختي بركتاي/ إردم أن تفسرا هذه الصور. هل سرق طوروسيان الشرير بزات عسكرية عثمانية ليتصور لمجرد أن يدعي أنه كان في جبهات مختلفة، أم الأمر عبارة عن مؤامرة طازجة حاكتها الاستخبارات الأميركية أو الفرنسية أو العربية لتصويره كبطل؟ هل رشى آخرين ليتصوروا مكانه أو معه لوضع مخطط دعائي معقد؟

أخيراً من الحيوي معالجة النقطة التالية: لماذا تجشم العناء لإنكار أن جنوداً مسيحيين خدموا في الجيش العثماني؟ حتى ولو كان طوروسيان شخصية خيالية، كما أكد الأستاذ برهان سايلير من جامعة ١٨ آذار، ماذا عن الملازم

مكرديش أفندي، الذي يبدو أنه خدم في الجيش العثماني في قيادة المنطقة المحصنة في تشاناكالي، أو الملازم أراتشيل أفندي، أو حتى الملازم قرة بيت أفندي، إذا ذكرنا هؤلاء الثلاثة الذين يردون في مصادر تركية مختلفة؟ ماذا حل بهؤلاء الضباط المسيحيين؟ قد تكون هذه المهمة صعبة، ولكنها تتطلب من المفكرين البارزين في تركيا المعاصرة أن يسألوا أنفسهم عن مصير الجنود المسيحيين في الجيش العثماني، وإن كان أي منهم أو من عائلاتهم قد أُبيد. كيف يمكن لتركيا أن تتعامل مع ما حصل على ترابها قبل مئة سنة من دون الاقتراب من هذا الموضوع الحساس؟ ما مدى الخدمة التي قدمتها سياسة الإنكار إلى أنقرة، والأهم أي نوع من التأثير كان لهذا الإنكار في المجتمع التركي عموماً فيما يحاول تلميع مؤهلاته المؤيدة للغرب؟

الحقيقة أن أشخاصاً كثيرين باسم آرام وزهراب انخرطوا في الحرب لصالح الجيش العثماني في تشاناكالي، وليس فقط سركيس طوروسيان، وقاتلوا للدفاع عن السلطنة في وقت كانت فيه عائلاتهم تُرحَّل وتُقتَل. وفي الواقع، وإضافة إلى الجنود الأرمن، نُشِرت وحدات عربية في غاليبولي شوشت على رواية «النصر التركي» الخالص، التي سيُعاد إيقاظها في ٢٠١٥ من قوميين يرغبون في احتكار النقاش. وفي الواقع لن يُفاجَأ سوى البعض إن «قابلت» ردَّ أنقرة على الذكرى المئوية للإبادة الأرمنية احتفالاتٌ ستصور تشاناكالي على أنها مناسبة موازية تعرض آلام جميع من قضوا هناك. ففيما لا يستطيع الأرمن أن يسمحوا للمصير المخيف الذي حل بهم – كان الهدف القضاء على الأمة كلها – بأن يُقارَن بمعارك الحرب، ليس لديهم سبب لإنكار الرعب الذي عاناه رعايا عثمانيون في غاليبولي، فذلك سيقلل من مأساوية

الإبادة. نعم، لقد قضى نحو ربع مليون جندي عثماني في غاليبولي [إلى جانب ربع مليون آخر من جنود الحلفاء]، ولكن لم يكونوا جميعاً أتراكاً. مات أرمن وأشوريون وأكراد ويونانيون ومات عرب كثيرون في تشاناكالي أيضاً، وهو أمر أقر به أتراك شرفاء وتذكروه. ومات كثيرون لصالح السلطنة، حتى ولو غلفت مشاعر قومية تركية قوية مصيرهم بظروف ملتبسة، وما لبثت الثورة العربية أن أثبتت على الرغم من نيلها دعماً بريطانياً، أنها تاريخية ولو أنها كانت معقدة.

الثورة العربية

كُتب كثير عن الثورة العربية التي شهدت تشجيع بريطانيا قبائل عربية معادية للأتراك على الثورة على احتلال عثماني دام لحوالي ستة قرون لأراضٍ عربية[١٥]. سعت عناصر قومية عربية فردية خلال قرن تقريباً إلى إصلاحات جدية طالبت بحكم ذاتي تدريجي، واستخدام اللغة العربية بدل التركية كوسيط في الدوائر الإدارية والتربوية معاً، وتغييرات في قواعد التجنيد الصارمة لدى السلطنة العثمانية. وبعدما حققت انتخابات ١٩٠٨ انتصاراً لـ«تركيا الفتاة» في القسطنطينية من خلال جمعية الاتحاد والترقي، التي كانت في البداية حركة شعبية حقيقية شهدت حتى مشاركة أرمنية، لم يمر وقت طويل قبل بروز صدامات سياسية بعدما طالبت أقليات مختلفة بالحكم الذاتي[١٦]. وما خلق الهوة التي لم يعد ممكناً جسرها كان رغبة جمعية الاتحاد والترقي في التخلي عن الضمانات الدبلوماسية كلها في ذروة الحرب العالمية الأولى، التي شملت جزءاً كبيراً من أوروبا

ومعظم شرق البحر المتوسط، إذ حددت القومية الإثنية المنسوجة حول الهوية التركية أي رؤية معلنة لقادة جمعية الاتحاد والترقي. ومع التداعيات غير المباشرة للمجازر التركية في البلقان التي خلّفت أكثر من مليون قتيل وأدت إلى مليون آخر من اللاجئين، لم تعد الكتل السكانية الأقلوية المحتضنة من ضمن السلطنة العثمانية محمية[١٧]. وأُعيد توطين اللاجئين الأتراك المعدمين في الأناضول، ما أدى سريعاً إلى الإبادة الأرمنية.

وبررت الحرب أعمالاً وحشية جديدة، وفي حالة الشخصيات القومية العربية، اعتُقِل المئات إن لم يكن الألوف، وعُذِّب كثيرون، وأُعدِم العشرات في شكل دوري في دمشق وبيروت. وفي أيلول ١٩١٨ التحق سركيس طوروسيان بالثورة العربية ومع الوقت قاد ستة آلاف جندي عربي ساعدوا في تحرير دمشق. وكما ذُكِر أعلاه، التقى طوروسيان بالرائد نوري بك (نوري يوسف)، الذي كان وقتئذ ضابط أركان في الفيلق الـ١٤ العثماني، وكان قريبه قد شُنِق في دمشق قبل أربعة أسابيع[١٨]. وفي فلسطين أيضاً التقى النقيب سركيس طوروسيان بـ«تي. إي. لورنس»، الذي اكتسب موقعاً أسطورياً باسم لورنس العرب.

لورنس العرب

كان تي إي لورنس (١٨٨٨ - ١٩٣٥) شخصية معقدة بالتأكيد؛ أكثر من مجرد صراف للرواتب كما كتب طوروسيان في مذكراته. فوفق الأرمني، كان العقيد لورنس العرب يحمل «كيس الذهب البريطاني وراء الخطوط» في ما كان طوروسيان في أتون المعارك. «سميناه بالعربية «خواجة المصاري» أي

صراف الرواتب»، يقول مؤكداً، قبل أن يضيف: «كان في الواقع صراف الرواتب ومراقب الدوام في آن واحد، إذ وُضِع هناك ليتأكد من أن سادتنا الإمبرياليين البريطانيين كانوا يحصلون منا على عمل يوم كامل»[١٩]. وعلى الرغم من أن ما ذكره طوروسيان يفتقر إلى المجاملة، لم يكن الرجل الشخص الوحيد الذي لم يجذبه سحر تي إي لورنس. فجورج أنطونيوس، كاتب العمل المرجعي «اليقظة العربية»، التقى بالعقيد في لندن خلال زيارة في ١٩٢٠ - ١٩٢١، وتحادث لساعات مع الجاسوس الأسطوري. ويرى بعض المتابعين أن أنطونيوس كان «غير راض في شكل خاص وخرج بشعور مفاده بأن الضابط البريطاني لم يملك أي فهم للأسلوب السافر الذي نكثت به لندن بوعودها زمن الحرب في شأن الاستقلال العربي»[٢٠].

بغض النظر عن صحة ذلك، احتقر لورنس سوء الحكم العثماني وفكّر في الاستيلاء على الأراضي الخاضعة للإدارة العثمانية فور انتهاء المنافسات الإمبريالية بين أعضاء «الوفاق الثلاثي». وأصبح، طبعاً، شخصية شهيرة، يُشار إليه باسم «لورنس العرب» بسبب استعداده للاختلاط، وحصل على تقديرات نادرة أخرى، على الرغم من أن قلائل يستطيعون إنكار أن الأسطورة تضمنت جرعات لبرالية مما يمكن تسميته في مقاربة كريمة «اختلاقات ناجحة». ويكفي القول إن ضباطاً أجانب كثيرين تركوا بصماتهم على الثورة العربية، ولكن لا أحد كان كـ «تي. إي. لورنس»، ضابطاً شاباً أخذ مهمته ونفسه على محمل كبير من الجد.

ويجب التأكيد على أن لورنس انطلق بداية وحده في رحلة سيراً على قدميه إلى القلاع الصليبية في سورية العثمانية خلال صيف ١٩٠٩، وسبقت

U S S R
VLADI-KAVKAS
TIFLIS
BATUM
GEORGIA
AZIRBAIJAN
BAKU
CASPIAN SEA
ARMENIA
EREVAN
TRIBIZON
ERZRUM
BAIBOURT
BAYAZIT
ERZINJAN
MUSH
BITLIS
VAN
TABRIZ
DIARBEKIR
TIGRIS R
NINVEH
NISIBIN
MUSUL
KERKUK
SINNA
PERSIA
HAMADAN
FATHA
TIKRIT
KERMAHSHAH
YEPRAS R.
BAGDAD
K. TUMATR
HO FATRA
HAGAN KHAN
KUT-EL AMARA
KURNA
BASRA
ARABIA
PERSIAN GOLF
100
150
200
MILES

الرحلة جولة مماثلة على القلاع الفرنسية الكثيرة قبل بضع سنوات. وعلى امتداد ألف ميل (ألف و٦٠٠ كيلومتر)، تعرّف لورنس إلى المشرق وتعلم العربية وزار المدن الأساسية للمنطقة، بما فيها حلب واللاذقية وطبعاً دمشق. وسافر إلى القدس، وعلى الرغم من أنه لم يغامر بالذهاب إلى شبه الجزيرة العربية في ١٩٠٩، عرف غريزياً أنه سيعود. وبعدما نال شهادة أولى في كلية ماغدالين بأوكسفورد، بدأ لورنس بحثاً للتخرج في «صناعة الفخار خلال القرون الوسطى» على الرغم من قبوله سريعاً عرضاً ليصبح عالم آثار مشاركاً في الشرق الأوسط. وفي كانون الأول ١٩١٠، أبحر إلى بيروت في لبنان حيث التحق بدورات متقدمة في العربية. وسرعان ما ركز على عمله في علم الآثار في أعمال التنقيب بكركميش قرب جرابلس شمال سورية حيث عمل بإدارة ديفيد جي هوغارث وآر كامبل تومسون من المتحف البريطاني. وكانت جرابلس قريبة من معبر مهم لخط بغداد للسكك الحديد الذي كان يمر عبر حلب، وخلال عمله في كركميش، أصبح لورنس مهتماً بالمسائل العسكرية. وفي تلك الفترة أيضاً، التقى للمرة الأولى جِرترود بِل، الشخصية التي ساهمت في تأسيس دولة العراق الحديثة وهي من النساء القليلات اللواتي أثّرن فيه. وبين ١٩١١ وبدء الحرب العالمية الأولى، عاد لورنس إلى المشرق مرتين على الأقل، واستماله الجيش البريطاني في كانون الثاني ١٩١٤، بدعوى أن يشكّل عمله في علم الآثار غطاء لمسح عسكري بريطاني لصحراء النقب في فلسطين التي كانت آنذاك تثير قلقاً متنامياً. واعتُبِر وضع خريطة للصحراء، التي ساهم لورنس فيها وحددت موارد المياه، مهمة للجيش البريطاني إذ توقع الأخير هجوماً عثمانياً على مصر في حال اندلاع حرب. وبصفته «عالم آثار»، سافر كثيراً، فزار العقبة والبتراء

والقلاع الصليبية في سورية كلها تقريباً. وفي تشرين الأول ١٩١٤، أي بعد ثلاثة أشهر على بدء الحرب العالمية الأولى في آب ١٩١٤، كُلِّف بمهمة استخبارية وعُيِّن فوراً في الفريق الاستخباري بالقاهرة[٢١].

طوروسيان ولورنس

وفق غايات ما كتبه طوروسيان، اعتبر لورنس الأرمن والعرب عناصر مفيدة في شكل متساوٍ لترقية الأهداف الإمبريالية البريطانية، لإنهاء الحكم العثماني في حركة سريعة. يُشار إلى أن لورنس في جرابلس، حيث أقام لثلاثة فصول صيف متتالية بدعوى أنه صراف الرواتب في الموقع الأثري التابع للمتحف البريطاني، لاحظ بالتأكيد سوء الحكم العثماني، وأصبح مألوفاً جداً لدى سكان محليين شاركوا آراءهم مع الرجل الفطن الذي صار فيما بعد عقيداً، وحوّل تلك الآراء بحذر إلى بند أساسي معادٍ للأتراك أبلغه إلى رؤسائه في القاهرة. وليست خطأً بالتالي الإشارة إلى أن لورنس استخدم الثورة العربية للانتقام وربما أمِل تحرير كيليكيا على الرغم من أن الأحداث بدّلت حساباته.

وفي نهاية المطاف، كانت معرفته بما حصل سليمة، وفق ما ورد في مراسلاته. وكشف لقاء بضابط عثماني مشاعره الحقيقية ومهمته المغايرة لمهمة صراف الرواتب. ففي ٢٩ نيسان ١٩١٦، أُرسِل لورنس، والعقيد إدوارد بيتش (رئيس أركان الاستخبارات في قوات المشاة الهندية)، والنقيب أوبري هربرت (رئيس الاستخبارات البحرية في بلاد ما بين النهرين والخليج الفارسي)، الملحقين جميعاً بوحدة الاستخبارات العسكرية في القاهرة، إلى كوت العمارة [في العراق اليوم] للتفاوض مع قائد الجيش العثماني الرابع،

خليل باشا، صبيحة معركة رئيسية تواجه فيها الإنكليز والعثمانيون. وطلب خليل باشا، وهو ابن أخ أنور باشا، قوارب بخارية نهرية لنقل الأسرى الإنكليز إلى بغداد، ووعد حتى بإعادتهم لاحقاً، على الرغم من أن الفريق فاوض على سعر لتحرير مدنيي الكوت (مليون جنيه إسترليني). وفيما ساوم الرجال حول التفاصيل على وليمة باذخة، وفي لحظة تكامل ذاتي، يبدو أن خليل باشا قال: «على الرغم من كل شيء، أيها السادة، تشبه مصالحنا كبناة لإمبراطورية مصالحكم كثيراً. يجب ألّا يقف أي شيء بيننا». ورد هربرت بالقول: «ثمة فقط مليون أرمني ميت»[٢٢]. وانفضّ الاجتماع فجأة، ولكن بمرور السنوات، انتقلت العبارة من هربرت إلى لورنس لتعزيز السمعة الأسطورية للأخير أكثر[٢٣].

تدمير القوميتين العربية والأرمنية

على الرغم من المكائد البريطانية، التي صقلها لورنس للورد كيتشنر من خلال اقتراح «الإنزال في الإسكندرونة»، وهي خطة طوارئ كانت كفيلة بشطر السلطنة إلى شطرين، كانت الرغبة المستميتة لجمعية الاتحاد والترقي تتمثل في خنق القوميتين العربية والأرمنية في ١٩٠٨، فالجمعية كانت حزباً شبه بلشفي - لم يكن أكثر من بروفة على الطريقة التركية لاستيلاء البلاشفة لاحقاً على مملكة القيصر - نسق مع الألمان بدءاً من شباط ١٩١٤ ولم يملك بالتالي أي مصلحة في تطبيق الإصلاحات التي ادعى أنه ينادي بها[٢٤]. فعلى العكس، كان هدف الجمعية إبطال الصفة العثمانية للسلطنة إذ عمل قادتها بجد لتتريكها. وفي الواقع، رحب توابع الجمعية بعرض يتضمن

إنهاء «مشاكلهم» القومية العربية والأرمنية، بالإقرار تحديداً بعمليات تبادل سكاني، الأمر الذي أثبت أنه بروفة ذكية بالنسبة إلى لينين في ١٩١٧ [٢٥].

وكتم لورنس أوهاماً قروسطية عن تخليص السكان الأصليين من السيطرة التركية، وعلى الرغم من أن اقتراحه «الإنزال في الإسكندرونة» كان عبارة عن رغبة شخصية في نيل اليد العليا في الأهداف الإستراتيجية، كان يمكن للتطور الطبيعي للاقتراح – في حال تنفيذه – أن يفضي بسهولة إلى احتلال روسيا القسطنطينية، إلى جانب فرنسا وبريطانيا. وفي نهاية المطاف، فشلت هذه الخطط، ولكن رغبة جمعية الاتحاد والترقي في تتريك المجتمع العثماني استمرت، وكانت النتائج وخيمة للكتل السكانية الأقلوية. وحصلت إحدى الحلقات الأكثر إثارة للاهتمام في شأن هذه الميول بين كاريكين بسترمادجيان، المعروف أكثر باسمه الحركي أرمين غارو، ووزير الداخلية العثماني العضو في الترويكا التي حكمت خلال الحرب، طلعت باشا.

كان غارو، القائد المميز للاتحاد الثوري الأرمني (ARF) والسفير الأول إلى الولايات المتحدة لأرمينيا المستقلة في ١٩١٨، ناشطاً طوال حياته في كارين [في ولاية أرضروم اليوم]، ونظم في ٢٦ آب ١٨٩٦ هجوماً على المصرف العثماني كسب من وراءه دعماً وغضباً في آن واحد. وخلال لقاء في تموز ١٩١٤ مع طلعت باشا لمناقشة إعادة فتح صحيفة مغلقة، أثار نقاش وجودي أسئلة جذرية في ذهن غارو الذي أصغى لساعات كثيرة من دون أن يقول كثيراً. وبعدما أثار الصمت طلعت، طرح السؤال التالي على غارو: «غارو، لماذا لم تقل شيئاً الليلة؟». ورد الأرمني: «ماذا أقول حين أستطيع

أن أرى بوضوح أنك أصبحت متعجرفاً جداً بسبب نجاحاتك الأخيرة فتحاول أن تلعب بنا؟» احتج طلعت، طبعاً، على الرغم من أن غارو أضاف رداً سريعاً إذ قال مؤكداً: «سيقود الطريق الذي تتبعه السلطنة العثمانية إلى هاوية. لقد أسكرتكم نجاحاتكم الأخيرة وجرفكم جنون العظمة [كذا]، فتخليتم أنفسكم نابوليونات وبسماركات». وقاطعه طلعت، على ما يبدو، بابتسامة خبيثة، قائلاً: «أنا بسمارك»، ولكن الكلمات التالية لغارو - والتي تستحق قراءة وقراءة ثانية بانتباه أقصى - بينت الهوة التي كانت تفرّق بين المواطنين العثمانيين:

«نعم، أنت كذلك وأنت مخطئ إذ تعتقد بهذا. جميعكم مجموعة من الجهلة، لا تعرفون إلى أين تقودون السلطنة. تريد دليلاً؟ ألم تكن أنت الذي قال قبل فترة وجيزة لـ [أرشاك] فراميان [برلماني عثماني وعضو في اللجنة المركزية للاتحاد الثوري الأرمني] أنكم ستترّكون الأكراد؟ كيف؟ بفضل أي من مواهبكم الحضارية؟ لو عرفت شيئاً من التاريخ، لما تلفظت بترهات كهذه. هل نسيت أنكم أنتم الأتراك جئتم إلى أرضنا قبل ٥٠٠ أو ٦٠٠ سنة، وقبل وصولكم جاءت أمم أخر ومضت على رؤوسنا ورؤوس الأكراد - الفرس والرومان والعرب والبيزنطيون. بما أن أياً منهم لم يستطع استيعاب الأكراد، كيف ستستطيعون أنتم؟ ...

أما بالنسبة إلى قضيتنا، فلستم صادقين. تظنون أن ستهدهدوننا لكي ننام على وعودكم، ولكي تخلقوا كذلك ظروفاً سياسية - اقتصادية كتفريغ أرمينيا من الأرمن، فتتخلصون من المسألة الأرمنية مرة واحدة وإلى الأبد. هذا هو الدليل الثاني على جهلكم»[٢٦].

يؤكد حديث غارو ومذكرات طوروسيان أن الأرمن عارضوا سياسة التتريك التي انتهجها الباب العالي، والتي وفق الأهداف العملية كلها، قررت مصير الأقليات في السلطنة، بمن فيهم العرب والأرمن والأكراد وغيرهم. ومثلما بينت الأحداث التي تلت، فشلت القوى الغربية، بقيادة الولايات المتحدة، في الاعتراف بالإبادة الأرمنية، ولذلك أخذ قلائل القوميتين الأرمنية والعربية في حسبان حقيقي. وكان من المفارقات أن مصير القوميتين الأرمنية والعربية تشابك إذ وجد الشعبان تعزية في قيم أساسية.

استنتاج

لولا الحركات القومية العربية القوية التي عبّأت المئات من المفكرين في المشرق، لأمكن التوصل إلى استنتاج سليم مفاده أن مسؤولي جمعية الاتحاد والترقي في السلطنة العثمانية كانوا سيتمكنون على الأرجح من تحقيق هدفهم بالقضاء على الأمة الأرمنية. كذلك وخلال القرن الماضي، حافظ الأرمن على بعض من حكمهم الذاتي بأن أصبحوا شركاء كاملين في السياسات القومية لكثير من البلدان العربية، خصوصاً لبنان. ونتيجة لذلك، يمكن القول بأن القومية الأرمنية، من دون القومية العربية أو العروبة ومن دون الثورة العربية، لم تكن على الأرجح لتنجو، ولو نجت، لامتُصّت في مخططات أوسع. باختصار، يدين الأرمن بكثير إلى الشعوب العربية التي آوتهم في أوقات الحاجة، والتي - وهذا أمر أُهمِل في أغلبية الأحيان ولكنه يستحق التكرار فيما تحيي الأمة مئوية مأساوية - سمحت للأمة بالازدهار من دون تهديد بالذوبان.

لقد أهدى سركيس طوروسيان إلى القراء عموماً والباحثين خصوصاً كتاباً استثنائياً روى فيه مذكراته كجندي أرمني خدم عند جبهات مختلفة في الجيش العثماني. وكشف المصير الذي لاقته عائلته إذ رُحِّلَت وأُبيدَت إلى جانب ١,٥ مليون أرمني. وكان ما كتبه رواية تاريخية تقوم على قصة حياته التي لا يمكن، بكلام بسيط، إهمالها. وقدمت «الحقائق التاريخية» التي أوردها في هذه الصفحات قصة معقدة، عاشها آخرون، في جهد لتبيان طرق معينة للتفكير سادت في وقت من الأوقات.

د. ج. كشيشيان
زميل أول
مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
الرياض- المملكة العربية السعودية

هوامش

١ لا تقصد هذه المقدمة التغاضي عن الخسائر الكبيرة في صفوف الضباط والجنود الأتراك الذين قاتلوا قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها حتى ولو كان التركيز على المصير الذي أنتهى إليه الأرمن. وثمة كتابان يضمان خلفية صلبة عن الموضوع، هما Lord Kinross, The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire, New York: Morrow Quill Paperbacks, 1977, and Sean McMeekin, The Berlin–Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power, Cambridge, Massachusetts: The Belknap Press of Harvard University Press, 2010. انظر أيضاً Aykut Kansu, The Revolution of 1908 in Turkey, Leiden, The Netherlands: E.J. Brill, 1997، و Christopher J. Walker, Armenia: The Survival of A Nation, Revised Second Edition, New York: St. Martin's Press, 1980.

٢ James Wilson Pierce, ed., Story of Turkey and Armenia, New York: R.H. Woodward Company, 1896, p. 26.

٣ Taner Akcam, «O kitapta sadece dedemin savasta yasadiklari var,» Radikal (بالتركية), at http://www.radikal.com.tr/turkiye/o_kitapta_sadece_dedemin_savasta_yasadiklari_var-1115559.

٤ Edward Erickson, Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War, Westport, Connecticut: Greenwood Publishing, 2001, p. 94. See also Edward Erickson, «Strength against Weakness: Ottoman Military Effectiveness at Gallipoli, 1915,» The Journal of Military History 65:4, October 2001, pp. 981-1012.

٥ Sarkis Torossian, From Dardanelles to Palestine: A True Story of Five Battle Fronts of

,Turkey and her Allies and a Harem Romance, Boston: Meador Publishing Company

١٩٢٩, ١٩٤٧, pp ٨٦, ١٠٠-١٠٢, ١٨٥-١٨٦.

٦ المصدر نفسه، ص. ٦٠.

٧ المصدر نفسه، ص. ٦٠-٦٨.

٨ في التركية، التعبير المستخدم للإبادة هو soykırım، على الرغم من وجود تعبير مفيد أيضاً، هو kıtal ومعناها «المجازر» أو في شكل أدق «أعمال القتل الجماعية»؛ هما كلمتان يجب أن تُستخدَما في شكل أوسع من باحثي البلاد. ومع الوقت، وعاجلاً وليس آجلاً، كما يُؤمَل، سيستوعب المجتمع التركي تاريخه الخاص به، لشفاء نفسه ولإحقاق العدالة في آن واحد. وسيكون على جيل جديد من الباحثين الأتراك التحقيق في ما ارتكبه أسلافهم العثمانيون، وشرح هذه الحالة الذهنية لأمة مبرمجة على الإنكار، ومواجهة، تدريجياً، المعترف به عالمياً واقعاً استناداً إلى أدلة غير قابلة للدحض. لقراءة نقاشات مفصلة، انظر Donald Bloxham, The Great Game of Genocide: Imperialism, Nationalism, and .the Destruction of the Ottoman Armenians, New York: Oxford University Press, 2005 انظر أيضاً Feroz Ahmad, The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908-1914, New York: Columbia University Press, 2010; Fatma Müge G?çek, «Turkish Historiography and the Unbearable Weight of 1915,» in Richard Hovannisian, ed., Cultural and Ethical Legacies of the Armenian Genocide, New Jersey: Transaction Publishers, 2007, pp. 337-68; Taner Akcam, From Empire to Republic: Turkish Nationalism and the Armenian Genocide, London and New York: Zed Books, 2004; and Idem, A Shameful Act: The Armenian Genocide and the .Question of Turkish Responsibility, New York: Henry Holt and Company, 2006

٩ Ayhan Aktar, «Yüzbasi Torosyan'in Adi Yok!» [النقيب طوروسيان غير موجود]

at https: / /www.academia.edu/5534180/Yuzbasi_Torosyanin_adi_yok_ (بالتركية)
(الإشارة لنوري Nobody_mentions_the_name_of_Captain_Torossian_, pp. 13-93
يوسف في الصفحة ٤٤).

١٠ Torossian, op. cit., p. 186.

١١ Sarkis Torossian, Canakkale'den Filistin Cephesine, Istanbul: Iletisim Publications, 2012.

١٢ نشر المؤرخ وعالم الاجتماع التركي - الألماني تانير أكشام - الذي يتبوأ مقعد الأستاذية لروبرت أرام وماريان كالودسيان وستيفن وماريون موغار لدراسات الإبادة الأرمنية في مركز عائلة ستراسلر لدراسات المحرقة والإبادة في جامعة كلارك بورسستر (ولاية ماساتشوستس الأميركية) - أبرز محطات النقاش على صفحته الإلكترونية. وباعتباره أحد أول الأكاديميين الأتراك الذين أقروا الإبادة الأرمنية وناقشوها علناً، قدّم أكشام تفنيدات أساسية، استناداً إلى وثائق أصلية متوافرة كلها على موقعه الإلكتروني. أنظر Taner Akçam, «Sarkis Torossian Debate,» at http://www.tanerakcam.com/debates/sarkis-torossian−debate/.

١٣ Taner Akçam, «Where do I stand in the Torosyan Debates,» originally published in Turkish in Taraf on 24 December 2012 (Translated by Fatima Sakarya) at http://www.tanerakcam.com/debates/where-do-i-stand-in-the-torosyan−debates/.

١٤ Hakan Erdem, Gerçek ile Kurmaca Arasinda, Torosyan'in Acayip Hikayesi [بين الحقيقة والخيال: القصة المذهلة لطوروسيان], Istanbul: Dogan Kitap, 2012.

١٥ Michael Provence, The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism, Austin: University of Texas Press, 2005. See also George Antonius, The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement, New York: G. P. Putnam's Sons, 1946;

Salim Tamari, Year of the Locust: A Soldier's Diary and the Erasure of Palestine's Ottoman Past, Berkeley, Los Angeles and London: University of California Press, 2011; Bruce Masters, The Arabs of the Ottoman Empire, 1516-1918: A Social and Cultural History, Cambridge: Cambridge University Press, 2013; Jane Hathaway with contributions by Karl Barbir, The Arab Lands under Ottoman Rule: 1516-1800, Harlow, United Kingdom: Pearson, 2008; and Ussama Makdisi, The Culture of Sectarianism: Community, History, and Violence in Nineteenth-Century Ottoman Lebanon, Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2000.

١٦ لمناقشة كاملة لجمعية الاتحاد والترقي، انظر Feroz Ahmad، مرجع سابق.

١٧ Richard C. Hall, The Balkan Wars 1912-1913: Prelude to the First World War, London and New York: Routledge, 2000, pp. 1-21.

١٨ Torossian, op. cit., pp. 126-131.

١٩ في الأصل، ترد صراف الرواتب كـ"Havaja-el-Masra" وهي تركية عامية. انظر Torossian, op. cit., p. 19.

٢٠ Kai Bird, Crossing Mandelbaum Gate: Coming of Age between the Arabs and Israelis, 1956-1978, New York: Scribner, 2010, p. 38.

٢١ ثمة العشرات من الكتب عن تي إي لورنس، تحاول شرح حياته الغامضة. للاطلاع على عيّنة من سير تشبه سير القديسين، انظر Malcolm Brown and Julia Cave, A Touch of Genius: The Life of T. E. Lawrence, London: J. M. Brent, 1988; Robert Graves, Lawrence and the Arabs, London: Jonathan Cape, 1927; John E. Mack, A Prince of Our Disorder, Boston: Little, Brown, 1976; Anthony Nutting, Lawrence of Arabia: The Man and the Motive, London, Hollis & Carter, 1961; و With Lowell Thomas,

Lawrence in Arabia, London: Hutchinson and Co., 1924. وظهرت أول دراسة نقدية عن لورنس في ١٩٥٥ وخلقت جدالاً كبيراً، شمل محاولات لمنع نشر الكتاب، بذريعة أن الكاتب تجرأ على طرح أسئلة غير قويمة. انظر

Richard Aldington, Lawrence of Arabia: A Biographical Enquiry, London: Collins, 1955.

ونوقشت مصاعب ألدنغتون مع ناشره ومراجعيه ومسؤولين حكوميين بارزين في شكل ذكي في عمل ممتع جداً. انظر

Fred D. Crawford, Richard Aldington and Lawrence of Arabia: A Cautionary Tale, Carbondale and Edwardsville: Southern Illinois University Press, 1998.

٢٢ Aldington, op. cit., p. 150 [attributed, in turn, to Robert Graves, op. cit., p. 87].

٢٣ للمزيد عن الموضوع من هربرت إلى لورنس، انظر

Lawrence James, The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia, New York: Skyhorse Publishing, 2008, p. 147.

٢٤ أصبح الفيلد مارشال اللورد هوراشيو هربرت كيتشنر (١٨٥٠-١٩١٦) وزير الحرب البريطاني في بداية الحرب العالمية الثانية وتوقع حرباً طويلة. ولذلك نظم أكبر جيش من المتطوعين عرفته بريطانيا حتى ذلك الوقت، حتى ولو لم تمنع تحذيراته حصول حالات نقص. وقُتِل في ١٩١٦ حين أغرق لغم ألماني بارجة كانت تنقله إلى مفاوضات مع روسيا، على الرغم من أن تحذيراته التي وجهها في كانون الثاني ١٩١٦ إلى فرنسا تهم كتاب طوروسيان. ففي ذلك الوقت، اعتقد كيتشنر بأن الجبهة الغربية لا يمكن اختراقها، ولهذا السبب نظر بتعاطف إلى توصيات لورنس بتنظيم إنزالات برمائية على سواحل بحر البلطيق أو بحر الشمال. وفي جهد للعثور على طريقة لتخفيف الضغط على الجبهة الغربية، اقترح اللورد كيتشنر غزو الإسكندرونة بالفيلق الأسترالي والنيوزيلندي (ANZAC)، إلى جانب جنود هنود، على الرغم من أن لورنس رغب في إضافة قوات

عربية وأرمنية غير نظامية إلى الفريق. وكانت الإسكندرونة تضم كتلة سكانية مسيحية كبيرة، وكانت المركز الإستراتيجي لشبكة السكك الحديد الخاصة بالسلطنة العثمانية، وكانت السيطرة عليها ستقطع السلطنة إلى قسمين، وهو الأمر الذي أراد لورنس تحقيقه تحديداً. وأُهمِل الاقتراح لصالح حملة غاليبولي، وهي فكرة تُعزى إلى ونستون تشرشل، مع ما رافقها من تداعيات وخيمة. انظر Robin Neillands, The Death of Glory: The Western Front 1915, London: John Murray, 2006, pp. 165-175. للاطلاع على «الإنزال في الإسكندرونة» من وجهة نظر لورنس، نظر: Scott Anderson, Lawrence in Arabia: War, Deceit, Imperial Folly and the Making of the Modern Middle East, New York: Doubleday, 2013, pp. 95-99 and 141-147.

٢٥ Grigoris Balakian, Armenian Golgotha: A Memoir of the Armenian Genocide, 1915-1918, New York: Knopf, 2009, pp. 23-24.

٢٦ Armen Garo, Bank Ottoman: The Memoirs of Armen Garo, Detroit, Michigan: Armen Topuzian Publisher, 1990, pp. 190-191.

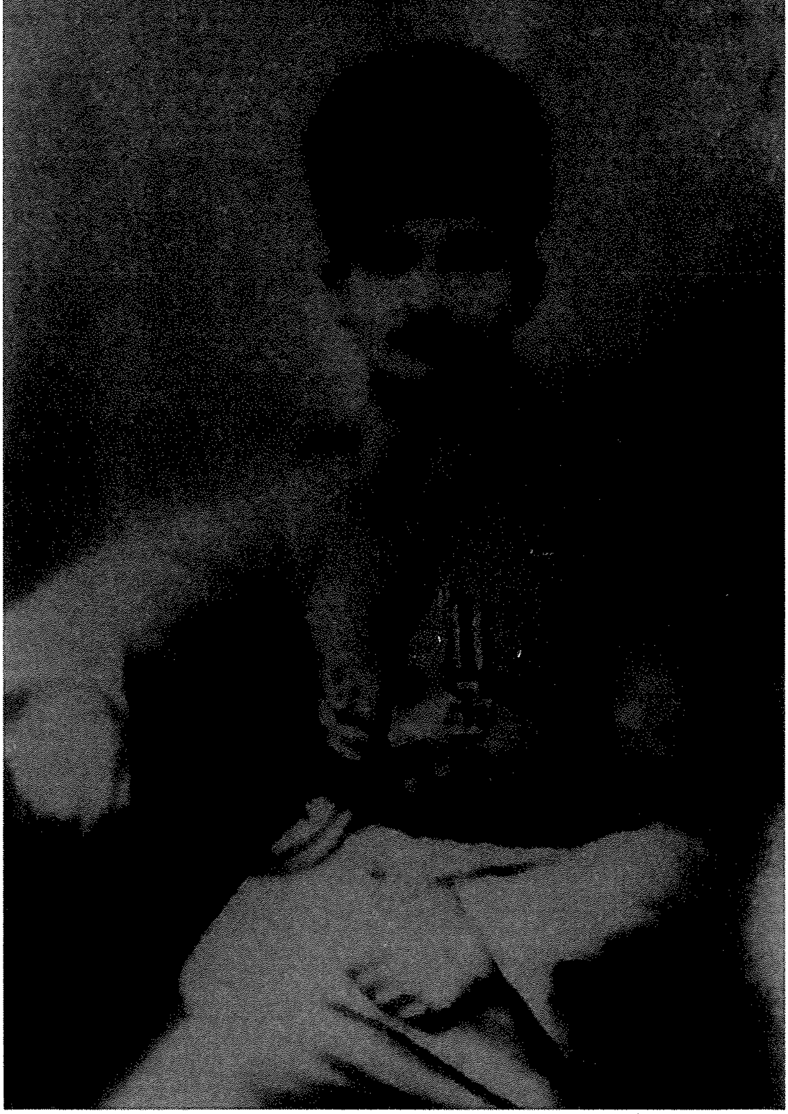

النقيب طوروسيان

إلى ذكرى والديّ الشهيدين

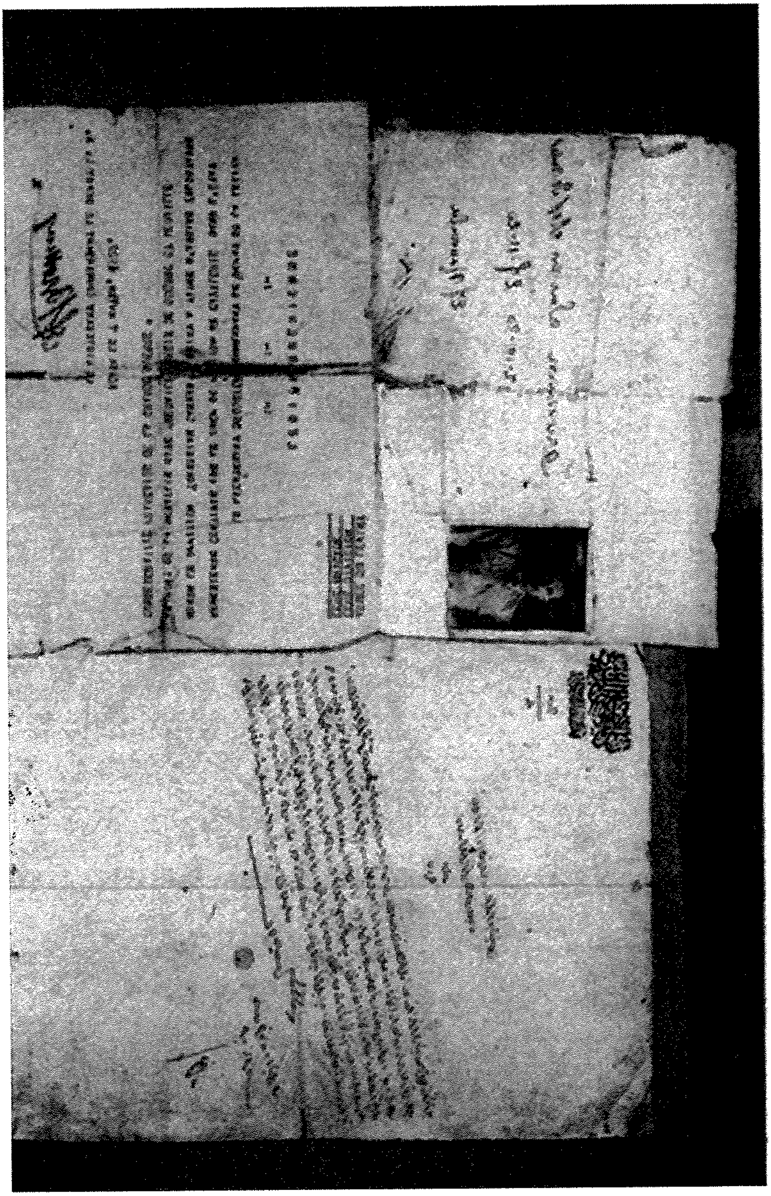

شهادتا الجدارة الخاصتان بالنقيب طوروسيان من الحكومتين العثمانية والفرنسية

شهادة من الحكومة العثمانية

بسم الله

الجيش السلطاني العثماني

القائد العام

نقيب المدفعية – سركيس بك طوروسيان

ابن أوهان

المولود في ولاية قيصرية، سنجق إفيريك

كان النقيب سركيس بك طوروسيان قائداً لبطارية المدفعية الثقيلة في فوجنا السادس في حصن أرطغرل (بطارية تلة الكابيتول) خلال حرب الدردنيل. وخلال هجوم للعدو على المضائق في ١٩ و٢٥ شباط ١٩١٥، واجه النقيب طوروسيان بوارج العدو بشجاعة وبسالة، فأغرق بارجة وعطّل أخرى. وأصبح لاحقاً مسؤولاً عن قيادة حصن روملي الحميدية. وخلال الهجمات الرهيبة لبوارج العدو عبر المضائق في ١٨ آذار ١٩١٥، قاتل العدو مجدداً ببسالة وأغرق بارجة معادية أخرى فتحقق بذلك النصر. وجُرِح الشخص المنوّه به أثناء القتال وأبدى شجاعة كبرى وحقق النصر للجيش السلطاني. ولذلك هو يُشكَر باسم الجيش ويُرقّى إلى رتبة نقيب بدءاً من ١٦ كانون الأول ١٩١٤. ومُنِح أيضاً ميدالية الحرب للحكومة السلطانية العثمانية.

شهادة على ما ورد أعلاه، أُعطِيت هذه الشهادة إلى الشخص المذكور.

التاريخ ١٨ أيار ١٩١٥.

القائد العام ووزير الحرب – أنور

سيرة ذاتية

وُلِد النقيب طوروسيان في العام ١٨٩١ لوالدين أرمنيين في مدينة إفيريك الواقعة في الجزء الجنوبي الأوسط من السلطنة العثمانية. وأعطته دراسته الإلزامية المبكرة في «المدارس الأبرشية المحلية الأرمنية» أفضلية مهمة في القدرة الفكرية على جيرانه المسلمين غير المتعلمين الذين لم ينل ٩٥ بالمئة منهم أي نوع من التعليم وهم كطبقة، أفضل بقليل من المتوحشين في نمط حياتهم. وكان مشبعاً منذ نعومة أظفاره برغبة في أن يصبح جندياً، وهو مجال محظور تماماً بالقوانين التركية على الرعايا المسيحيين، لكن وفيما كان ملتحقاً بالمدرسة الرسمية في أدرنة، سرعان ما صادق شاباً عربياً اسمه محرّم، هو ابن عميد القسطنطينية. وإذ قُبِل من خلال هذه الصداقة في منزل محرّم وعائلته كابن، ضَمِن عميد القسطنطينية، وهو باشا نافذ، تعيين الشابين في الكلية العسكرية. وخلال زيارات كثيرة في عطل نهاية الأسبوع إلى قصر الباشا، اشتعلت العلاقة العاطفية بين سركيس وشقيقة محرّم.

وحين تخرّج في ١٩١٤ برتبة ملازم ثانٍ في المدفعية، أُرسِل طوروسيان إلى ألمانيا لثلاثة أشهر، وقبيل إعلان تركيا الحرب، عُيِّن قائداً لحصن أرطغرل (رأس هيليس) الذي كان يحمي المدخل إلى الدردنيل. ومنذئذ وحتى وصول الجنرال أللنبي إلى أبواب فلسطين، كانت تجاربه ذات طبيعة غمرته بالثناء من رؤسائه وجلبت له أوسمة من تركيا وألمانيا والنمسا وبلغاريا. لكن السنوات جلبت أيضاً حزناً تمثّل بموت صديق طفولته محرّم، وخطيبته، وذبح والديه بأيدي الأتراك.

وإذ علم بأن شقيقين له كانا قد سافرا إلى أميركا عندما التحق بالكلية العسكرية، وعادا مع الآلاف من المتطوعين الأرمن للانضمام إلى قضية الحلفاء، وإذ كان ممتلئاً بخوف استمر حياته كلها من الأتراك ونفاقهم إذ ذبحوا والديه، استغل الفرصة وانشقّ عن قيادته التركية والتحق بالعرب بقيادة نوري يوسف المنضوين تحت لواء قوات الحلفاء. ولشجاعته وقيادته الممتازة على أبواب فلسطين ولاحقاً باعتباره قائد مفرزة في المقر العام للخيّالة التابع للفيلق الأرمني ذي القيادة الفرنسية من بيروت إلى كيليكيا، نال أوسمة من إنكلترا وفرنسا.

ومنحه العمل على خمس جبهات، إلى جانب معرفة شاملة بالظروف نالها من التجربة الفعلية، مادة ضخمة ليوميات مكثفة – ونعتقد بأنكم ستوافقون على أنه أحسن استخدام مادته.

النقيب طوروسيان معروف جيداً في فيلادلفيا وحولها، حيث حاضر أمام تجمعات كثيرة من قدامى المحاربين وغيرها.

مقدمة النسخة الإنكليزية

تعود قوة هذا الكتاب وحيويته إلى واقع أنه رواية عن تجربة. فما يراه الرجال ويفعلونه ويشعرون به مثير دائماً لاهتمام نظرائهم. وثمة مغزى يستطيع من خلاله كل رجل، مهما كانت حياته رتيبة، أن يروي قصة تثير اهتماماً لافتاً. وإن قصر الرجل نفسه على ما يفهمه حقاً، فسيصغي الآخرون إليه. ولا نثير السأم في قصصنا إلا حين ننقل عن غيرنا. هنا تُفتقَد ميزة المرجعية. وهذا ما يقر به غريزياً المستمعون إلينا أو قراؤنا. وهنا لم يعمل النقيب طوروسيان وفق حدود كهذه. ففي هذه القصة المثيرة عن الحرب عند جبهتها الأغنى صوراً، يصف بوضوح وحركة وقائع ومغامرات جرت على مسرح أدى فيه دوراً حقيقياً ومهماً. والمؤرخون اللاحقون للحرب العظمى، حين سيتعاملون مع الجهود المجهضة في شكل مأسوي للحلفاء في الدردنيل واجتياح أللنبي التاريخي لفلسطين، سيجدون في هذا الكتاب مصدراً قيّماً للمعلومات والمواد التي ستلوّن قصتهم.

وليس من قبيل المبالغة القول إن الاهتمام الإنساني مستمر، وأن مستواه عالٍ من البداية إلى النهاية. صحيح أن ثمة فكرة شعبية تقول إن الرأي العام «ضجر» من كتب الحرب. لكن هذه الفكرة ينقضها نجاح كتب مثل كل شيء هادئ عند الجبهة الغربية، ونهاية الرحلة، ورماح ضدنا، ودزينة غيرها يمكن ذكرها. وفيما يبدو هدف الكاتب موضوعياً من دون أي فكرة لدعاية إلى السلام، فكل من يقرأ هذا الكتاب، ويعيش بذلك مع الكاتب الآمال والمخاوف، والأخطار والنضالات، والانتصارات والهزائم، التي مر بها، سيفرغ من القصة بتصميم على بذل ما في وسعه كله لضمان العثور على وسيلة لتسوية نزاعاتنا السياسية والعرقية والدينية أفضل من حمل السلاح. وكم غريب ألّا يرى الرجال أنهم لن يدّعوا في شكل صحيح بأنهم متحضرون حتى يتمكنوا من تسوية خلافاتهم من خلال اتفاقيات متبادلة يجري التوصل إليها في شكل منصف ونزيه.

وعلى الرغم من أن النقيب طوروسيان أرمني وتنتمي شخصيات كثيرة ستقابلنا في صفحاته إلى ذلك العرق التاريخي، تسمو قصته فوق المحلي والمؤقت وتملك جاذبية عالمية. وهي تقدّم عرضاً صورة للورنس العظيم، الذي ارتبط به النقيب طوروسيان في شكل قصير ولكن حميم والذي قدّم له النقيب مساعدة مهمة.

لكن وختاماً، ليس من قبيل المخاطرة القول إن أي شخص، سواء أكان قارئاً عاماً يبحث عن مغامرة بالواسطة، أم دارساً للحرب العظمى، أم من أبناء الشرق الأدنى، بمآسيه وإنجازاته كلها، سيجد في هذا الكتاب معيناً غنياً للإلهام والمعلومات.

جون أرشيبالد ماك كالوم

الفصل الأول

أيام الحرب العالمية الأولى

مر عقد من الزمن أو أكثر على مغادرتي الشرق، عقد من الزمن أو أكثر على السلام لي والصراع من أجل الوجود في أميركا. وكانت لي ساعات كثيرة تفكّرت خلالها، وتوصلت إلى استنتاج مفاده بأن سعادة الحياة قد تتمثل في مجرد العيش وفي الافتتان بطيش الفرح، وفي الشعور بحدة الأسى، وفي معرفة الحب ومعرفة الكره، لكن امتلاء الحياة هو فهم للقوى الاجتماعية والاقتصادية، والدوافع وراء أفعال الرجال والطبقات والأمم.

أظن أن ذهني لا يزال يضم كثيراً من الرجل العسكري الذي كنته، فعملياتي الفكرية لا تزال تشي بتدريبي في الكلية العسكرية. فأنا لست بأديب.

والقصة التي لدي لأرويها قد تبدو لكم مغامرة، وهي في الواقع رواية عن جزء من حياتي. وليعذرني القارئ إذا كان أسلوبي مشحوناً بالعواطف

الجامحة بسبب تركيزي على الفوز بمعركة ما. لقد شاهدت النجوم الباردة الواضحة في الصحراء ليلاً، وضوء القمر فوق البوسفور، وفي ذاكرتي الأشفاق حين غلّف جمال لامتناهٍ الحدائق التركية القديمة، والأيام المشمسة حين سارع نثار من الغيوم كرسل حثيثة في السماوات. وأذكر مغارب بنفسجية ووردية قاتمة وذهبية وأرجوانية. أنا أعرف الشرق، والحب الأول الضائع، وجمال العبارة - وملل اللفتة اللفظية الثقيلة. لكنني أعرف أكثر عن الحرب والتهديد والجبال المجهولة المرئية أمام السواد الأدهم لعاصفة مقتربة.

* * * *

هل لي أن أستطرد لخمسة فصول قصيرة جداً؟ أعد بأنني لن أكرر ذلك أبداً. هي وسيلتي لأخفف بسرعة عن ذهني عبء السنوات والوصول إلى قصتي بسرعة.

العالم يتغير. لكن خلال الزمن الذي أكتب عنه، كان العالم محكوماً بالظلال الحائمة، الواسعة أو الضيقة، الطويلة أو القصيرة، لرجال صغار كانت ميزتاهم الكبيرتان عدم اكتراثهم لحيوات الرجال واستعدادهم للتضحية بآخرين في سبيل طموحاتهم هم. كانوا الرسل المحتضرين لنظام يموت. ربما سيكون مكانهم في التاريخ في صفوف الرهيبين والبشعين. كانوا رموزاً، رموزاً للقدر إذا أردتم، لا يشعرون بالفرح أو الندم في آن واحد، ولا يشعرون بالبطولات والتضحيات الخاصة بالملايين الذين اعتبروهم دمى لهم. كانوا مجهولين كالقدر ولكنهم، كما يسعدني اليوم أن أؤمن، حتميون بدرجة أقل منه. كانوا كآلهة متوحشة وحذقة، تفتقر إلى المرح والشفقة في

إرباكاتهم لحيوات الجموع الضخمة غير المعدودة، الملايين فوق الملايين التي عانت وكدّت وكانت في النهاية من نفّذ المهام البارزة كلها.

وثمة سخرية في هذا كله، فالظلال التي أعنيها كانت ساسة العالم. والسخرية التي أعنيها هي أن هذه الظلال، هؤلاء الساسة كانوا كأفراد غير ذوي علاقة بالنظام الاجتماعي الذي مثلوه، مثلما كانت حيوات الملايين التي سلبوها غير ذات صلة بهم هم. لم يكونوا أكثر من أدوات لإمبرياليي المال الأجانب الذين حكموا العالم كله في تلك الأيام التي أكتب عنها. كانوا الرجال الذين أدت مكائدهم الإمبريالية الأجنبية إلى ذبح أبي وأمي خلال مذبحة مئات الألوف بل الملايين من مواطنيّ. كانوا خونة المحرومين. وكانوا محكوماً عليهم بالرحيل فور حلول المأساة بشعبي.

* * * *

كنت نقيباً، أقود إحدى الكتائب المدفعية التركية، خلال الحرب العالمية، وقدت لاحقاً ستة آلاف خيال عربي في الثورة العربية في وقت كان العقيد لورنس العرب فيه لا يزال يحمل كيس الذهب البريطاني وراء الخطوط. سميناه بالعربية «خواجة المصاري» أي صراف الرواتب. وكان في الواقع صراف الرواتب ومراقب الدوام في آن معاً، إذ وُضِع هناك ليتأكد من أن سادتنا الإمبرياليين البريطانيين كانوا يحصلون منا على عمل يوم كامل.

وفي وقت ما آمنت بصدق بأن الأتراك كانوا قتلة والديّ وشعبي، وأن قسوتهم كانت السبب في موت شقيقتي، ولكنني أعرف الآن أن إنكلترا وفرنسا هما القتلة الحقيقيون، على الرغم من أن القاتل يمكن أن يكون أياً

من الأمم الإمبريالية الأجنبية الأخرى. فالأتراك لم يكونوا أكثر من أدوات للإمبريالية الأجنبية.

وألوم إنكلترا وفرنسا لأنني قدت البطارية التركية في حصن أرطغرل (رأس هيليس) في شبه جزيرة غاليبولي، ورأيت تحصيناتنا، حصناً تلو آخر، تُدمَّر وتتحول إلى شظايا بالبوارج الإنكليزية والفرنسية. ورأيت المنتصرين يبحرون بعيداً عن النصر ولا يعودون أبداً. وكانت الحرب العالمية لتنتهي قبل أن تبدأ لو أن إنكلترا رغبت في نصر في الدردنيل. لكن قوى الاستعمار الإنكليزية والفرنسية لم تود الانتصار، لأنها لم ترد أن ترفل القوى الروسية عبر دردنيل مغلوب، ولم ترغب في أن تتحدى روسيا استغلال إنكلترا لإمبراطوريتها الهندية ولا أن تتحدى الهيمنة الفرنسية على البحر المتوسط. ولذلك قُتِل أبي وأمي ورجال لا يُحصَون في أفعال بطولية عبثية عند المئات من جبهات الحرب.

* * * *

وعلى الرغم من أنني خدمت في الجيش التركي، فأنا أرمني المولد، وكنت من المسيحيين القلائل الذين أصبحوا ضباطاً في القوات العثمانية التركية.

وفي فقرة قصيرة، أضع نفسي عرقياً وجغرافياً هناك بمقدار ما يناسب ذلك وفق ما أعتقد. ويبدو وصف موطني القديم بالتفصيل صعباً جداً. كان عالماً غريباً تماماً عن أميركا.

ونحن الأرمن، باعتبارنا أقلية عرقية مضطهدة في أمة من الناس المحكومين بطريقة سيئة والمستغَلّين والأميين والذين يسوقهم رجال الدين، نعيش دائماً

في مناخ من الدس والتآمر. وحُكِمنا بالتجسس وسفك الدماء، بغضب لا يُوصَف، بمجازر وأعمال وحشية. باختصار حُكِمنا وفق ما يبدو أنه مصير الأقليات العرقية كلها على صعيد الحكم في العالم كله. وفي رغبتنا اليائسة في الحكم الذاتي استُغفِلنا، أولاً من روسيا الإمبريالية ثم من فرنسا الإمبريالية كذلك. لكن أسماء الأمم ليست بذات أهمية. فالإمبريالية الأجنبية لا تتغير هدفاً وممارسةً إلا سطحياً، ففي الجوهر تبقى غير نزيهة وعموماً جديرة بالازدراء. وشكّل الإمبرياليون الأجانب الذين دفعونا إلى الثورة والطموحات القومية الحجر الأعلى للرحى، فيما كان الحجر الأدنى الجموع التركية المستغَلّة التي حرضها على تجاوزاتها قادتها الديماغوجيون الذين حاولوا صرف انتباهها عن حظوظها العاثرة باستخدام الطعم الأرمني وبإثارة الحماسة الدينية والتعصب. وحُرِّضنا على طموحات قومية خيالية في شكل مستحيل حتى قرر الأتراك بحسم في نهاية المطاف، وقد يئسوا من التهديد المستمر لثورتنا، حل مشكلتهم الأرمنية بالمجازر الضخمة في الحرب العالمية.

وإذ أتذكر صباي، يبدو لي أن ثمة أمراً عسكرياً يتعلق بالمناخ نفسه، بالمباني نفسها التي عشنا فيها، والتي تعبّدنا فيها، والتي درسنا فيها. كان الأمر يشبه العيش في مدينة محاصرة، في معسكر مسلح، ولم ينقص سوى السلاح، فالرعايا المسيحيون في تركيا العثمانية كانوا ممنوعين من حمل أي سلاح، ولا حتى السيف. ودائماً كان ثمة أمر مكهرب في الهواء، مشحون باستمرار بالشائعات، بضوابط شديدة، بصبر كئيب وبخوف مقيم. ودائماً بدونا نحن الأرمن في إفيريك في انتظار إشارة ما، غامضة ورؤيوية، يمكن أن تخلخل بانوراما الأحداث الصاخبة. كنا في انتظار إشارة دينية.

التحقت بالمدرسة وراء جدران حجرية ضخمة في عقار للكنيسة الأرمنية. بدا الأمر كالدراسة في حصن. كانت الجدران بعلو ٢٠ قدماً [حوالى سبعة أمتار] تحيط بالمدارس الأبرشية والكنيسة ومنازل رجال الدين.

وبُنيَت منازلنا بالفكرة نفسها المتعلقة بتوفير أكبر حماية ممكنة لشعب غير مسلح ومضطهد في الأغلب. وكانت ذات جدران حجرية سميكة وضمت بين ١٦ و٢٠ غرفة، لذلك أمكن لعائلات كاملة، من عمات وخالات وأعمام وأخوال وأجداد، أن تعيش بعضها قرب بعض بأكبر مقدار ممكن؛ وفي ازدحامنا معاً، وفي تضامننا، كان لدينا دفاعنا الوحيد. وكان ثمة باب مدخل واحد فقط إلى كل بيت، وكان ضخماً مبنياً من ألواح ضخمة من الخشب الصلب. وتحت البيوت كانت توجد شبكات من الممرات والغرف التحت أرضية كانت النساء والأطفال يُدفَعون إليها ليعيشوا مفتقدين كل ما له علاقة بأساليب العيش الاعتيادية حتى تقرر الحكومة وقف المذبحة القائمة التي أطلقتها. وقاتل الرجال الأرمن بالعصي والحجارة التي كانت أسلحتهم الوحيدة.

ومن الميزات الأخرى التي أتذكرها أن المدينة أو القرية، حين تكون أرمنية، تزدحم البيوت معاً بسقوف متجاورة عن قرب. إنه التضامن مجدداً. كان دفاعنا الوحيد. وحتى لو كان الرجل مزارعاً كان يعيش في القرية ويمضي كل صباح إلى مزرعته في أطرافها.

ولهوت في ظلال الجدران الكئيبة وفي ظلال الخوف، وكنت مراهقاً حين ذُبِح ٣٥ ألفاً من مواطنيّ في ولاية كيليكيا التركية. وحصل ذلك مباشرة بعد تمرد «تركيا الفتاة» في ١٩٠٨ وفي الفترة التي ابتهج فيها الأتراك والأرمن معاً بسقوط السلطان عبد الحميد. وكانت نتيجة تلك المجزرة

السقوط النهائي للسلطان. ورُمِي في السجن واقتنعنا حينئذ بأن السلام والتحرر من الاضطهاد قد حلّا أخيراً. وأبحر أشقائي الأكبر إلى أميركا، أرض الوفرة الأسطورية آنذاك؛ كانت إمكانات عائلتنا متواضعة وكانت الدولارات من أميركا لتغير الوضع كثيراً.

بدا أن التهديد التركي والمسألة الأرمنية انتهيا.

الفصل الثاني

الأيام الذهبية للحرملك

تبدو الحياة دائماً من خلال نظرة استعادية أهم في شكل لامتناهٍ منها أثناء الأيام التي نتذكرها. فالأحداث السخيفة، المعززة بأحلامنا، تتخذ مع مرور الوقت منزلة الأحداث المهمة جداً؛ وفي الأغلب تُسوَّى أفعالنا الماضية وتُعقلَن بطريقة ما لتناسب عقيدتنا الحالية. حاولت تجنب هذا المطب. ويبدو أننا نحن الأرمن الصغار في إفيريك أدّينا دور الجنود بنزاهة أكبر قليلاً وبحزن أكبر قليلاً، فأن يكون أرمني جندياً حقيقياً في الجيش التركي وليس مجرّد مجنّد كان مستحيلاً عملياً. لكن عموماً، وباستثناء الظلال المنسحبة للخوف التي حامت حولنا إلى الأبد، كان شبابي المبكر هادئاً.

وعلى بعد نحو ٥٠٠ ميل [حوالى ٨٠٠ كيلومتر] من موطني، وحين

أصبحت، بفضل تضحية كبرى من والديّ، طالباً في الكلية الحكومية التركية في أدرنة. فاجأتني الحياة وبدأت مهنتي الغريبة.

وقديماً جداً، حين كانت حدة أسفي لا تزال جديدة بالنسبة إليّ، لو سألتموني أن أختصر سجل حياتي في جملة، لوجب عليّ أن أجيب بأن الحياة بدأت بالنسبة إليّ بصداقة في أدرنة وانتهت في بستان زيتون أسفل حديقة قديمة في شبه الجزيرة العربية.

كان محرّم عربياً، وكان والده الباشا عميد القسطنطينية.

القدر! المصادفة!

القدر هو النهاية والمصادفة هي الريح التي تدفع الرجال إلى هناك. والاثنان غامضان.

انعتوني ببلادة الذهن. قولوا إنني أملك في داخلي غموض الشرق. لكنني لو لم ألتقِ بمحرّم، فمن يعرف ما كان ليحصل!

التقينا خلال أيامنا الأولى في الكلية، عرضاً كزميلَي دراسة. لم يشكّل ظرف خاص بداية تعارفنا، ولكننا أصبحنا بالنسبة إلى بعضنا بعضاً صديقين أعز من شقيقين. وبحلول إجازة فصل الصيف الأول لنا، كنا لا نفترق، ومن خلال رسائل محرّم من موطنه عرفت عائلته في شكل حميم كأنها عائلتي. ويبدو أن رسائل محرّم كانت مليئة بالأحاديث عن صداقتنا فدُعيت إلى تمضية إجازاتي في قصر الباشا عند البوسفور.

أتمنى لو أستطيع أن أصوّر لكم ما شعرت به آنذاك ولا أزال أشعر به،

التشويق الخاص بتلك الأيام المجيدة، الروعة المبهرة، والإدهاش الخاص بالرخاء غير المعتاد الذي وجدت نفسي فيه.

في القصر، أحاطت بي العظمة الهادئة والنكهة الرائعة للشرق، الفسيفساء النفيسة، الأقمشة الغنية، والسجادات العجمية القديمة التي لا تُقدَّر بثمن والتي كنت أحياناً أجلس أمامها لدقائق أستمتع بتصاميمها المتنوعة، معجباً بالحرفية، والزراكش الفضية المتدلية من النوافذ العالية، والجلود العثمانية المصنوعة باليد.

كان الأمر كرواية خرافية. وكان حقيقياً في شكل ممتع ولكنه كان أيضاً غير قابل، إلى حد ما، للتصديق، ولا أشك أبداً في أن والدة محرّم الكريمة وشقيقتيه الحسّاستين في شكل عذب فهمن ذلك. وأصبح منزل الباشا موئل سعادتي - وبداية تلك الرحلة الطويلة القلقة التي بلغت الأسى أخيراً في تلك الحديقة التي لا تُنسى في شبه الجزيرة العربية.

هل نظرتم يوماً في عينين صافيتين غير مضطربتين، سوداوين ولامعتين، في وجه منحوت برقّة، وشاهدتم الأضواء والظلال تهمس كلمات لا تحتاج الشفتين إلى قولها؟ كانت عينا جميلة كذلك. كانت الشقيقة الصغرى لمحرّم، وأظن أنها كانت أكثر ميلاً إلى المغازلة من شقيقتها فريدة.

أتساءل إن كانت أقمار أخرى ستبزغ يوماً ما بجمال تلك التي بزغت فوق البوسفور ومن خلال النوافذ المشبكة حين كان الهواء مثقلاً بعبق الحديقة.

مرت سنواتنا في الكلية الحكومية بأدرنة كالحفيف السريع للصفحات؛ سنوات خالية من الهم، سعيدة، ومرحة، قادت محرّم إلى الأكاديمية

العسكرية، ولكنها قادتني إلى مكان لا أعرفه. وظيفة حكومية؟ رغبت في ما كان مستحيلاً تقريباً من بين كل الأمور لمسيحي أرمني، أن أكون ضابطاً في الجيش التركي.

لن أنسى ذلك اليوم حين عدت لتوي من التخرج فدُعينا إلى العشاء مع الباشا. كان يجلس وحيداً في قاعة الاستقبال الكبرى، قامة جليلة قاتمة تحت ثريا فضية ضخمة بشموعها المضاءة العديدة. وعلى طاولة للولائم قرب ديوان كانت ثمة أطباق ذهبية وفضية مليئة بالفاكهة والمكسرات يغطيها حجاب حريري.

كان محرّم أول من اقترح على والده أنني يجب أن أرافقه إلى الأكاديمية العسكرية.

راعني تهوّر محرّم، ولكنني شعرت بحزن وكآبة كبيرين حين أشار الباشا إلى صرامة القانون التركي فشعرت بوهن وشحوب. لا أبالغ؛ كان شعوري بهذا السوء.

وبدا الباشا آسفاً بعمق مثلي، وجلس لوقت طويل لا يتكلم، وكانت عيناه الكثيفتا السواد تنمّان عن تأمل وتفكير يتجاوزنا. وبعد فترة ابتسم وقال إن علينا ألّا نفقد الأمل.

وخلال الأيام القليلة التالية، جلت باضطراب في القصر، أفكر وأنا أتنقل بين الزوايا المتباعدة.

مرّ أسبوع ثم أُبلِغنا محرّم وأنا عن وليمة كبرى سيقيمها الباشا على شرف

رئيس الوزراء ودُعِيت إليها الدائرة الضيقة للشخصيات العسكرية وسائر وجهاء الدولة الذين اعتقد الباشا بأنهم سيدعمون خططه. لم نكن مدعوَّين إلى الوجبة، ولكننا استُدعِينا لاحقاً إلى الغرفة حين التمس الباشا بلباقة مساعدتهم في وضعي، أنا ابنه العزيز الثاني، كما وصفني، إلى جانب محرّم في التدريب العسكري، إكراماً لعائلته. وعُرِّفنا، محرّم وأنا، إلى كل مسؤول بدوره. غادرت الغرفة مبهوراً، تختلط في ذهني البزات الرائعة، والابتسامات المتألقة في الوجوه الداكنة المزينة بشوارب، وكؤوس النبيذ التي رُفِعت نخب صحتنا.

خلال أسبوعين – هل مر وقت أطول؟ – جلت في حدائق القصر أتساءل عن المستقبل لعلّي أرى جميلة تطل من نافذة مشبكة أو أمرّ بها في درب حديقة، فكانت أفكاري تتركز على أمنيتي باستراق كلمة معها.

قد يبدو الأمر قديم الطراز بشدة، ولكن أن تتحدث فتاة من عائلة تركية إلى شاب من دون مرافق كان أمراً مخزياً لا يُسامَح عليه.

لكن بالنسبة إلى معظم الشبان، وجد الحب طبعاً طريقة حتى في تركيا العثمانية – وعلى الرغم من الحراس المخصيين. لكن جميلة وأنا لم نكن محظوظَين إلى هذه الدرجة. لم يتعلق الأمر فقط بفارق الدِّين بل كذلك بدَيني الكبير إلى الباشا.

غير أنني تعلّقت بعينين سوداوين وراء حجاب تركي، عينين بارقتين كنجمتين في ليلة صافية. كان نوعاً من الحب قد يجد الشبان في أميركا صعوبة في فهمه: حب مخلص ومتوقد ووفي دائماً، لا ينقِص قوّته كون

شفتيّ لم تلمسا يديها. كانت نظراتنا تحمل كلمات، وإيماءاتنا وحركات أيادينا تتضمن رسائل حب طويلة.

ثم عاد الباشا يوماً وعانقني أنا ومحرّم، وعرفت أن أملي تحقق أخيراً.

أظن أن الأيام التي تلت تقديمنا امتحان الدخول إلى كلية المدفعية في الخريف كانت مليئة بالأحلام وعبارة عن مرحلة انتقالية. يبدو أنني لا أزال أتذكر متعتها، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أتذكر شيئاً بوضوح، باستثناء أنني كتبت إلى والديّ وأنهما احتفلا بوليمة كبرى في إفيريك.

لم يدرس أحد في كلية المدفعية بجد كما فعلت. ولم يحاول أحد جدياً أكثر مني في المسايفة والرياضة البدنية وامتطاء الأحصنة. شعرت بأن الشرف يدفعني إلى طليعة صفي - وفعلت.

حلّ يوم الجمعة وهو يوم العطلة في تركيا حيث كنّا نحن، معشر الطلّاب، نرتدي أفضل زيّ لدينا ونذهب للقيام بالزيارات مع الأهل والأصدقاء. وكان الباشا يرسل دائماً عربة خاصّة لتقلّني أنا ومحرّم. بدا العالم مشرقاً في عينيّ والمستقبل مجيداً وباهراً! لم أكن أعلم إن كنت فخوراً بالباشا أو أنّه هو كان أكثر فخراً بي. عندها تمنّيت أن تسير عجلة الحياة على هذا المنوال إلى الأبد. كان التدريب العسكري والأزياء الرائعة وعربة يوم العطلة والأوقات السعيدة ومشاعر الاحترام للباشا والعرفان بالجميل كلّها تختبئ تحت ضوء القمر أو في ظلّ شجرة سرو كبيرة حين سرقت من فم جميلة التي أعشقها الآن كلمة ثمينة. شعرنا بأنّ المستقبل مُلكنا وكلّ ما نتمنّاه سيتحقّق. كنت أبتسم عندما أرى عينيها الحالمتين في بحثهما عن لقاء عينيّ لأنني كنت أدرك أنّها تفكّر في ما ستحمله لنا الحياة.

كنت متأكّداً للغاية من هذا. ثمّ كانت تتركني أحياناً بعد أن تهمس في أذني بعض الكلمات وفي عينيها دموع متراكمة. ومع هذا، كنت أضحك بالرغم من حزني لها لأنني كنت واثق أنني خُلقت رجلاً محظوظاً لا يهاب العوائق المنيعة التي يفرضها الدين أو التقاليد. كان الباشا رجلاً عظيماً وطيباً، ومحرّم أكثر من أخٍ بالنسبة إليّ. شعرت فعلاً بأنّ لديّ نجماً يجلب لي الحظّ.

لم أتوقف عن الإيمان بهذا حتى بعد التخرج. نلنا محرّم وأنا أعلى مراتب الشرف، وأقام الباشا مجدداً وليمة كبرى واحتفل.

عُيِّنا ملازمَين ثانيين، وبعد صف قصير تلا التخرج في التكتيكات العسكرية، أُرسِلنا إلى ألمانيا لثلاثة أشهر من التدريب المكثف. لم يكن من وقت للتفكير في الحب أو المستقبل أو أي شيء خلال هذه الأيام حين كنا نُصقَل في مهنتنا.

ولدى عودتنا إلى تركيا ومن دون متنفس يُذكَر، كُلِّفنا مهمات وفي فرقة تابعة لفوج المدفعية أصبح محرّم معاوناً وعملت أنا مدرّباً.

غدا كل شيء مبهراً ومثيراً ومشرقاً وجديداً إلى درجة أن الاستعجال الاستثنائي في تكليفنا مهمات لم يكن ذا تأثير فينا. أرسلت رسالة إلى جميلة، كانت والدتها ستفتحها طبعاً، وكانت رسالة حب بالنسبة إليّ. عرفت أنها فهمت الكلمات التي لم أجرؤ على كتابتها، مثلما عرفت أنني سأفهم أن الملاحظات الرسمية الصغيرة المكتوبة لتراها والدتها كانت مليئة بالآلاف من الأفكار المكتومة والمحببة. لكن هذه الحواجز لم تكن حقيقية، فأنا كنت رجلاً محظوظاً والباشا كان عظيماً وطيباً وذا تفهّم نادر.

ونما فيّ توق معيّن: أن أعود إلى إفيريك ببزتي الرائعة وسيفي إلى جانبي والشمس تسطع على جزمتي الملمعة. كم سيفخر والداي بي! أردت أن أجعلهما يفخران. كنت ابنهما المحظوظ، الذي أصبح الآن ضابطاً في الجيش التركي، لمجرد أنهما ضحيا ليرسلاني إلى أدرنة. غمرتني عاطفة شديدة حول الرحلة التي ستكون نوعاً من الحج الظافر.

طلبت إذناً للغياب، ولكن أُبلِغت بأمر أدهشني، ومفاده بأن الحرب على الأبواب وأنني سأُعيَّن قائداً لحصن أرطغرل (رأس هيليس) الذي كان يحرس مدخل الدردنيل من الجهة الأوروبية للمضائق. وعُيِّن محرّم أمين سر للواء جواد باشا، قائد التحصينات في الدردنيل. على الأقل سنكون معاً.

قلق الباشا كثيراً من تعييننا في منطقة خطرة كهذه. ومن فرط حماستنا ضحكنا، حقاً ضحكنا، ناسيين الانضباط، واللياقة الصارمة، والاحترام البنوي الصلب والمرتبط بالتقاليد، وهي صفات سادت منازل المسلمين. ربما كان ثمة أمر معدٍ في الحماسة التي انتابتنا، فالباشا أيضاً ابتسم بحزن.

الحرب، وشائعات الحرب، امتلأ هواء القسطنطينية بشائعة محمومة. كانت الفرق الموسيقية العسكرية تعزف في كل مكان؛ ونفذ الجنود مسيرات والتمعت الحراب؛ ضباط ألمان بأعداد كبيرة مفاجئة كأنهم مهاجرون؛ خيالة؛ مهاميز تقعقع؛ بيارق تلوّح؛ هتافات وصراخ؛ وشعر الجميع بالأمان، فلحماية مياه الدردنيل جاءت البارجتان الألمانيتان «غوبن» و«بريسلو».

كان الأمر مزحة. سارايِيفو وأحداث العالم قبلها أو في المستقبل، كانت

كلها جزءاً من المزحة. من اهتم؟ كنا عسكريين تواقين إلى فرصة لإثبات حماستنا، ضباطاً تواقين لاختبار نظريات التكتيكات العسكرية. شباناً بدت لنا الحرب مغامرة جميلة تحمل وعد الأوسمة والشرف. لم نفكر في ضجيج المعركة، وفوضاها الدموية العنيفة والقذرة.

أتساءل كيف أنني، في جنون تلك الأيام قبل مغادرتنا إلى مواقعنا، في حماسة تلك الأيام وتشويشها، قاومت أخذ جميلة بين ذراعيّ. بدت كطفلة في قلقها الكبير على محرّم وعليّ. لم تكن تأكل أو تنام وأصبح وجهها شاحباً شحوب الموت وعيناها قلقتين ومغرورقتين بالدموع. أظن أن زوجة الباشا فهمت في ذلك الوقت حبنا السري.

في الليلة السابقة لمغادرتي، وجدت على مخدتي وروداً قطفَتْها ذلك اليوم؛ كان أريج الغسق لا يزال في الورود وكذلك العطر العذب لأصابع جميلة الجميلة. ربطت الورود بمنديلها وعلى بطاقة صغيرة جداً كتبت «جميلة إلى طوروسيان». لم تكن لتخبرني أكثر عن حبها لو ضممتها بين ذراعيّ واستمعت إلى الأبد إلى الكلمات العزيزة التي خافت أن تقولها.

هل ابتسمتَ يوماً وشعرت بأنك تترقب شيئاً سامياً وأكبر منك في شكل لامتناه؟ هل تحدثت يوماً بتعثّر ومن دون تكلّف وشعرت وكأنك تتمتم جملاً مكررة مثل ببغاء حمقاء؟ حاولنا محرّم وأنا أن نتحدث ونضحك في ذلك الفطور الأخير قبل ساعة من ذهابنا، وهذا ما شعرنا به. وكان رأس الباشا، المرفوع دائماً بفخر، مطأطئاً. وكانت والدة محرّم وفريدة تنتحبان بعذوبة. ونظرت جميلة الصغيرة العزيزة حولها من دون حول ولا قوة ولكنها حاولت أن تبتسم كلما مزح محرّم وراهن على أننا سنعود خلال

ثلاثة أسابيع. ولم يلمس أحد الطعام وازداد التوتر حتى تأكدت من أن أحداً سيصيح. شعرت بأنني عقيم وسخيف.

جاء صوت حوافر الأحصنة على حصى المدخل مخرجاً مفاجئاً من الورطة المستحيلة. وعلى غرار محرّم، شعرت بأنني شديد الأسف عليهم، ولكن بدا من الخبل إثارة ضجيج حول ما كنا واثقين بأنه سيكون أكثر بقليل من مزحة مثيرة.

سمعنا صهيل الأحصنة من خلال النوافذ المفتوحة. ونهض الباشا وعرفنا أننا أصبحنا أخيراً على الطريق إلى مغامرتنا. وفجأة انتحت والدة محرّم به جانباً قائلة إنها ترغب في إعطائه رسالة خاصة. كان الأمر غير معتاد من امرأة متمسكة تماماً بأعراف كريمة ولكن شديدة الرسمية إلى درجة أنني لم أستطع إلّا أن ألاحظ الأمر، وكذلك ألّا أقاوم الإغراء بأن أكون حشرياً في شكل غير مناسب وأسترق نظرة باتجاهها. استطعت أن أفهم من نظرتها وحركة رأسها أنهما تحدثا عن جميلة، ولم يكونا بعيدين كفاية لئلا أرى نظرة الدهشة المفاجئة على وجه محرّم. في تلك اللحظة وفي العجلة والتشويش المرافقين للمغادرة، لا أفترض أن الأمر ترك الانطباع الواعي الذي شعرت لاحقاً به. لقد مرت شهور كثيرة قبل أن أتذكر محرّم ووالدته وهما يقفان هناك.

اقترب الباشا أولاً من محرّم ثم مني وقبّل كلاً منا بحزن على جبينه.

ثم وقبل أن يبدو أحد واعياً لكيفية حصول الأمر، كنا في العربة في الطريق إلى رصيف الميناء. انتقلنا، الباشا ومحرّم وأنا في عربة واحدة، وتبعتنا والدة

والدا النقيب طوروسيان وشقيقته كما بدوا قبل الحرب

محرّم وشقيقاته. وليس بعيداً خلال طريقنا، شاهدنا عربة العميد شكري باشا، القائد السابق لفيلق موناستير. ابتسمت لمحرّم لأنني عرفت أن في العربة ابنة الباشا، نورية، حبيبة محرّم. كانت نورية جريئة بمقدار ما كانت جميلتي الصغيرة خجولة. وتذكرت كيف أننا، محرّم وأنا، بناءً على دعوة منها، تحدينا تقاليد الحرملك وأمضينا ثلاث ساعات مختلسة مع نورية وصديقاتها فيما كان الباشا وزوجته يحضران استقبالاً رسمياً، وكيف تعامى رئيس الحرملك، الخصي العربي، عنا وبدا أن حراس أبواب القصر ينظرون إلى القمر. ولحسن الحظ أن القادة الأتراك حجين عودتهم يثيرون ضجيجاً ويطلقون الأبواق عند عودة الباشا. وقادتنا خادمة ودودة عبر القاعة الهادئة، ثم عبر رواق معزول، ثم من حرم القصر عبر باب صغير بدا سرياً تخفيه ورود متسلقة.

لكننا كنا قد وصلنا إلى رصيف الميناء. وتحدت نورية، الطائشة والمغرمة جداً، تحدت العرف مجدداً، فرفعت حجابها وقبّلت محرّم مباشرة على شفتيه. وشعرت بأن الحرب لا يمكن أن تكون سيئة جداً إن استطاعت سيدة تركية شابة تقبيل حبيبها على شفتيه في ظل الحرب.

وقفت جميلة قرب والدتها. قبّلت يدها وقرأت في عينيها رسائل كنت أنا وحدي معنياً بها؛ في عينيها السوداوين الكبيرتين الناعمتين اللتين لعبت فيهما الأضواء والظلال.

دقّت الصافرة، فضرب كل منا كعبيه، وحيّينا وانطلقنا أخيراً وسط أصوات التكبير. وتسلل البحر بيننا وبدا أنه يدفع اليابسة بعيداً فيما وقفنا قرب الحاجز الحديد للسفينة. لوحت لجميلة بالمنديل الصغير الذي ربطت به الورود.

ولوحت بقبلة وابتعدت اليابسة أكثر وأكثر. وراقبتها حتى اختفت، حتى تلاشت في غموض المسافة، شخصاً بعينين سوداوين رائعتين.

لم نكن محرّم وأنا كثيري الكلام ذلك اليوم، ومع حلول الليل علينا، وقفنا قرب الحاجز الحديد معاً وراقبنا اضطراب البحر. تذكرت المتع التي عرفتها، ومن خلال ذكراها وجدت الحزن المتربص في كل وداع.

الفصل الثالث

معارك بحرية في الدردنيل

أنزلوني في صباح ضبابي عند الطرف الأقصى لشبه جزيرة غاليبولي، كنت برتبة ملازم ثانٍ، لا تزال رائحة الكلية تعبق فيّ. وها أنا ذا قائد حصن أرطغرل. فجأة اتخذت مسألة الحرب منحى جدياً؛ هي لم تكن مزحة. ها أنا ذا مع حصن بين يدي وعليّ القيام بأمر في شأنه. أظن أنني حين تسلّمت القيادة من الضابط المسؤول، بدوت فضولياً مزعجاً على غرار الملازمين الثانين في مختلف أنحاء العالم. لكن في الواقع، قلقت فجأة من مسؤوليتي. وتحضرت لجولة تفقدية فورية.

لاحظت سريعاً أموراً كثيرة:

أولاً: كان حصن أرطغرل في موقع بارز، وكان من دون شك أحد المواقع الأهم الحامية لمدخل الدردنيل.

ثانياً: كان ضرورياً للعدو أن يوجه هجماته الأولى إلى هذه النقطة قبل أن يتمكن من الأمل بتحقيق تقدم كبير.

ثالثاً: ربما لم تكن الحرب مزحة بعد كل هذا.

رابعاً: تألفت البطارية من مدفعين من طراز «كراب» عيار ٥,٢٥ سنتيمتراً موضوعين على مسار دائري قرب المدخل وقادرين على الإطلاق في أي اتجاه.

خامساً: بلغت زنة كل قنبلة ٦٥٠ كيلوغراماً.

سادساً: كانت الثكنة تقع على بعد حوالى ١٢٤ متراً في خط شبه مستقيم وراء المدفع.

سابعاً: تألفت الحامية من ١١٥ رجلاً، كانوا جميعاً منشغلين جداً في إصلاح التحصينات أو تخزين الطعام أو الذخيرة. وكان ثمة صخب وضجيج في المكان، وبدا الاستعداد كبيراً، ما جعلني أتوقع سماع وصول أسطول العدو في أي لحظة.

واكتملت جولتي التفقدية، وأجريت زيارة لياقة إلى قائد حصن سد البحر الأكبر حجماً، والذي كان يبعد حوالى ميل واحد عن حصن أرطغرل، ولاحظت أن الحصن، بسبب حجمه وبروز موقعه، كان أكثر عرضة للتدمير من مسافة بعيدة مقارنة بحصني الصغير ببطاريته المؤلفة من مدفعين.

وفي حصن سد البحر، حيث شكلت خمسة مدافع قصيرة المدى مربض المدفعية، راودني الشعور نفسه بالعاصفة المتربصة. وبدا الأمر برمته من

قبيل بعض المبالغة. ومنذ الصباح حين غادرنا قصر الباشا، بدا العالم بأسره على شفا هاوية.

فور عودتي إلى حصن أرطغرل، تفحصت بدقة خرائط تحصينات الدردنيل ووجدت على الجانب الأناضولي عبر المضيق حصني كومكالي وأورخانية الشبيهين، لجهة الحجم والخطوط وقوة البطاريات، بحصني أرطغرل وسد البحر على التوالي.

وإضافة إلى الحصون الأربعة التي كانت تحرس مدخل الدردنيل، كانت ثمة تسع تحصينات إضافية: كانت تقوم خمس على الشواطئ الآسيوية المسطحة والأربع الباقية على الشواطئ الأوروبية المسطحة. وبلغت القوة المجتمعة لبطارياتها حوالى ٣٥ مدفعاً. وكان في مقدور أربعة مدافع فقط إطلاق النار لمسافة ١٤ ألف متر، وستة لمسافة ١٠ آلاف متر، والباقية لثمانية آلاف متر. وكانت كلها من النوع المستقر، مثبتة في الإسمنت، وبزوايا تبلغ ٤٥ درجة. وتذكرت أشهري في ألمانيا والبطاريات الحديثة التي رأيتها هناك، وأمضيت ساعات من التفكير في وضع تحصيناتنا. وفكرت في أن المدى الطبيعي لاستهداف المدفع البحري كان ٢٠ ألف متر، وأظن أنني حركت كتفيّ داخل سترتي قلقاً.

لأسابيع انتظرنا، جاهزين، وحذرين باستمرار، ومتوترين، ومترقبين؛ في كل صباح كنا نستيقظ على الدوريات التي لا تنتهي لقوارب طوربيدات بريطانية في مواقع بعيدة في البحر؛ ومع نهاية كل يوم، وقبل أن يتسلل الغسق إلى العالم ويغطيه، وفي خيالات متحركة منعكسة على السماء، كنا نرى تلك القوارب البريطانية لا تزال في طواف لا ينقطع. ومرت ثلاثة

أسابيع من دون أي حادث.

وفي وقت مبكر من صباح الثالث من تشرين الثاني ١٩١٤، قبل يومين من إعلان الحرب على تركيا، أقلقني تقرير من المراقبين أفاد بأن بوارج بريطانية وفرنسية كانت تقترب ويبدو أنها تستعد للهجوم.

أمرت الحامية بالتزام مواقعها، وأمرت بتجهيز المدافع وأسرعت إلى موقع المراقبة الخاص بي على تلة أشجي بابا المطلة على حصننا. وأبلغت المقر العام وانتظرت تعليمات إضافية جاءت في صيغة نصيحة بإبقاء رجالي محميين وترك كل شيء هادئاً.

ووصلت البوارج البريطانية والفرنسية إلى مسافة قدّرتُها بـ١٢ ألف متر وبدأت قصفاً عنيفاً لحصن سد البحر وحصن كومكالي. وبعد نصف ساعة من القصف، عند الساعة السابعة صباحاً، انسحبت.

وكنت على وشك مغادرة موقع المراقبة الخاص بي حين حصل انفجار رهيب جعل الأرض ترتج كما لو أنها زُلزِلت. سارعت إلى هاتف المراقبة واتصلت بالمقر العام. ماذا حصل؟ لم يعرف أحد وقتئذ. لكن بعد وقت قصير عرفنا أن قنبلة من سفينة بريطانية اخترقت فتحة التهوئة الخاصة بمخزن الذخيرة في حصن سد البحر، وأن ٥٠٠ ضابط ورجل كانوا قد التجأوا إلى هناك أُبيدوا، حرفياً تحوّلوا إلى أشلاء. وكان العقيد خليل بك الناجي الوحيد، وحين رأيته كان لا يزال في شبه غيبوبة.

مسألة الحرب هذه اتخذت منحى قذراً، وبدأت أفكر أكثر في والديّ في إفيريك، وفي جميلة، وفي كل يوم كانت ثقتي تتراجع في قدرتي على تجاوز

الحواجز كلها، وفي أنني كنت رجلاً محظوظاً.

لخمسة أسابيع إضافية، انتظرنا، أسابيع من عدم اليقين، من التوقع الأبدي والرتيب. سرعان ما سيُثار الأمر وتعود البوارج البريطانية والفرنسية للظهور أمامنا، ولكن متى؟ ولماذا التأخير؟ واستمرت الدوريات الدائمة والرتيبة للقوارب الطوربيدات البريطانية.

وبعد ظهيرة ١٣ كانون الأول، وفيما كنت أحضر لقاءً للضباط في حصن سد البحر، حصل انفجار رهيب آخر. سارعنا جميعاً إلى مواقع المراقبة الخاصة بنا، ولكن باستثناء تلك القوارب الطوربيدات الدائمة الحضور، لم يكن من مؤشر إلى العدو. وسمعنا صياحاً خافتاً لرجال يأتي من داخل المضائق التي لم تكن مرئية من مواقعنا المطلة على البحر.

لكننا علمنا من خلال مكتب اللواء القائد بأن البارجة التركية «مسعودية» ضربها طوربيد أطلقته غواصة وكانت تغرق.

غادرت موقع المراقبة الخاص بي وسارعت إلى نقطة مشرفة قريبة ورأيت البارجة قبيل غرقها، بدءاً بالمقدمة. واستطعت أن أرى بحارة يسارعون بشراسة إلى قوارب النجاة وآخرين يقفزون من المتن. مشهد سوريالي من المستحيل والجنون. إنها لكارثة بحرية. كان غير واقعي. انتشر الرجال في كل مكان في المياه؛ وغرق قارب تابع للبارجة؛ وانتشرت قوارب النجاة؛ وكان الرجال يسبحون. وحين غرقت، حصل تدفق ضخم من البخار.

وعلمنا لاحقاً أن غواصة معادية تمكنت بمهارة كبيرة، وببعض الحظ

بالتأكيد، من عبور حوالى ١٠ أميال مقتحمة المضيق عبر اجتياز عدد لا أعرفه من الألغام. وضُرِبت «مسعودية» في شكل مفاجئ وفي جزء حيوي إلى درجة أن ٢٠٠ رجل أو أكثر من طاقمها خسروا حيواتهم. وخلال نصف ساعة، انتهى الأمر كله.

كنت قد بدأت أتعلم عن قوة الحرب وتدميرها الوحشي.

مرّ أكثر من شهرين من انعدام الحركة. واستمرت القوارب / الطوربيدات طوافها الحذر في مواقع بعيدة في البحر، وانتظرنا واستعددنا واستعددنا وانتظرنا. وبدأت أتساءل إن كانت الحرب بعد كل ما حصل لن تثبت أنها ليست سوى حوادث مكلفة ومؤسفة كثيرة: قنبلة طائشة وغواصة نفّذت ضربة محظوظة.

لكن في صباح ١٨ شباط ١٩١٥، حيّانا صوت جديد: أزيز محركات في السماء. فقد ألقت طائرتان معاديتان كبيرتان تحلقان أبعد بكثير من مجال مدافعنا المتقادمة المضادة للطائرات، رزماً من المناشير فوق موقعنا وعادت باتجاه البحر. وحين قرأت هذه المناشير، قررت بأكبر مقدار من الثقة أنني أشارك في أكثر الحروب إدهاشاً، فهي حذرتنا من أن القوات الفرنسية والبريطانية المشتركة على وشك القيام بهجوم ضخم. وأرسلت نسخاً إلى اللواء القائد جواد باشا، وإلى حد معرفتي إلى اليوم، لا بد من أنها أصبحت جزءاً من الوثائق الرسمية. كان عدونا يبرهن أنه ليس فقط مدمراً، بل مهذباً أيضاً.

أُمِرت التحصينات كلها بالاستعداد، وعند هذه المرحلة المفصلية، حلت

النقيب طوروسيان في القسطنطينية، حزيران ١٩١٥

بطارية مدفعية ألمانية في حصن أورخانية، المقابل تماماً لموقعي.

أمضيت اليوم أطمئن إلى وضع تحصيناتنا ومدى استعداد مدافعنا ورجالنا. وحين أويت إلى فراشي تلك الليلة بدأت أتساءل للمرة الأولى حول إستراتيجية الحلفاء. لم ترد أنباء عن معارك بحرية رئيسية وبدا الأسطول الألماني الرئيسي مأمون الجانب وقتئذ، فلماذا تتأخر الأساطيل الفرنسية والإنكليزية المتوسطية في مهاجمة موقعنا؟ لماذا حصل الهجوم البارد في ٣ تشرين الثاني؟ ولماذا من بين الأمور كلها، الشهامة في الإعلان عن هجوم وشيك؟ هل كانوا يحتقرون تحصيناتنا وقدرتنا فأرادوا أن يمنحونا فرصة الانسحاب؟ أو ربما ربما، بدأت أتساءل في شكل غامض، هل لم يرغب الإنكليز والفرنسيون في الاستيلاء على الدردنيل؟ لكن هذا الأمر بدا سخيفاً.

لكن إستراتيجيات الحرب لم تكن الأفكار الوحيدة التي شغلتني فيما جلست هناك وحدي. ما الذي سيجلبه الغد؟ كنت مقتنعاً بأننا كنا عشية معركة كبرى، ولا أعتقد بأنني كنت متوتراً بمقدار ما كنت مشوشاً. قد ينطوي الأمر على مفارقة، ولكنني شعرت بعبء صغر سني. فبعد وقت قصير من تخرجي من الكلية العسكرية، كنت أتولى قيادة حصن مهم فيما معركة كبرى تقترب. وشعرت بوحدة كبيرة. وأخيراً، وبسبب يأسي، اتصلت هاتفياً بمحرّم في المقر العام الواقع على بعد حوالى ١٥ ميلاً. وتواصلنا في حديث مهم لعشر دقائق أو أكثر، وطمأنّا بعضنا بعضاً، على ما أظن، مثل شابتين مذعورتين. لا أستطيع أن أقول إنني شعرت براحة أكبر حين أخبرني محرّم أن القائد العام جواد باشا أثناء مناقشة التحصينات، أشار إلى أنه وعلى

الرغم من صغر سني، كان يعتمد في شكل كبير على قدرتي وتقديري في قيادة حصن أرطغرل. بالنسبة إلى قدرتي، شككت بها، وبالنسبة إلى تقديري، اعتقدت بأنني لو امتلكت أي تقدير، فهو خاطئ بالتأكيد.

وجدت صعوبة في النوم؛ كانت تدور في رأسي أفكار ومخاوف ومشاكل تفوق قدرتي. وبدأت أتساءل عن شائعات، غامضة إلى هذا الحد أو ذاك، كانت تُتداوَل في أوساط الضباط عن اضطراب مهم في الداخل التركي وأن المسألة الأرمنية تتخذ مجدداً أبعاداً خطيرة. كان الحكام الأتراك يواجهون مشاكل جدية، وكنت متأكداً من أنهم كانوا يبحثون عن وسائل فاعلة لحل المسألة الأرمنية في شكل نهائي بالطريقة التقليدية والأسرع التي خطرت في بالهم: مجزرة جماعية. لم يكن من أمر محسوم، ولكنني تذكرت شبابي وتاريخ شعبي.

شعبي! مرت ست سنوات منذ رأيتهم للمرة الأخيرة؛ ما من أشقاء في المنزل؛ فقط والدي ووالدتي المسنّان وشقيقتي التي كانت مجرد طفلة حين غادرت. ماذا سيحل بهم؟ ماذا سيحمل المستقبل لهم إذا قُتِلْتُ؟ ولقد رأيت من الحرب ما يكفي لأعي أن الموت قد يكون حقاً نهاية المغامرة. و كنت متأكداً دائماً من أنني، كضابط في الجيش التركي، قد أتأكد ما دمت حياً أنهم محميون. وفي هذه الأزمة الكبرى الأولى في حياتي، فكرت في شعبي أكثر من أي وقت مضى. وكان نومي مضطرباً تلك الليلة.

أشرق اليوم الـ١٩ من شباط يوماً بارداً بمرارة وبضباب كثيف خالص يرتفع من البحر. كنت قد استيقظت باكراً، وعند الساعة السادسة، استطعت من خلال منظاري الدقيق أن أتبيّن لطخات الدخان في السماء ثم

تدريجياً الخطوط الخارجية لحوالى ٢٤ بارجة تقترب. حافظت على اتصال مستمر مع المقر العام، وراقبت حتى رأيت ما كان نفحات من الدخان فوق مجرد بقع في الأفق يتحول إلى نسب أكبر وأكثر إذهالاً. لم أعرف قط سرعة البوارج. عرفت فقط أنها كانت تقترب بسرعة.

أمرني المقر العام بعدم إطلاق النار حتى يشن العدو هجومه الأول، فأمرت لذلك رجالي بالاحتماء في الخنادق المضادة للقنابل حتى يتطلب الأمر تزويد المدافع بالرجال.

أخذت في الحسبان حجم قنابل العدو ومداها وبدأت أقلق مما إذا كانت الفرصة ستسنح لنا بإطلاق النار. وعرفت أن حصني الصغير قد يُدمَّر بسرعة كبيرة إن اكتشفوا موقعنا وعرفوا مدانا.

عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، أخذت البوارج الفرنسية موقعاً إلى يمين المضيق فيما أخذت البوارج الإنكليزية موقعها إلى اليسار على بعد ١٠ آلاف متر من الشاطئ.

ومرّ هدوء مرهق رهيب، محذِّر ومهدِّد. لقد عرفت لحظات أسعد. وخلال هذا الوقت كله، بدا أن الطراد الروسي «أسكولد» كان يُستخدَم لأغراض المراقبة، فهو لم يحاول أن يشارك في شكل فاعل في الهجوم الذي تلا.

عند الساعة الثامنة صباحاً، بدا أن الألمان في حصن أورخانية لم يعودوا قادرين على تحمل التوتر لوقت أطول، وخلافاً للأوامر العامة كما تلقيتها، فتحوا النار بدلاً من انتظار العدو ليبدأ بالهجوم. أساءوا تحديد الأهداف وجاءت إصاباتهم غير دقيقة، فالقنابل سقطت بعيداً جداً عن أهدافها،

وتسببت بأمواج رمادية عاتية ارتفعت في الهواء.

وبدا أن ذلك الوابل كان الإشارة إلى أن الصخب يجب أن يسود، فأسطول العدو كله رد بقصف لا يرحم من القنابل على الحصن حتى تحول إلى شعلة ضخمة على الشاطئ؛ غمرته ألسنة اللهب؛ وتطاير الحطام والركام في الهواء وارتفعت أعمدة ضخمة من الدخان فوقه.

وفجأة على بعد أميال، تفجر الشاطئ كله في موجات ضارية وقاذفة من ألسنة اللهب فيما وزع العدو مجدداً مدافعه ووجهها إلى حصني سد البحر وكومكالي. وبدأ موقعي يرتعد من القصف المدفعي الرهيب. وحجبت غيوم كثيفة من الدخان الرؤية لأميال؛ واستحال عملياً على رجال المدفعية الذين كانوا بأمرتي أن يوجهوا مدفعيتهم إلى هدف في شكل مباشر، لذلك بعد إطلاق ١٠ قنابل في شكل عشوائي، شعرت بأننا نهدر الذخيرة من دون طائل، وأبلغت قيادة الفوج بذلك. وأمرني العقيد خليل بك الذي كان يتولى القيادة أن أتصرف وفق أفضل تقدير لديّ.

عند الساعة العاشرة والنصف، أمرت رجالي بالاحتماء في مخازن الذخيرة وعدت إلى موقع المراقبة الخاص بي، وتابعت بدقة التحركات التالية للعدو.

تحول المضيق إلى مكان تسوده الفوضى، إلى جحيم، إلى صورة معتوهة في عالم مجنون، إلى معمعة من السفن وإطلاق النار وأطنان من الوحل الفائر المدفوع إلى أماكن مرتفعة في الهواء بسبب القنابل المتفجرة؛ وبدت القنابل تتطاير في كل اتجاه من دون سبب ومن دون منطق. وارتعدت الأرض نفسها تحت القصف ودفع الضجيج الراعد صداعي إلى حد الانفجار.

عند حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً، توقف إطلاق النار، باستثناء بعض القصف المتقطع في نقاط معزولة. ومن خلال منظاري، استطعت أن أرى أن حصن أورخانية لم يعد سوى ركام متفحم لا تزال تنتشر في سمائة سحباً دخانية سوداء. وبدا وضع حصني سد البحر وكومكالي أفضل قليلاً، ولكن مدافعهما أُسكِتت عملياً. ولم يعطِ سوى رد ضعيف من إحدى بطارياتهما، التي كانت لا تزال تُشغَّل ببطولة، دليلاً على أن الحصنين لم يُدمَّرا تماماً. كان الأمر بمثابة محرقة للأتراك.

عند الظهيرة، توقفت الأعمال العدائية، ولم نستطع أن نسمع سوى الموسيقى العسكرية للفرق الموسيقية في الأسطول وهي تحتفل بالنصر.

وبعيد الساعة الواحدة، استأنف العدو العمليات، موجهاً نيرانه هذه المرة إلى حصن أرطغرل الخاص بي. أمرت رجالي بالبقاء في خنادقهم وبقيت في موقع المراقبة الخاص بي. لم نطلق طلقة. وحلقت طائرات العدو فوقنا. ولم نبدِ أي إشارة إلى نشاط. ولا رجل كان مرئياً.

يبدو أن مراقبيهم أبلغوا أن أرطغرل أُسكِت أيضاً، فالأسطول بدأ يتحرك بجرأة باتجاه مدخل المضيق.

عند الساعة الثالثة بعد الظهيرة، كانت سفينة ثانية وصلت إلى نقطة لا يزيد بعدها على خمسة آلاف متر من مدافعي. وللحظات بدت أنها تحافظ على موقعها ربما لتوجيه نيران وحدات أخرى إلى تحصيناتنا الواقعة في مواقع أبعد في المضيق.

عند الساعة الثالثة والنصف كان رجالي عند المدافع، وكنت حسبت موقعها

بدقة وأعطيتهم المدى. عند الساعة الرابعة أعطيت الأمر بإطلاق النار.

لم تملك السفينة أي فرصة، فهي كانت في خط مباشر لنيراننا. قصفنا جوانبها قبل أن يعرف طاقمها ما كان يجري. وحاولت من دون جدوى تصحيح موقعها لتتجنب ضرباتنا المباشرة، ولكننا صببنا عليها نيراناً مستمرة في شكل جعل فرارها مستحيلاً. مالت إلى جانبها وتصدعت كلعبة. وسارعت بوارج إلى نجدتها، وحاولت قطرها بعيداً. ولم تسحبها لأكثر من ٥٠٠ متر قبل أن تنقلب وتغرق.

عندئذ فُتِحت أبواب الجحيم كلها. لساعة، صب الأسطول مجتمعاً قنابله علينا.

وتبيّن أن بطارياتنا عديمة الحيلة، والتجأ الرجال إلى أي مكان استطاعوا إليه سبيلاً.

كان الليل يحل حين بدأ العدو بالانسحاب، ووقفت وسط أنقاض ما كان يوماً ثكنتنا. غمرتني المأساة المخيفة التي رأيتها وتسببت بها. كنت تعباً من ثقل شبابي. وبدت الحياة مليئة بالأعباء التي كانت إلى حد كبير ثقيلة أكثر مما ينبغي.

سرت عبر الأنقاض إلى الخنادق وإلى الضباط والرجال المسؤولين عن المدافع. كانوا غارقين حتى خصورهم في الوحل والحطام، مثل منبوذين ضعفاء، مثل نابشين في كومة لنفايات العالم.

تفقدت الرجال، ولدهشتي، وعلى الرغم من الجراح الطفيفة الكثيرة، لم

يُقتَل أي منهم. واحتفلنا معاً حول وجبة محضرة كيفما اتفق.

بحلول الساعة الثامنة، بدأت أتلقى تهاني من رؤسائي الضباط. واتصل محرّم بطلب سريع من القائد العام جواد باشا. بدا أنني قدت البطارية الوحيدة التي نجحت في إغراق سفينة معادية. كنت متعباً إلى درجة أنني لم أهتم، على الرغم من أنني تساءلت إن كنت، بعد كل شيء، رجلاً غير محظوظ.

لثلاثة أيام، سيطر طقس ضبابي وبحر مضطرب جعل العدو في موقع ضعيف، وخلال الهدوء أعدنا تأهيل تحصيناتنا بأفضل ما استطعنا وتمكنّا من إصلاح مدافعنا. كنت مشغولاً إلى درجة الذهول.

في صباح الـ٢٥ من شباط ١٩١٥، لاحظت مجدداً أسطول العدو يقترب بسرعة. وإلى يمين موقعنا ووراء مدى مدفعيتنا، لاحظت أيضاً البارجة الروسية نفسها التي ظهرت واتخذت في خليج ساروس موقعاً للمراقبة.

وبدأ الهجوم بعد وقت قصير من الساعة العاشرة واستهدف حصني. رددنا على النيران. وفي البداية، كانت بضع من قنابلنا فاعلة. وعند الساعة الحادية عشرة، أُعطِبت البارجة الإنكليزية «أغاممنون» وأُجبِرت على الإبحار بعيداً عن موقع المعركة. لكنني لاحظت لاحقاً أن الضرر لم يكن كبيراً، فالبارجة عاودت الظهور مجدداً في الخامس من آذار.

وجيء بالمدرعة البحرية الإنكليزية العملاقة «كوين إليزابيث» إلى الموقع، وأطلقت مدفعيتها نيراناً مستمرة، وخلال ساعتين، تحول حصن أرطغرل إلى فوضى من الركام، ودُمِّرت البطاريات، وقُتِل معظم رجالي. وانقطع

خطا الهاتف والبرق الخاصين بي، وحُطِّمت المعدات، وأصبحت معزولاً تماماً.

وحين توقف القصف أخيراً، تلمست طريقي عبر الركام لأرى إن كان أحد قد نجا. وعند حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف، عثرت أخيراً على الضابط المسن حلمي بك مصاباً بشبه جنون وهو يجلس وسط حطام مدفع ويتمتم بلا وعي. وفي نهاية المطاف، تمكنت من إعادته إلى ما يكفي من الرشد لأعلم بأن بعضاً من رجالي انسحبوا باتجاه التلال.

قررت أن أحاول الاتصال بقائد الفوج خليل بك، الذي كان يتمركز على بعد ١٥٠٠ متر من موقع المراقبة الخاص بي. لكن حين وجدته، كان غير آبه إلى حد ما بتقريري، فجسمه كان متكوماً في شكل غريب وسط أنقاض مكتبه، وكان جزء من جمجمته قد أطارته قنبلة.

تحركت وفق غريزتي وما تلقيته من تدريب. كنت ضابطاً وكان على الضابط القيام بأمور معينة. بعد دقائق قليلة أو أكثر، نجحت في تحرير أسلاك هاتفية ومعدات، وأبلغت خسارة حصني إلى القائد العام جواد باشا. وجاءت الأوامر بالعثور على رجالي المنسحبين، إن أمكن، وإرسالهم إلى المعسكر العام. وكان عليّ العودة إلى موقع المراقبة الخاص بي في الحصن والإبلاغ عن تحركات إضافية للعدو.

كانت الساعة قد اقتربت كثيراً من الواحدة حين عدت إلى موقعي وأرسلت معاوناً للبحث عن الرجال المنسحبين. وركزت انتباهي على الأسطول المتقدم. واستطعت سماع الفرق الموسيقية تعزف. الموت للموسيقى

العسكرية! أرسلت الضابط الوحيد الباقي معي إلى ركام موقع العقيد خليل بك لإبلاغ المقر العام بالهاتف، حين بدا أن طائرة معادية اكتشفت موقعي. وعند الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين، وجه العدو مجدداً نيراناً إلى أنقاض حصني، ولكن المدى كان هذه المرة يطاول موقعي. بدت القنابل تهطل حولي وسارعت إلى ملجأ، أي ملجأ. كنت شاباً وأظن أنني كنت خائفاً، ومؤكد أنني توقعت أن أُقتَل ولم تغادرني الفكرة. وبعدما راوغت بيأس، بلغت خطاً من الخنادق كنّا قد حفرناها باتجاه التلال، وكانت مليئة بأمطار الليلة السابقة والتراب الذي قذفته القنابل في كل مكان؛ لم تكن خنادق بل كانت حفراً موحلة، ولكنني عثرت على خندق نصف مملوء وقرفصت هناك فيما كانت القنابل تصفر وتولول وتنفجر، وتساءلت ببلادة عمّا سيحصل تالياً. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن أعرف الإجابة. حصل انفجار رهيب، إذ انفجرت قنبلة على بعد أمتار مني. لم تصبني أي شظية، ولكنني دُفِعت من موقعي ودُفِنت حرفياً حتى كتفيّ في الطين والوحل اللزجين في الخندق.

وحل الغسق قبل أن أنجح في إخراج نفسي. خدّرني الألم والتعب، ولم أعرف قط حق المعرفة كيف تمكنت من العودة إلى موقع المراقبة الخاص بي وأخذ فكرة أخيرة عن موقع العدو.

في حياتي كلها لم أشعر بوحدة وهجران مماثلين لما شعرت به حين غادرت موقعي، وبدأت أمشي بخطى متثاقلة باتجاه المعسكر العام. كنت حافياً، ولم أمضِ كثيراً قبل أن تتجرّح قدماي وتنزفا بسبب الدوس على قطع مسننة من القنابل. وحين ارتحت للحظة وأنا أنظر إلى الوراء، استطعت أن أرى

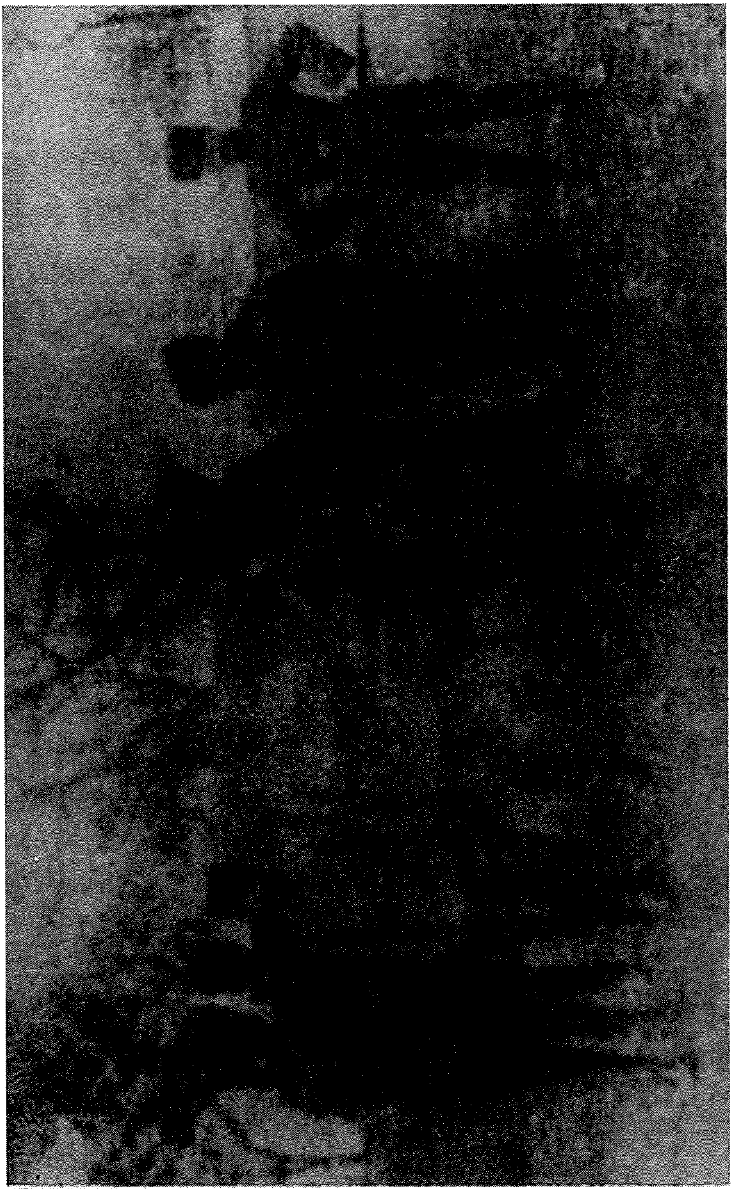

النقيب طوروسيان مع عدد من الضباط الأتراك في معسكر قرب القسطنطينية

الأضواء الكثيرة للجيش المنتصر، واستطعت أن أسمع في شكل طفيف موسيقى الفرق.

وبدأ خليط خفيف من الثلج والمطر يهطل؛ تابعت المسير، متسخاً وبائساً. بدوت وقتئذ، في شيء من الذاكرة، وقد مشيت لأميال وأميال ولساعات وساعات حتى تعثرت حرفياً بمخزن قديم للذخيرة؛ وفي الواقع أفترض أنني مشيت لميل أو أكثر، ولكن هذه المسافة حتى مسافة كبيرة على أرض مزقتها القنابل وبقدمين حافيتين.

سمعت أنيناً في الداخل، ووجدت حصاناً جريحاً ولكن ليس في شكل كبير؛ بدا الحيوان على الأقل في وضع مقبول حين تلمست مكاني حوله في الظلام. ولن أعرف أبداً كيف تمكنت من إيقافه على قوائمه من دون أن أقع تحت حوافره.

تمكنت من امتطائه ومضى بي ورأسه مطأطأ، ولا أظن أن ثنائياً أكثر تعباً وبؤساً، كان يمكن أن يسير تلك الليلة. وضربنا المزيج الخفيف للثلج والمطر، وواجهنا العاصفة.

لا أذكر بوضوح ما جرى حتى سمعنا إطلاق نار من بندقية. وسمعت صوتاً حاداً يصيح «– من هناك؟» وتمكنت من التعريف بنفسي.

جرى اقتيادي إلى خيمة الضابط المسؤول ووجدت نفسي وسط مجموعة صغيرة من المشاة المعسكرين هناك تلك الليلة. أعطوني مياهاً وطعاماً، وجددت نشاطي، وبعدما عولجت جراح الحصان بطريقة أو بأخرى، قررت متابعة المسير لأنني عرفت أن المعسكر العام كان على مسافة قريبة

وأن مجموعة صغيرة من الرجال من حصني مرت في ذلك الاتجاه قبل ساعات.

وبعد الفجر بوقت طويل نسبياً، وصلت إلى المعسكر ووجدت ضباطي ورجالي الناجين، وعددهم الإجمالي ١٨، وقد ناخت عليهم الحرب بكلكلها؛ كانت بزاتهم ممزقة، ولا يزال الغبار يغطيهم، ومعظمهم مضمد. أبلغت وصولي ورجالي إلى المقر العام، وأُعفيت من المهام الفاعلة وأُدخِلت إلى المستشفى لأيام.

وبعد خروجي بأمر من الضابط الطبيب، عُيِّنت فوراً قائداً لحصن روملي الحميدية وأُمِرت بالانتقال إلى هناك بأسرع ما يمكن. أجريت التحضيرات الأكثر استعجالاً، وتوجهت إلى مهمتي الجديدة بعد خمسة أيام فقط من تدمير حصن أرطغرل.

وجدت حصن روملي الحميدية لا أفضل ولا أسوأ من حصن أرطغرل، باستثناء أن مدافعه كلها كانت قصيرة المدى. وبدأ يتبين لي أن الدفاع عن الدردنيل كان ببساطة يقتصر على الاستفادة القصوى من وضع سيئ، والصمود المروع حتى الهلاك المحتوم. لم يكن في مقدور بطارياتنا إلحاق أي ضرر مهم في سفن العدو وكانت السفن تتقدم بثبات. وحين وصلت إلى حصن روملي الحميدية، رأيت سفن العدو وقد تقدمت خمسة أميال عبر الدردنيل وتمركزت عند جانبي المضيق في كرنلك ليمان وإسكي حصارلك، وقد أزالت تقريباً الألغام أمامها خلال بضعة أيام لميلين صعوداً إلى المضائق.

بين الخامس والسابع من آذار، جدد أسطول العدو هجومه على حصوننا فيما بدأ في الوقت نفسه هجوماً جوياً أيضاً. كانوا يلقون مناشير تخبرنا أن ليس ما يربطنا بالألمان وأنهم سيقيمون علاقات صداقة معنا.

في الخامس من آذار، وجّه موقع المراقبة العامة والبوارج البريطانية المتمركزة في خليج ساروس على الجانب الأوروبي من شبه الجزيرة قصفاً عنيفاً عبر الأرض الفاصلة، مستهدفة أساساً حصون شيمنلك، وأناضول المجيدية، وكيليت البحر، وأناضول الحميدية، وروملي الحميدية الخاص بي. وبلغ مدى الرماية حوالى ٢٠ ألف متر.

وفي السابع من آذار، دُمِّرت جزئياً حصون أناضول الحميدية، وشيمنلك، وروملي الحميدية بقيادتي، وكادت الذخيرة أن تنفجر.

وبعدما توقف العدو عن القصف لـ١١ يوماً، بدأت وحوش البحر في الساعة الحادية عشرة والثلث من صباح الـ١٨ من آذار، هجوماً عاماً جديداً بقصف عنيف.

وعلى بعد حوالى خمسة أميال من موقعي باتجاه مدخل المضيق، كانت البوارج الفرنسية والإنكليزية تناور لتتخذ مواقع قتالية جديدة.

كان الوضع كارثياً، وبدأت أتساءل كم بقي من الوقت قبل حلول النهاية. فالمرابض الأقوى عند مداخل المضائق كانت قد أُسكِتت قبل فترة طويلة، وحقق العدو تقدماً لافتاً عبر المياه الضيقة، ومع تدخل بضعة مرابض صغيرة فقط ذات مدفعية قصيرة المدى، بدا سقوط القسطنطينية مسألة لا تتعدى الساعات.

وصدرت أوامر ملحة جداً لكل ضابط مسؤول عن الحصون الباقية بمقاومة العدو إلى الحد الأقصى وصده بالوسائل كلها لأطول مدة ممكنة. ولم يتطلب الوضع أمراً عاماً لنعرف أن قلقاً كبيراً دار في أذهان القادة الأتراك.

اتخذت موقعاً قرب بطاريتي وأمرت بإعداد المدافع الأثقل.

عند الساعة الثانية عشرة والدقيقة الأربعين بعد الظهيرة، فتح مربض أناضول الحميدية الذي كان يضم آخر مدفعين بعيدي المدى، النار على أسطول العدو. وبقيت السفن تتحرك جيئة وإياباً في مسارات متعرجة ولم يحصل ضرر مرئي.

وأُطلِقت أطنان فوق أطنان من القنابل يومذاك، وبدت تتدفق مثل البرَد على اليابسة والمياه.

بحلول الساعة الثانية والنصف بعد الظهيرة، كان حصن أناضول الحميدية، أقوى التحصينات التركية الباقية، مدمراً عملياً، فيما انفجر حصن شيمنلك حرفياً إلى فُتات. وكانت مدينة شنق تحترق.

بحلول الساعة الثالثة بعد الظهيرة، ظهرت طائرات العدو وأجبرت الجيش التركي على الانسحاب.

وراح العدو الذي تنبه إلى أن تحصيناتنا الرئيسية دُمِّرت، يناور بشجاعة أكبر، وبدأت سفينة فرنسية تقترب من الجانب الآسيوي من الشاطئ. وراقبتها، كلما اقتربت متراً تسارع نفسي من التوتر الذي أحسست به. وبسرعة اقتربت واقتربت، ثم شرعت تخفض السرعة وتنحرف باتجاه مركز المضيق. أصدرت

الأمر بإطلاق النار، وحققنا ثلاث إصابات مباشرة وأشعلنا ناراً مستمرة على متنها الأمامي. وأعطبت طلقةٌ معدات التوجيه، وبدأت تميل في شكل كبير. وعند الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين، اشتد إطلاق النار. وعند الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين اصطدمت سفينة بريطانية بلغم على بعد حوالى أربعة آلاف و٥٠٠ متر من الشاطئ عند الجانب المقابل من المضيق وغرقت بسرعة كبيرة فلم يمكن مد يد المساعدة إليها من القوارب الطوربيدات التي سارعت إلى نجدتها. وعند الساعة الخامسة، واشتعلت بارجة بريطانية وتصاعد منها دخان كثيف وجرّت نفسها إلى محاذاة الشاطئ.

وحاولت السفينة الفرنسية الاستسلام إلا أن مدافعنا لم ترحمها ولم تنل إشاراتها المسعورة أي اهتمام. وفي النهاية اختفت أيضاً في مياه الدردنيل.

عند الساعة السادسة مساءً، أُمِرنا بوقف إطلاق النار، لكن العدو بدا مصمماً على الحسم ولم يوقف العمليات. وكانت حصوننا القليلة الباقية تتحول بسرعة إلى كتل من الأنقاض المشتعلة. وكانت مدافعنا الطويلة الأقوى قد أُسكِتت، ولم يمكن سماع سوى إطلاق النار عديم الجدوى والمتقطع من مدافع الميدان القليلة الخاصة بنا.

وعند الساعة السادسة والدقيقة السادسة عشرة، صدرت الأوامر بوقف العمليات كلها، فقد بدا الاستمرار غير مجدٍ. وعندئذ فقط لاحظت أن سفن العدو كانت تتجه نحو الجنوب كأنها كانت تنسحب من نصرها المؤكد. كنت محتاراً ومفاجأً. فالتحول المفاجئ في الأحداث كان مذهلاً إلى درجة أنني وقفت من دون حراك في موقع المراقبة الخاص بي أحاول فهم ما استنتجت أنه تكتيك جديد.

غادرت موقعي وقررت الكشف على مدافعي المعطلة ولكنني لم أصل إليها قط، فلم أكن قد سرت أكثر من ١٢٥ متراً حين انفجرت قنبلة طائشة، وعرفت لاحقاً أن شظايا منها جرحت رأسي وصدري.

حين فتحت عينيّ بعدئذ، وجدت نفسي في مستشفى مدينة الدردنيل. وإلى جانب جراحي، كان رأسي ووجهي محروقين في شكل شديد بالبارود. وبقيت في الفراش لأكثر من أسبوعين.

واظب محرّم على زيارتي يومياً، وكان يأتيني بالكثير من رسائل التهنئة مرفقة بالتوجيهات اليومية بشأن مرابض المدفعية التي كانت تحت إمرتي، حيث لم يكن عليّ، لتجنيبها الدمار التام، سوى إطفائها وإغماض عينيّ. هكذا يصنع الأبطال. ورغم ذلك كله كنت أشعر بالسعادة حين كانت تصلني رسائل من جميلة ومن والدتي. كان يواسيني أن أعرف أن الحب كان ينتظر وأن والديّ كانا بأمان وسعادة على الرغم من الشائعات عن المجازر الأرمنية.

وحلّت لحظة سعادتي الكبرى حين سنحت الفرصة لأنور باشا وأركانه لزيارتي في المستشفى وقرأوا في نشرتي (التقارير الواردة عني) أن جراحي نتجت ممّا وصفه رؤسائي الضباط، بسعادةٍ، عملاً بطولياً، فتمت ترقيتي إلى نقيب. وشعرت حينئذ باطمئنان مضاعف إلى والديّ وارتحت كفاية لأتساءل متى قد أزور جميلة وأعرض شارتي الجديدة. ربما كنت مجدداً رجلاً محظوظاً.

في تلك الفترة وأنا طريح الفراش، توافر لي ما يكفي من الوقت لأفكر في المعارك التي خضتها. وحيرتني الأخبار التي قالت إن العدو لم يحقق أي تقدم إضافي بعد ١٨ آذار. وتقصيت من صديقي محرّم ومسؤولين مختلفين

زاروني عن الشعور العام الذي ساد القيادة العامة وفي الأوساط الرسمية. واستمر الرأي القائل إن العدو قد يعود في أي يوم تقريباً وستنتهي الحرب سريعاً، مثلما استُنتِج عموماً أن ١٨ آذار يمثّل موعد نهاية الحكومة التركية. ولم يكن سراً أن القادة الأتراك في ذلك اليوم كانوا مستعدين للفرار، وأن قطارات خاصة جُهِّزت استعداداً لنقلهم إلى مناطق داخلية آمنة.

إذ فشل الفرنسيون والإنكليز في ١٩ آذار في الدخول إلى الدردنيل ونيل الجائزة التي كانت في انتظارهم، كان من المشكوك فيه أن نكون نحن العسكريين أكثر دهشة من القادة الأتراك.

كانت للقادة العسكريين والبحريين الأتراك الأسباب كلها التي تجعلهم يعتقدون بأن القيادة العليا لأسطول الحلفاء كانت تعي تماماً الأوضاع الصعبة جداً للأتراك. وفي الواقع، وكان شائعاً أن أجهزة الاستخبارات الفرنسية والانكليزية على معرفة بكل الأمور. كانت عناصر النصر كلها متوافرة للحلفاء؛ والمدافع التركية كلها مسكتة عملياً، وكانت الحصون التركية مدمرة وثمة نقص في الذخيرة؛ وفي القسطنطينية الكوزموبوليتانية، كانت فئات ساخطة كثيرة ستسرّ إلى حدٍ كبير في حال سقطت الحكومة التركية.

في ضوء هذه الوقائع وبعد مراجعة الأحداث السابقة، اتضح لي أن الحلفاء تعمدوا التوقف. لكن لماذا؟ لا بد من أن الموقف المريب من جانب قوات الحلفاء سيبدو مثيراً للشبهة إلى هذا الحد أو ذاك لأي رجل حظي بتدريب عسكري.

لماذا احترز الحلفاء حين حذرونا من الهجوم الكبير المرتقب بأن رموا

منشورات من طائرة قبل يوم واحد من معركة ١٩ شباط؟

لماذا تمركزت بارجة روسية في خليجي ساروس خلال الحصار كله؟ هل دُعِيت إلى هناك لتراقب من موقع، ليس شديد القرب، المحاولات الشجاعة للبريطانيين والفرنسيين لاقتحام المضائق؟

لماذا كانت التقارير المنشورة عن خسائر الإنكليز، كما صدرت في تقاريرهم الرسمية التي وصلت إلينا، منافية للعقل فأضحكتنا أكثر مما أدهشتنا؟

حتى ١٩ آذار، لم تغرق سوى سفينتين بريطانيتين وسفينة فرنسية. وأُعطِبت سفينتان أخريان ولكنهما عادتا لاحقاً إلى العمل. ولا بد من أن خسائرهم في الرجال كانت قليلة في شكل مماثل.

ولم يمر وقت طويل قبل أن تُناقَش أسباب كثيرة لعدم محاولة الحلفاء أكثر في الدردنيل وحسم المعركة. وتمكن العقل غير المدرّب للجندي التركي ذي الأصول الفلاحية من فهم أن العدو تراجع عمداً عن نصره السهل نسبياً. ومُورِس قليل من الدبلوماسية في شكل صارخ لم يتمكن حتى العقل العسكري من فهمه.

انتصرت إنكلترا العظمى، سيدة البحار، وفرنسا القوية، ولكنهما غادرتا النصر. لماذا؟

لنرَ ما حصل أيضاً حتى ١٨ آذار. حسناً، حصل أن الروس انتصروا في اجتياح شمال تركيا، واخترقت جيوشهم ٢٠٠ ميل في الأراضي التركية. وكانت سفن من البحرية الروسية وسفن نقل روسية أيضاً عند مدخل

البوسفور، تنتظر بفارغ الصبر إشارة لمتابعة نصر الأسطول الفرنسي والإنكليزي ونشر جنود، جنود روس.

لدي فكرة عن ليال كثيرة من تأنيب الضمير مرت على المستشاريتين الإنكليزية والفرنسية خلال تلك الأيام حين ارتعد رئيسا الوزراء ودبلوماسيون من فكرة احتمال استيلاء الروس على القسطنطينية باعتبارها جائزتهم الفردية، ثم يقفلون الأبواب على قناة السويس والهند الإنكليزية ويدمرون الهيمنة الفرنسية والإنكليزية على البحر المتوسط. كانت فكرة احتلال روسيا السلطنة فوق الاحتمال بالنسبة إلى صغار الرجال في المستشاريتين، وأصبحت كابوساً، ولذلك حُوِّل نصر سهل في شكل ما إلى هزيمة رثة بالوكالة.

ليس هدفي أن أدافع عن العسكريين أو أحاسبهم، ولكنني واثق بهذا، أن الحروب، إن وجب خوض حروب، يمكن أن تُدار في شكل إنساني أكثر (إن كان الانتهاء السريع وقتل مليون وتشويههم، فرضاً، أكثر إنسانية من قتل مليونين)، في حال تُرِك العسكريون يقومون بعملهم وسُمِح لهم بخوض الحرب وفق الممارسة العسكرية الجيدة ووفق تقديرهم هم، بدلاً من الاضطرار إلى خوضها وفق أوامر الشعبويين والسياسيين التافهين.

كثيراً ما نظرت إلى الوراء وفكرت في النتائج المأسوية التي تلت الدبلوماسية الإنكليزية والفرنسية التي أفضت إلى التخلي عن نصرهم في الدردنيل. تبدو الإمبريالية الأجنبية وجشعها إلى السلطة أمراً وحشياً وشريراً.

لو اقتحم أسطول الحلفاء الدردنيل في ١٨ آذار، وهم يعرفون أن في

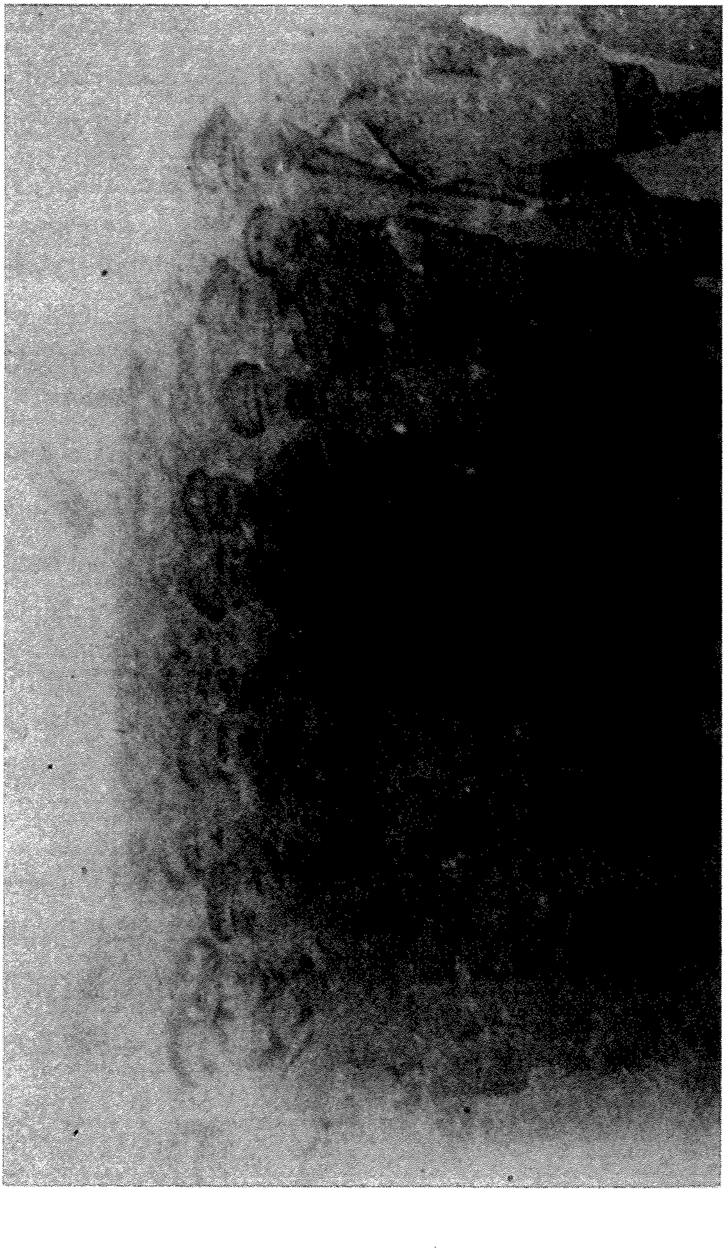

النقيب طوروسيان في المقر العام في بلغاريا عند الجبهة المقدونية قرب كافالا

مقدورهم الاستيلاء على القسطنطينية، أظن أن نهاية الحرب كانت تحققت قبل سنوات من نهايتها الفعلية، وجرى تجنب عذاب غير معلن، ولم تكن الكارثة التي حصلت بعد سنتين حصلت ومحت فعلاً الكتلة السكانية الأرمنية المكتملة في تركيا.

تحمّلوني إن بدا أنني انحرفت، ولكنني أشعر الآن، كما شعرت آنذاك، بأن الدبلوماسية والشعبويين لا يقيمون وزناً لحيوات الرجال الواجب عليهم أن يحققوا لهم انتصاراتهم العسكرية.

بحلول مطلع نيسان، أُعلِن أنني في وضع مناسب لاستئناف مهامي، وسرعان ما صدر الأمر لي بقيادة بطارية في حصن دردنوس، على بعد أربعة أميال جنوب حصن أناضول الحميدية. وتبين لي أن الأتراك نالوا ما يكفي من الوقت خلال الوقف الجزئي للأعمال العدائية لإعادة بناء تحصيناتهم، وتركيب مدافع جديدة، وتخزين مؤن جديدة من الذخائر في مواقع مختلفة. لقد عملت جيوش من الرجال في حملة محمومة لإعادة التأهيل.

وتحول الاقتناع بالهزيمة الذي ساد أذهان الجميع إلى شعور بالنصر بفضل الدعاية المستمرة. والتحق الجنود الأتراك بمهامهم وهم يسخرون من فرار الكفار (يسمي الأتراك غير المحمديين جميعاً «كفاراً») وحصافة الأتراك حين تمكنوا من طردهم من المياه التركية.

لكن العدو لم يهجر المنطقة تماماً، وبدا واضحاً أن الاستعدادات كانت جارية لهجوم بري.

وراقبت مجموعة من القوارب / الطوربيدات المياه حتى عمق خمسة أميال في المضائق، ومن وقت إلى آخر، كانت غواصة معادية تتمكن من المرور عبر المضائق الملغمة إلى بحر مرمرة لتغرق سفينة تركية للمؤن والذخائر.

تحولت الحرب آنذاك إلى لعبة قط وفأر، وأمل الإنكليز والفرنسيون من دون شك بأن يتمكن الفأر التركي من استجماع ما يكفي من قوة للفرار إلى جحره مجدداً.

كان القتال غير منهجي. وأحياناً نسمع أصوات القنابل تنفجر في نقاط محيطة بنا، ولكن أي ضرر كبير لم يحصل قط.

وورد خبر مفاده أن الفرنسيين يحاولون إنزال قوات على شاطئ الأناضول والإنكليز على الجانب الأوروبي، ولكن الأخبار لم تثر قلقاً كبيراً لأن أفواجاً تركية محترفة كثيرة كانت أُرسِلت إلى الدردنيل لتجنب هذا الاحتمال، كان ذلك في أواخر شهر آذار.

في حوالى منتصف نيسان، سطع نجم سعدي مجدداً. خرجت غواصة بريطانية في شكل واضح إلى سطح المياه بهدف تحديد وجهتها، وشوهدت أمام بطاريتي. فتحنا النار فوراً واستمررنا في إطلاقه من دون رحمة حتى رأيتها تهتز إلى الأمام وترتطم بقوة بجانب الشاطئ.

وأرسل البريطانيون إشارة بالاستسلام، ولكنني لحظتئذ لم أتمكن من السيطرة على رجالي واستمروا في إطلاق النار. وبدا أن القائد قُتِل فوراً، وقفز أفراد الطاقم إلى السطح وبدأوا يسبحون في الأقدام القليلة التي كانت تفصلهم عن الشاطئ. وسارع عدد من المشاة، وهم في حالة هستيريا

ظاهرة، ببنادق مصوبة، مصممون على إفناء الناجين. ركضت خلفهم تاركاً الآخرين منهم والأقل خطراً تحت رقابة ضباطي. واضطررت إلى إشهار مسدسي قبل أن أتمكن من ضبطهم ومنع مذبحة.

كانت هذه التجربة الأولى والأخيرة لي على صعيد العصيان الجماعي، والمرة الوحيدة التي سمعت فيها أي ملاحظة بسبب مسيحيتي. وتطلب الأمر كثيراً من الوعظ وصرامة كبيرة قبل أن يفهموا أخيراً أن الحرب، ولو كانت نوعاً من القتل القانوني، لا تحمل امتياز قتل جنود عزّل في شكل مكشوف جداً.

الفصل الرابع

من الدردنيل إلى المسلخ

مرت الأسابيع ببطء؛ مضى الشتاء وحل الربيع معتدلاً ومنعشاً. واستمرت الحرب في الدردنيل في طريق مسدودة لا مخرج منها.

لكن أخباراً أكثر إقلاقاً بدأت تتسرب. فالقادة الأتراك، الواثقون بأن الفرنسيين والإنكليز كانوا يخشون الاستيلاء على الدردنيل، كانوا يخططون لتسوية نهائية للمسألة الأرمنية التي كانت تغيظهم. وسرت شائعات عن أن مجازر كبرى كانت ستُرتكَب وأن الكتلة السكانية الأرمنية ستُباد أو ستُجبَر على عبودية رهيبة في الداخل. وطُرِد المسؤولون الأرمن في الحكومة التركية جميعاً وقيل إن الجنود الأرمن سيُجرَّدون من سلاحهم وسيُخضَعون للمعاملة نفسها كالأرمن المدنيين.

وأصبحت الرسائل من أمي تصل في شكل غير منتظم، وكانت تخضع

لرقابة شديدة فأصبح المصدر الموثوق الوحيد لديّ للمعلومات غير ذي قيمة.

وبدأت أتساءل عمّا سيكون مصيري أنا.

كانت جمعية الاتحاد والترقي، الحزب الحاكم، يائسة كما أعلم، على الرغم من المهلة الواضحة الممنوحة لها من الدبلوماسية الإنكليزية والفرنسية. كانت خزينة الحكومة خالية، وكان ضباط الجيش وعناصره لم يقبضوا منذ وقت طويل، وكانت الحصص المخصصة للقوات تنفد، فيما كانت الثياب والمعدات غير مناسبة وفي وضع رث. وفي تدبير طارئ، ولتهدئة تململ الجمهور التركي، أصدرت جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة مرسوماً بسلب الكنائس الأرمنية كلها القرابين الذهبية والفضية وتحويلها إلى عملة. وصودر الغذاء المخزّن لدى الأرمن ووُضِع في تصرف الجيش.

وشاب المرسوم عيب وحيد. لقد استاء منه أكثر من مليوني أرمني ورغبوا في تحديه إن استطاعوا. وفهمت الحكومة الأمر، فعلى الرغم من أن الأرمن كانوا غير مسلحين، كانوا تهديداً محتملاً لمجرد عددهم، فلذلك وُضِعت خطط لترحيل مدن كاملة، وفصل العائلات ووضعها تحت ظروف مستحيلة، في أجزاء غير صحية من السلطنة، حيث سرعان ما يموتون من نقص الطعام وظروف غير مواتية أخرى. وكانت ثمة خطط حكومية أخرى لحل المسألة الأرمنية طبعاً؛ أنا لا أروي سوى الخطة التي تسربت.

لم أُفاجَأ كثيراً في صباح أحد أيام الربيع حين تلقيت رسالة من قائد التحصينات تطلب حضوري إلى مكتبه فوراً للحصول على أوامر أخرى.

وأُعفيت من قيادة بطاريتي.

كنت على مسير ساعة بالحصان من المقر العام، وحين بلغت المقر وأُدخِلت إلى مكتب القائد كنت مستسلماً لأي شيء تقريباً وأشعر بصمت بالمرارة. لكنني تمكنت من ألّا أبدي مشاعري، وأن أفعل ما في وسعي لإنقاذ ما بدا لي وضعاً سيئاً.

بعد التحية المعتادة، وقفت أنتظر. وبدا القائد منهمكاً، واعتقدت أنه محرج، فيما قلّب أوراقاً كانت على مكتبه. نهض حاملاً في يده مستندات كثيرة بدت رسمية وجاء إليّ من حول مكتبه. وتساءلت إن كنت سأُجبَر على التخلي عن سيفي في تلك اللحظة وذلك المكان. وحين خاطبني بالرفيق العزيز وشد على يدي بطريقة ودية، شعرت بضياع أكثر من أي وقت مضى. كانت علاقاتي بنظرائي الضباط ورؤسائي العسكريين في الجيش التركي شديدة الود دائماً، ولكن في ظل توتر الأوقات الصعبة، شعرت أن موقف الحكام المدنيين ربما انتقل إلى الجيش أيضاً. وربما كان الأمر كذلك، ولكنني لم ألمسه قط.

سألني أن أجلس وأشار إلى أنني سمعت من دون شك عن السياسة الجديدة للحكومة العثمانية إزاء الجنود المسيحيين. وقال لي إن الرسائل التي كان يحملها في يده مرسلة من وزير الحرب أنور باشا وتأمر بمثولي أمامه فوراً.

وعلمت لاحقاً أن الأمر الأول وصل قبل أيام كثيرة، ولكن القائد استخدم أقصى نفوذه لإبقائي من ضمن قواته. وأرسل احتجاجات عاجلة قال فيها

إنني أحد أفضل رجاله ولا يمكن الاستغناء عني بسهولة. لكن مناشداته كانت من دون جدوى، وكان عليّ أن أستعد لاستقلال قارب / طوربيد تركي تلك الليلة والمثول أمام وزير الحرب في الصباح التالي.

جلست من دون حراك. لم أعرف ما أقول. هذه هي إذاً نهاية طريق المغامرة؛ مكافأة الولاء والخدمات المهنية السليمة. ووجدت صعوبة في الكلام، على غرار قائدي الذي وقف قرب النافذة ونظر بكآبة إلى الخارج. وأظن أن كلينا اصطنع ابتسامة فيما تصافحنا لدى خروجي. لقد عرف كم كنت ممتناً لاهتمامه، على الرغم من تمتماتي غير المناسبة.

أمضيت بقية اليوم في توضيب أغراضي. وقبيل المساء، زرت محرّم في المقر العام، ووجدته مجهداً وساخطاً أكثر مما كان بادياً عليّ. وبنفحة غضبه نفسها نصحني باسم الله وباسم صداقتنا ألّا أفعل أو أقول أي شيء ينم عن حمق. وانتقد غباء الحكومة ووحشيتها ونبهني إلى كيفية التصرف بهدوء وثبات أمام أنور باشا، وكيف أؤثّر فيه بولائي للقضية التركية.

وقبيل أن تغادر سفينتي - كانت في الواقع عند طرف السلّم المتحرك - قال لي إن القائد العام جواد باشا كان مهتماً بقضيتي وكتب رسائل كثيرة إلى وزير الحرب، مطرياً على ولائي وفاعليتي وشجاعتي، ومشيراً أيضاً إلى أن الحصون التي قدتها كانت الوحيدة التي نجحت في إغراق سفن معادية. وظننت أن من الجيد امتلاك نجم سعد، حتى حين لا يتوافر الوقت كله؛ قد يكون لرسالة جواد باشا بعض التأثير.

استمررنا بالابحار في المضيق والأضواء كلها مطفأة، ولا حركة ولا كلام.

كان النوم مستحيلاً عليّ تمشيت لساعات، وكانت أفكاري بسواد الليل. واستغرقت في نوم صعب، وقررت أنني في مقابل كل ما يطاول والديّ أو يطاولني أو يطاول شعبي، سأجعل الأتراك يدفعون ثمناً مضاعفاً. بعد سنوات فكرت في الحقيقة المثيرة للاهتمام ومفادها بأن سخطاً أخلاقياً كبيراً موجهاً إلى خطأ مرتكَب بحق آخرين لا يتطور في شكل ظاهر حتى يشعر المرء نفسه بالمعاناة؛ فالناس لا يشعرون بسخط كبير حين تقع ظلامات على آخرين مثلما يفعلون حين يشعرون هم أنفسهم بالمعاناة.

أفقت بعد وقت طويل على حلول النهار، وكان الشهر شهر أيار، والشمس ساطعة، والسماء زرقاء صافية، لم يكن الصباح مناسباً لمهمات غير سارة.

بعد فترة وجيزة من الساعة السابعة، رست المدمرة وكنت على الرصيف أستقل عربة. كان مبنى وزارة الحرب في إسطنبول على بعد ميل أو أكثر من الشاطئ. عندما اقتربنا منها، بدأت أفكر في عدد الضباط الذين استُدعوا إليها خلال حكم السلاطين ولم يخرجوا منها، وفي المسيحيين الكثيرين الذين أُلقوا في سجون قائمة تحتها لينتظروا موتاً محتماً. كنت غير سعيد وغير مرتاح.

أنزلتني العربة عند المدخل، واقترب مني حارس، وبعد تفحص أوراقي، سمح لي بالمرور، ودلني إلى مكاتب وزير الحرب التي كانت في الجناح الأيمن من المبنى.

اقتُدت بداية إلى مكتب القائد العسكري المحلي الذي كان تركياً متين البنية،

طويلاً ومتسلطاً، ذا عينين سوداوين ونافذتين وباردتين؛ لم يكن عسكرياً بل موظفاً يرتدي بزة. ألقيت التحية ووقفت مستعداً.

نظر إليّ للحظة وكأنه يخترقني بنظراته. أحسست بأني هشّ وضعيف وكأني برقّة الورق. فجأة تناول مسدسه. ارتعت وظننت أنه سيقتلني في تلك اللحظة وذلك المكان. وتساءلت لما كان سيثير فوضى كتلك في مكتبه. كانت الفكرة عبثية طبعاً، ففي لحظات التوتر، يمكن لأفكار عبثية كثيرة جداً أن تتسلل عبر اللاوعي.

صرخ فيّ آمراً بتصريحي عن هويتي وسبب وجودي حاملاً سيفاً ومسدساً جانبيَّين. قلت له إنني النقيب طوروسيان جئت من الجبهة باستدعاء من معالي وزير الحرب.

لم يعِر بالاً إلى أي شيء قلته، ولكنني رأيته يضغط على زر وسمعت جرساً يُقرَع خارجاً. ودخل رقيب وخفيران يعدوان بسرعة مضاعفة، وضمّا ساعديّ إلى جانبيّ وجرداني من السيف والمسدس. وعلى الرغم من احتجاجي، الذي لم يلقَ رداً، قاداني إلى آخر القاعة وفتحا باباً، وببساطة دفعاني إلى ما بدا غرفة اعتقال مكتظة جداً. كانت رائحة الغرفة كريهة ومنتنة والهواء محبوس. كان ثمة في القاعة المئات من الرعاع الأتراك نصف الجائعين ونصف المكسيين وغير المغتسلين، وكانوا يغنّون. وتجمهروا حولي ورحبوا بي في شكل ودود بوصفي نقيباً في الجيش وسألوني إن كنت عُيِّنت قائدهم.

أخيراً علمت بأن الرجال كانوا سجناء منذ فترات طويلة ونالوا عفواً من معالي طلعت باشا، وزير الداخلية، شرط أن يقوموا بواجب في الداخل

النقيب طوروسيان في جبهة موناستير

في التحريض على القوى الأرمنية والقضاء عليها. وأحدثوا جلبة مرتفعة حول دم الكفار الذي سيُهرَق وأعراضهم التي ستُهتَك. وارتجلوا أنواع الشعر الهزلي القذر كلها.

كنت لا أزال أتحدث إليهم محاولاً معرفة وجهتهم حين فُتِح الباب مجدداً واندفع إلى الداخل ضابط متحمس برفقة خفراء كثيرين. وبدأ الضابط يعتذر قبل أن أتمكن من فهم كلماته ورجاني أن أتبعه إلى القاعة. وأُعيد مسدسي وسيفي إليّ وعرفت أخيراً أن وزير الحرب الذي كان ينتظرني سأل القائد المحلي عن مكاني.

تفاءلت خيراً وتساءلت مرات كثيرة منذ تلك الحادثة حول ما كان القائد المحلي يدّخره لي.

اقتُدت إلى غرفة الاستقبال حيث كانت قد وُضعت مفروشات فاخرة وسجادات جميلة وأرائك ومقاعد عثمانية فخمة تحت أشعة أيار التي تسللت عبر النوافذ المرتفعة. بدأت أشعر بالثقة مجدداً.

صدر صرير عن باب يُفتَح وصوت ضابط ينادي النقيب طوروسيان. نهضت وعدّلت بزتي بعصبية وتبعته في رواق طويل وضيق يصطف فيه رجال الشرطة العسكرية وضباط الاستخبارات، جميعاً مسلحين ومتنبهين بعصبية.

وبعد التحيات الرسمية، أخذ السكرتير سلاحي ولمح اسمي، ولاحت على وجهه ابتسامة وظهرت أمارات الودّ عليه. أخرج من مكتبه ملفاً من الأوراق

ونظر فيها بسرعة وهو لا يزال يبتسم. ثم وقف ومد يده قائلاً: «أهلاً يا بطل!».

أحسست بدفء الربيع وجماله.

دعاني إلى الجلوس وأخبرني أن الحكومة التركية السلطانية ممتنة بعمق لي لما سماه خدمتي الجليلة، وأن الجيش اعتبر أدائي في الدردنيل شجاعاً تماماً.

كان الأمر خبراً جيداً.

ثم تابع شارحاً أن القيادة العليا اعتبرت من المناسب استدعاء الجنود المسيحيين جميعاً من الصفوف التركية لوضعهم في مواقع ساخنة وخطرة وراء خطوط الجبهة. لكنه أضاف أن القرار لا ينطبق في حالتي، وأن لي الحرية في العودة إلى قيادتي في الدردنيل، أو قبول تعيين جديد في مفرزة مدفعية الميدان. وكان عليّ أن أعلن قراري قبل أن أغادر.

حمل المراسلات التي كان قد أخذها من مكتبه وأشار لي بأن أتبعه. رافقني العسكر إلى المكتب الخاص بأنور باشا الذي كان يجلس في كرسي جلدي وثير وفخم وراء مكتب ضخم، وشعرت غريزياً بأنه راقبني بنظرة غير أكيدة من عينيه الخبيثتين والضيقتين.

التحيات الرسمية مجدداً، ولا كلام. وضع السكرتير الأوراق على مكتب الوزير وانسحب بهدوء.

بعدما حدّق بي لدقيقة كاملة، نهض معاليه وعرّفني إلى مستشارَيه الألمانيَّين المارشال لهمان فون ساندرز والجنرال فوندرغولتز بأنني البطل الأرمني للدردنيل.

بطل مجدداً. بدأت أصدّق الأمر.

كان استقبالي ودوداً جداً فشعرت براحة فوراً.

لن تكون المحادثة التي سأرويها وفق الكلمات نفسها التي استُخدِمت، ولكنها الخلاصة الدقيقة لها، وتسجيل لجهدي الحقيقي الأول على صعيد التقية.

قال وزير الحرب: «يبدو من السجلات الرسمية، أيها النقيب، أنك درست التكتيكات العسكرية في شكل شامل إلى حد كبير. قل لي ما رأيك في تحصينات الدردنيل. هل هي فاعلة كفاية لصد هجوم من بوارج العدو؟».

لم أشعر طبعاً بأن من الحكمة أن أخبره أن التحصينات كانت بفاعلية أكوام النفايات العديمة الجدوى التي كانتها، فراوغت وعممت.

«معالي الوزير، لدي اقتراح واحد: ضعوا مدافع صغيرة على امتداد الشاطئ في شكل يمنع كاسحات الألغام المعادية من التقاط ألغامنا».

وكان سؤاله التالي حاسماً: «هل يمكن للبريطانيين أن ينجحوا في الاستيلاء على القسطنطينية من خلال إنزال قوات في الدردنيل وإحراز تقدم بري؟».

«لا سيدي»، أجبت بثقة أكبر بكثير مما شعرت به. «ولكن من الضروري فقط وضع قوات وطنية حقاً أمامهم فتكون تحركاتهم مراقَبة في شكل فاعل. والقوات الموجودة هناك من أفضل ما لدينا، ويجب أن تتمكن من صد هجمات العدو. وفي رأيي، معاليك، ليست الحرب شأناً علمياً وتعليمياً فقط، ولا يعتمد نجاحها فقط على المال والرجال والتجهيزات

الممتازة. الحرب مسألة من مسائل القلب أيضاً والانتصارات تتحقق بالوطنية المطلقة».

كان تصريحاً أخجل بالإدلاء به أمام رقيب يعمل بإمرتي، ولكنه بدا وقد أسعد معاليه وراء مكتبه، إذ ابتسم ابتسامة عريضة ونظر باتجاه زميليه اللذين كنت على ثقة بأنهما شككا شخصياً في المنطق العسكري لرأيي.

ثم أشار وزير الحرب إلى خريطة كبيرة كانت أمام مكتبه مباشرة، وسأل: «أيها النقيب، في رأيك، ما السبب وراء فشل الجيش الألماني في الاستيلاء على باريس؟».

بدأت أشعر كأنني تلميذ نجيب جيء به ليتفاخر، ولكن إجابة جاهزة على ذلك السؤال كانت في حوزتي.

أجبت: «معاليك، في تقديري أن الألمان ارتكبوا خطأً كبيراً حين أوقفوا تقدمهم بعد تدمير خط الدفاع الأول لدى الحلفاء. ما كان عليهم انتظار تعزيزات بل كان عليهم أن يتقدموا مباشرة إلى هدفهم. فلو فعلوا هذا، لكانت باريس بين أيديهم قبل أن يحصل الجيش الفرنسي المحبط على فرصة إعادة التشكل والتوحد مجدداً».

ولم أكد أنتهي حتى بدأ وزير الحرب يقهقه. وتحدث الضابطان الألمانيان بسرعة واحدهما للآخر، وهما، وفق ما فهمت، ربما علّقا على أن الضباط الشبان يبقون كما هم في العالم أجمع. لا أشك في أن أكثر من ملازم ثانٍ ربما قال لضباط الأركان العامين ما عليهم فعله. لكن هذا الرأي كان رأيي الصادق حينها. ولا يزال كذلك.

أشعل كل من الثلاثة سيجاراً، وانتظرت في صمت. ونظر الباشا مجدداً في الأوراق أمامه.

كان سؤاله التالي: «أيها النقيب، هل تظن أن ضابطاً يتأهل لتولي قيادة بطارية مدفعية فور تخرجه من الكلية العسكرية؟».

كانت إجابتي الفورية: «لا سيدي. لقد برع معظم رفاق صفي في الكلية، ولكن في الخدمة الفعلية، أبدوا توتراً كبيراً ولم يستطيعوا أن يتولوا مهامهم بالذكاء الذي يستطيعونه أو المفترض بهم. فالظروف الحساسة، سيدي، ليست مناسبة لغير الخبراء».

لم يقل شيئاً بل سجل بضع ملاحظات. ثم ولينهي المقابلة، كما بدا، دفع أوراقي بلطف جانباً واستدار في كرسيه ليواجهني مباشرة.

سألني مازحاً: «هل رأيتني يوماً في الدردنيل؟».

«نعم، معاليك كنت أنت وموظفوك لطفاء كفاية لزيارة جناح الضباط في مستشفى مدينة الدردنيل فيما كنت هناك طريح الفراش جريحاً. وفي تلك المناسبة، إن كنت تذكر، معاليك، رقيتني من ملازم ثانٍ إلى نقيب».

انتهت المقابلة بسؤاله إياي إن كنت أرغب في العودة إلى قيادتي السابقة أو تولي قيادة جديدة كقائد لفوج مدفعية الميدان في الفرقة الثامنة.

اخترت الثانية.

تبادلنا التحيات مجدداً، ثم كان وداع لطيف من الضابطين الألمانيين، ورافقني الباشا نفسه إلى الباب.

في مكتب السكرتير، أُعطيت مأذونية غياب لثلاثة أسابيع وشُيعت إلى المدخل. إن مشى شخص يوماً على الهواء، فقد فعلت في ذلك الصباح.

الفصل الخامس

السحب السوداء تتبدد وأشعة الحب تسطع

كان أول شيء فعلته بعدما استقللت عربة، أن أسرعت إلى أقرب مكتب للبرق وأرسلت رسائل إلى محرّم ووالدتي واللواء جواد باشا.

كثرت القصص عن الظروف في الولايات الأرمنية وفي الداخل. ورُوِي أن الذكور الأكبر من ١٥ سنة كانوا جميعاً يُقتَلون أمام أعين نسائهم وأمهاتهم وأخواتهم؛ وأن زوجات وبنات كنّ يُغتصَبن؛ وأن نساء وأطفالاً كانوا يُطرَدون عبر أميال مرهقة إلى المنفى.

نزلت في أحد الفنادق الكبرى وأمضيت يومين عصيبين أنتظر خبراً من المنزل. وأخيراً جاء الخبر: لم يتعرّض والداي وشقيقتي إلى مضايقة لأن ابنهم كان النقيب طوروسيان الذي يخدم في الدردنيل. بدا أن ثمة منطقاً في مسألة البطل هذه بعد كل شيء.

كان الجو مشرقاً، ووالدا محرّم سيعودان في اليوم التالي إلى قصر الباشا بعد غياب لأسبوع عن المدينة.

قررت الانتقال إلى بيرا في تقسيم لزيارة أحد نوادي الضباط القائمة في الحي وتمضية المساء هناك. واخترت «الكازينو»، الأشهر بين النوادي الذي كان بإدارة أرمني باسم قرة بيت، وهو رجل ذو حظوة وشهرة لدى الضباط الأتراك لخدمته وكياسته وكرمه.

كان الليل ملكي، وسيكون من قبيل التواضع المزيف أن أنكر أنني استمتعت كثيراً، كنت سعيداً كما أنا الآن.

ما إن تجاوزت العتبة حتى تعرّف إليّ ضباط كثيرون وحيّوا بطل الحميدية. سواء أكنت محظوظاً أم لا، كان لطيفاً هذه المرة أن أكون بطلاً. رُفِعت عن الأرض وحُمِلت على أكتاف ضابطين طافا بي حول الأريكة. ووقف كبار المدنيين، ومعظمهم تجار أثرياء، وألقوا التحية. وصاح البعض مطالباً بوليمة. كانت ليلة تليق بملك. كنت الملك وراقني الأمر. وخدم المالك، قرة بيت، طاولتي بنفسه، مستبعداً النادل الأول ومساعديه. نبائذ ومشروبات كحولية وغناء. كنت متحمساً وسعيداً لأنني كنت أعيش حياتي. وعزفت الأوركسترا، وتمايلت فتيات شبه كاسيات في شكل مثير مع الموسيقى الشرقية.

غاب الدردنيل المدمر بالقنابل، والمسألة الأرمنية، والحرب وما يصاحبها من موت وبشاعة. كان الجوّ ربيعياً ولطيفاً وفي اليوم التالي سأرى جميلة. كم كنت محظوظاً!

حل سريعاً منتصف الليل وساعات منع التجول بسبب الحرب. كان الرواد

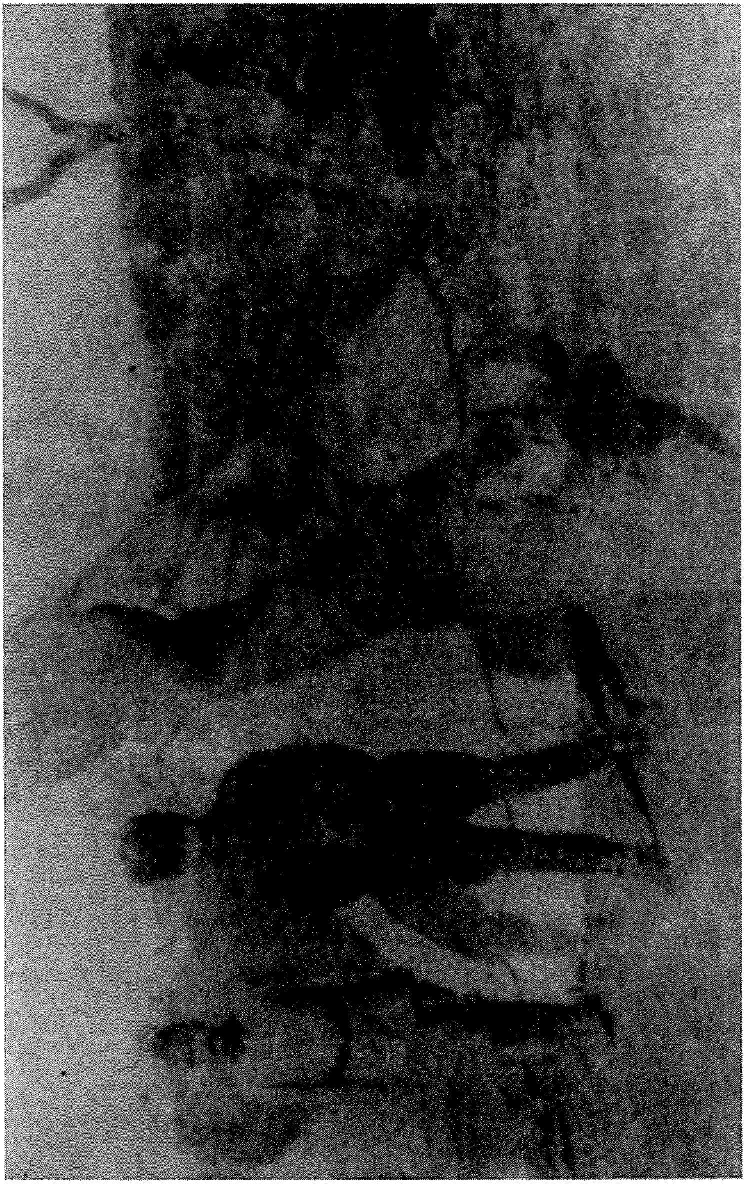

معسكر النقيب طوروسيان عند الجبهة الرومانية قرب بوخارست

يغادرون حين اقترب مني قرة بيت ودعاني إلى تمضية الليل في منزله.

دخلت إلى السرير وأنا لا أزال أشعر بمرح وسرور لفخر قرة بيت أمام زوجته بأصولي الأرمنية، وللمجد الذي منحني إياه الأتراك.

في الصباح التالي، استفقت على يوم ذي سماء لازوردية وشمس ساطعة. وبدا الهواء المعطر بزهور الحديقة غريباً بعد المساءات الكثيرة المفعمة برائحة البارود المحروق.

عند الفطور، قررت فجأة أن أسرّ إلى زوجة قرة بيت بحبّي السري لجميلة. ولا بد من أنها فهمت مدى رغبتي الملحة في رؤية حبيبتي، وعلى الرغم من الخطر المحدق جرّاء إيواء فتاة مسلمة ورجل مسيحي تحت سقف بيتها، اقترحت أن أرتب لقاءً مع جميلة عندها.

فكرت لاحقاً بأنني كنت فعلاً وقحاً جداً؛ تناولت فطوري واندفعت بسرعة خارج المنزل أبحث عن عربة ومودعاً على عجل.

في طريقي إلى قصر الباشا، وبتهور كما أعتقد، كتبت رسالة قصيرة لجميلة، كشفت فيها عن خطتي، وسألتها أن تلاقيني في منزل قرة بيت عند الساعة الواحدة من اليوم التالي. وألححت عليها أن تتدبر أمرها.

ثم بدأت أقلق حول كيف يجب أن أجد لحظة غير مرئية أعطيها خلالها الرسالة.

حين فُتِحت أبواب القصر لاستقبالي، كانت والدة محرّم تنتظرني وقبّلتني وضمّتني كأنني ابنها. وشد الباشا على يدي بدفء وصعدنا الدرج

الرخامي معاً نثرثر ونضحك.

مرت ساعات الصباح وأنا أتحدث إلى الباشا. لقد طرح عليّ كل سؤال ممكن عن الجبهة وجعلني أروي تجربة إثر أخرى. ولاحظت أنه بدا متقدماً كثيراً في السن عمّا كان عليه حين غادرت وكأنه شاب وهرم من هول ما سمع.

لا بد من أن عينيّ مالتا في استمرار إلى الباب، إذ كنت آمل دائماً بأن تظهر والدة محرّم وشقيقتاه. أخيراً انتهى الكلام وعبّرت عن رغبة في زيارة الحديقة للتنقل مجدداً في الدروب الأليفة القديمة.

عبر الرواق ذي الأعمدة تمشيت عرضاً. كانت حديقة الباشا خرافية في الربيع. كانت الأشجار الباسقة التي حدّت الدرب تحمل براعم جديدة، وزهور الربيع متفتحة على خلفية العشب الزمردي الجديد. وأرسلت عرائش العنب التي التفّت حول الدروب وأحاطتها، لوالب جديدة باتجاه الشمس. وعلى مسافة آمنة، توقفت ونظرت ورائي لأرى إن كانت جميلة قد رأتني في الحديقة من نافذة الحرملك، كما كنت أخطط، وتمكنت من الانسلال خارجاً. رأيتها؛ رأيتها كحورية تمشي في تلك الأرض الخرافية الربيعية العابقة بالأجواء اللطيفة؛ جاءت عبر الدرب المعرش بسرعة ووصلت إلى جانبي بهدوء كحفيف النسيم. وهناك قبّلتها للمرة الأولى وضممتها بين ذراعيّ.

تساءلتُ إن لم تكن اللحظات الأعذب للحب فعلاً تلك المستلبة من عالم قلق ومقلق.قطفت قبلة سريعة، وهمسة حميمة وسلمتها رسالة قصيرة مطوية وذهبت. تابعت سيري وجلست على مقعد رخامي قرب بركة السباحة، سعيداً تماماً، في جنة ربيعية حالمة.

حين عدت إلى البيت، علمت من الباشا بأنه لن يسمح لي تحت أي ظرف من الظروف أن أنزل في أي مكان غير منزله خلال فترة إجازتي. ثلاثة أسابيع، ثلاثة أسابيع متواصلة، قرب جميلتي.

لم أشعر بأي ندم حول اللقاء الذي رتبته مع جميلة ولا بأي وخزة ضمير، إذ كان من عادة الشبان والشابات التركيات في الطبقات العليا التلاقي سراً. فحتى في تلك الأيام، كرهت البنات التركيات في الطبقات العليا ضوابط الحرملك ورمينها جانباً كلما استطعن. وكانت أعذار لا تُحصى تُبتكَر للخروج من أبواب القصور. وحين يتحررن، كنّ يجتمعن معاً في ملتقى متفق عليه ويتخلّين عن العباءات الفضفاضة والحجابات لمصلحة أجمل الثياب الأوروبية التي استطعن اقتناءها.

فيما كنا نتناول العشاء في تلك الليلة، حاولت النظر في عيني جميلة، ولكن الباشا شغلني تماماً في مناقشته للحرب وعدم رضاه عن الحكم الاستبدادي لأنور باشا، وزير الحرب، وطلعت باشا، وزير الداخلية، اللذين كانا ديكتاتورين فعليَّين. وبدت الصفوف العليا للجيش مجمِعة على استنكار سياسات هذين الرجلين، ولكن وطنيتها في مواجهة الحال الطارئة لبلادها جعلتها عاجزة. وكان والد محرّم أول ضابط ذي رتبة عليا، كما سمعت، يندم علناً على فشل الحلفاء في الاستيلاء على القسطنطينية، أو رفضهم ذلك كما قال، وإنهاء الحرب.

في اليوم التالي نهضت باكراً، وبذريعة وجود أمور مهمة في إسطنبول، غادرت عند الساعة العاشرة، قائلاً لهم إنني لن أعود قبل بعد ظهيرة اليوم التالي.

في منزل قرة بيت، لا بد أنني أزعجت السيدة زوجته في شكل مستمر. لقد تململتُ، وتحدثت بعصبية عن هذا الأمر وذاك، ومشيت حول المكان كله وأربكتُ الخدم، ولمرات لا يُحتسَب عددها سألت السيدة قرة بيت إن كانت تعتقد بأن جميلتي ستتمكن من الخروج. ولمرات لا يُحتسَب عددها أكّدتْ لي أن الأمر ممكن.

الساعة الواحدة ولا أثر لجميلة. إلى يومنا هذا أذكر يأسي المسرحي. وقلت بحزم: «كيف قُيِّض لي أن أعتقد بأنني رجل محظوظ».

قرع أحدهم الباب. توقف قلبي عن الخفقان على ما أعتقد. وفي ضوء التأمل وفي ظل السنوات التي مرت منذئذ، لا بد من أن تأكيداً كهذا يبدو مبالغاً به وعبثياً. لكنني أكيد من أنها الحقيقة؛ لقد توقف قلبي للحظة عن الخفقان.

فتحت السيدة قرة بيت الباب بنفسها. كل ما أذكره أنني أصبحت فجأة وحدي في قاعة الاستقبال وجميلة بين ذراعيّ.

قبّلتها، ليس بالحمى المتلهفة القوية للقبلة الأميركية، بل بالقبلة الناعمة والمرتعشة التي تصدر عن الحب. كنت شاباً ورغبت فيها أكثر من أي شيء آخر في العالم. رغبت فيها إلى الأبد. كانت كل الحياة لي، وأحببتها بلا حدود.

تهامسنا عن الوَله، وبكت كالطفلة الهشة التي كانتها، بكت رغبة في السعادة، كما قالت، ومن فكرة فراقنا القريب.

لاحقاً، حين تماسكت وابتسمت مجدداً، انتقلنا في عربة إلى شاطئ ناءٍ على البوسفور حيث لا يعرف أحد جميلة. استأجرنا قارباً طوال بعد الظهيرة، وطفنا على المياه الزرقاء، وتحدثنا عن الحب. ولم يكن من كائن حي آخر في العالم غيرنا نحن الاثنين. كيف يمكن حشر سعادة كبرى كتلك في مجال قليل من الوقت كذلك! غنّت بنعومة، وفي مكان ما على الشاطئ قرع جرس. لا يمكن لحلم أن يكون بنصف سحر تلك السويعات الأولى التي قضيناها وحدنا.

زحفت ظلال المساء على الشمس الغاربة قبل أن نكتري عربة ونتوجه إلى المدينة. بقيت في منزل قرة بيت تلك الليلة، واكترت جميلة عربة أخرى نقلتها إلى القصر، ولكن ليس قبل أن نخطط لمشوار جديد.

وأصبحت إجازتي طوافاً يائساً في حدائق الباشا بين مشاويرنا.

حين حل الأسبوع الأخير من إجازتي وفي مشوارنا الأخير، التقينا في منزل قرة بيت، تمسكت بي، بوجهها الجميل وعينيها السوداوين الرائعتين كنجمتين، ورجتني ألّا أتركها أبداً. وقالت إنها شعرت بأننا لن نلتقي مجدداً.

ضحكت، ولكن في الواقع، تساءلت ما سيكون في انتظاري في غاليبولي.

انتقلنا ثانية بعربة في يومنا الأخير ذلك إلى الشاطئ البعيد على البوسفور، ولكننا لم نشعر بالسعادة نفسها. تكلمنا ولكن قليلاً.

في طريقنا، شاهدت بحيرة، فتوقفنا هناك بدلاً من متابعة السير، وطفنا في

الدروب حولها، وراقبنا أسماكاً فضية تتحرك في المياه المنعشة والصافية. وكانت جميلة قد خلعت حجابها وحملته من دون اكتراث بيدها. مرة علق بشجيرة، وأتذكر تماماً حذري في تخليصه. وجدنا بقعة هادئة وجلسنا فيها. همست لها وقبّلت يدها وشفتيها. حررت تميمة صغيرة كانت تعلقها بحجابها بواسطة سلسلة فضية وطلبت مني أن أرتديها دائماً قرب قلبي. قالت إن ساحراً شهيراً صنعها وحلف باسم الله أن من يرتديها سيكون محمياً من موت عنيف.

لم أضحك ولم أبتسم حتى، ولكنني قبّلت التميمة بلطف شديد ووضعتها في جيبي قرب قلبي.

اعذروني إن بدوت مستسلماً للعواطف، ولكن هذا كله حصل حين كنت شاباً، ولا تزال الذكرى المستمرة بعد هذه السنين كلها عزيزة عليّ.

بعد ثلاثة أيام، كنت في المعسكر حيث قيادتي الجديدة. وفي اليوم الرابع، عند الساعة الثامنة صباحاً، صعدت آخر كتائب المدفعية القطار وكنت أودّع الباشا وزوجته. لم ترافقهما جميلة وشقيقتها. وبكت زوجة الباشا إذ أخبرتني أنهم تلقوا في الليلة السابقة خبراً من محرّم عن الوضع الخطير للقوات التركية، وعن الاشتباكات الكبرى المتوقعة مع بدء تجمع تعزيزات العدو. وقالت لي إن جميلة لم تكن تستجيب لمحاولات التهدئة.

كان فراقاً حزيناً، ولم أكن سعيداً للرحيل؛ أظن أن بطولتي لم تكن بمستوى

الموقف. لم أرغب في الذهاب. قبض الباشا على يدي وأمسك بها طويلاً، واستعطف الله أن يحميني.

سلام أخير وتركتهما هناك، شخصين مسنين عزيزين، وقفزت إلى القطار المتحرك.

الفصل السادس

جبهة شبه جزيرة غاليبولي

كانت مهمتي الجديدة أن أقود كتيبة في فوج في تلك الفرقة التركية الشهيرة التي تحدّت مدافع الحلفاء وعبرت قناة السويس على الرغم من القصف. وكانت قد فقدت ٨٠ بالمئة من عديدها الأصليين من ضباط وجنود في إحدى المعارك البطولية الكبرى من الحرب في الشرق.

قبل أقل من بضعة أسابيع على تعييني، عاد من بقي من الفرقة من السويس وأُحِلّ محل المفقودين أفضل الرجال في قوات الاحتياط المتمركزة في القسطنطينية. وبعد إعادة الفرقة إلى قوتها الأساسية، تقرر إرسالها إلى جبهة شبه جزيرة غاليبولي.

علمت بأن الإنكليز نجحوا في إنزال قوتين طليعيتين كبيرتين، إحداهما قرب سد البحر والثانية في آري بورنو قرب أنافورتا، أو خليج سولفا.

وحقق الفرنسيون إنزالات من الجهة الأناضولية وعبروا شبه جزيرة غاليبولي والتحقوا بالجناح الأيمن للجيش البريطاني في كيريفيس ديريه. وحمت هذه القوات البرية بوارج معادية عند مدخل الدردنيل وفي خليج ساروس. هو الأسطول نفسه الذي ابتعد عن نصره في ١٨ آذار، عاد ليغطي بالنيران عمليات القوات البرية.

كان مقرراً أن ينتشر فوجنا في موقعه قرب ألتشي تيبيه، الواقعة على مرمى حجر من تحصين العدو عند ما كان يوماً «سد البحر التركي».

كان السبيل إلى موقعنا مسألة أخرى. كانت الغواصات البريطانية قد عثرت على ممر آمن عبر ألغام الدردنيل، وخلال الأشهر القليلة الماضية، ظهرت بانتظام في بحر مرمرة فأغرقت عدداً متزايداً من سفن التموين التركية. لم تكن تجربة الطريق البحرية واردة. من جهة أخرى، كان خط برلين – القسطنطينية الذي كنا نسافر عليه، قد تعرض للتدمير جراء القصف المدفعي من مدفعية العدو وراء محطة أوزون كوبري في تراقيا الغربية.

لم يكن أمامنا سوى السير لقطع المسافة الفاصلة.

بعد مغادرة محطة أوزون كوبري، سرنا لأربعة أيام، وقبيل مساء اليوم الرابع، وصلنا إلى التلال الواقعة مباشرة وراء ألتشي تيبيه. وهنا أُمِرنا بإعداد بطاريتنا لحماية سرايا كثيرة من المشاة كانت هناك.

ليست التلال في منطقة ألتشي تيبيه بعيدة عن مدخل الدردنيل، واليابسة ضيقة جداً بين المضيق وخليج ساروس. كان الموقع تحت النيران المباشرة من كل من البوارج البريطانية والفرنسية، لذلك، لنتجنب انكشافنا، وجدنا

ضرورياً تغيير موقع بطاريتنا كل ثلاث أو أربع ساعات.

ما إن ركزنا أنفسنا حتى أمر الجنرال فون ساندرز، الذي كان يوجه عمليات القوات البحرية في الدردنيل، بهجوم عام على المواقع البريطانية. وقدّرنا قواتنا بـ٤٠ ألف رجل.

أُمِرت باتخاذ موقع قرب قرية كيرتي، التي تبعد نصف ميل غرب ألتشي تيبيه. نقلت بطاريتي بسرعة إلى تلك النقطة إذ كان الهجوم مقرراً في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، أي ٤ حزيران ١٩١٥.

بعد التأكد الحذر من موقع العدو وضبط مدافعي عند مدى مناسب، أبقيت رجالي متأهبين في انتظار أوامر إضافية.

عند الساعة الرابعة فجراً بدأت أسلاك الهاتف تتمتم وحل وقت الهجوم. وعزفت فرق عسكرية كبيرة كثيرة ألحاناً وطنية.

إن كنتم خضتم معركة وعرفتم الفوضى التي يسببها إطلاق القنابل في صفوف الرجال والأشياء، لا يمكنكم سوى أن تقفوا برعب أمام الطيش والشجاعة اللذين يسمان خطاً تلو خط من الرجال المهاجمين، إذ ينزلون سفحاً بشجاعة فيما تنبلج الخطوط الضعيفة الأولى للفجر عبر الظلمة المهيمنة. وقفت هناك في دهشة رصينة فيما راقبت أولئك الجنود الأتراك يتقدمون باتجاه المواقع البريطانية ويصيحون «باسم الله».

وفتحت مدفعيتنا، المؤلفة من ثماني بطاريات قوية، النار لتغطية الهجوم. وراقبت مسافتنا بحذر، ولكنني لم أستطع التأكد إن كان تصويبنا فاعلاً.

لم يصدر صوت عن العدو؛ حتى أضواء الاستكشاف لديهم كانت مطفأة.

واستمر المشاة الأتراك في التقدم ووصلوا إلى لفائف الأشرطة الشائكة التي كانت تحيط بخنادق البريطانيين.

فجأة أُضيئَت أضواء الاستكشاف الخاصة بالأسطول وبدأت البوارج تردّ بعنف على نيران مدفعيتنا. وصبّت وابلاً تلو وابل من القنابل والشظايا على الرجال. وعلقوا كجرذان تغرق في مطر مميت. ساد الهرج والمرج: هدير المدافع الكبرى، نيران البنادق، الصوت المتقطع للبنادق الآلية، الصراخ، أنين الرجال المحتضرين، إلى جانب أمر قد يبدو غير قابل للتصديق وهو صوت موسيقى الفرق العسكرية التي تشجع الرجال على الموت البطولي والعديم الجدوى. كان الوضع مجنوناً وبشعاً في شكل لا يُوصَف.

استمر إطلاق النار لـ٤٥ دقيقة جهنمية، وقبل أن تصل شمس الصباح إلى ما فوق الأفق، جُرِف بحر من الرجال إلى الأبدية، وأصبحت الأرض مقبرة لأجساد ممزقة ومجرّحة، لأكوام من الموتى والمشوهين والمحتضرين.

توقف إطلاق النار، وخلال الدقائق الـ١٥ التالية، ركزت عينيّ على وادي الدمار ذلك حيث تحركت فقط أشياء نصف ميتة كانت سابقاً رجالاً.

وسرعان ما اقترب جيش من الجنود البريطانيين والفرنسيين إلى فتحات الخنادق بحماية قصف مدفعي كثيف، وبدأ يصعد التلة إلى موقعنا الرئيسي في ألتشي تيبيه.

وانتظر الأتراك بحذر حتى وصل العدو إلى الخط الثاني من خنادقهم.

واندلعت معركة رهيبة التحمت فيها الحراب، وتكبد الفرنسيون والإنكليز خسائر فادحة في هذه المواجهة وأُجبِروا على الانسحاب.

ساد الهدوء مجدداً. لم يكسب أي طرف على الأرض، وانتصر الموت. جمعت وحدات الصليب الأحمر الجرحى وخاض حملة النقالات في برك الدماء. ودُفِن القتلى. لا أعرف، ربما تساءل بعض الرجال عمّن يقاتلون في سبيله ولماذا. ووراء الجبهات، لم يبقَ للنساء اللواتي استمعن يوماً لكلمات الرجال الذين أحببنهم سوى ذكريات تثير مشاعرهن. وبدلاً من رجال يعانقنهم، أصبحت لديهن أحلام. هذه هي الحروب، لا مفر منها. إنها محطات مفصلية في التاريخ.

حتى ٢١ حزيران، كان كل شيء هادئاً عند جبهة غاليبولي، في منطقة ألتشي تيبيه. في ذلك اليوم، شنت الفرق الفرنسية في كيريفيس ديريه هجوماً في الصباح الباكر على الخنادق التركية واستولت على ثلاثة منها.

وساد الهدوء مجدداً حتى ٢٣ حزيران، حين جددوا الهجوم. بعد قصف مدفعي عنيف من الجانبين واشتباكات محدودة بين المشاة، فشل الفرنسيون في إحراز مزيد من التقدم.

هدوء مجدداً؛ لا أعلم أيهما أسوأ، الحرب أم التوتر الرهيب للانتظار. هل سيهاجم العدو غداً، أم الليلة، أم اليوم، أم خلال ساعة، أم بعد دقيقة؟ أم هل سيأمر مقرنا العام بهجوم مفاجئ؟ لا راحة، مجرد توتر متتابع يضع الأعصاب على الشفير.

في ٢٨ حزيران، حصل الأمر؛ قصف عنيف من كل نقطة عند الخطوط

البريطانية والفرنسية. استمر يومين من دون توقف، وفي صباح ٣٠ حزيران، سقطت خمسة خنادق إضافية. كانت الخسائر التركية كبيرة جداً، وبدأت أغلبية قواتنا الباقية تنسحب في فوضى.

وبالنسبة إلى بطاريتي، كانت مدافعي سليمة ولم أتكبد خسائر، ولكن رجالي كانوا مرهقين تماماً من التوتر الدائم للمعركة. وكذلك كانت حالي، وحين أعفتنا من العمل بطارية أخرى، كنت سعيداً كرجالي.

ووراء الخطوط في محطة للاستراحة، حصلت على إذن بعبور المضيق إلى نقطة قرب مدينة شنق حيث كان محرّم متمركزاً. تبادلنا الكلام عن التجارب وتحدثنا عن المنزل وتجنبنا بحذر الإدلاء بأي إشارة إلى أن أي منا كان في خطر. وبعدها، وحتى مرور أيام كثيرة من تموز، تمكنّا من تبادل الزيارات في شكل منتظم إلى حد كبير لأن القتال استكان إلى غارات غير منتظمة للمشاة وتبادل لنيران المدفعية.

وشهد شهر تموز مواجهات قليلة أخفّ حدة، ولكنها انتهت دائماً بخسائر تركية. وأحياناً كثيرة قصف أسطول العدو مواقعنا. وردت مدفعيتنا بالمثل ولم يبدُ أي طرف مستعداً للمخاطرة بهجوم عام حاسم.

لم يشن الأتراك هجوماً ثانياً كبيراً حتى الأيام الأولى من آب، حصل ذلك فور إنزال البريطانيين قوات في خليج سولفا (أنافورتا). ولم يكن الأمر سوى عربدة جديدة من الدماء والرعب والمعاناة، وجنون من القتل برصاص البنادق والشظايا والحراب.

وتابع الجيش التركي تكبد خسائر فادحة، ولكنه حافظ بإصرار على موقعه

على الرغم من الأفضلية الكبرى للحلفاء المحميين بأسطولهم القوي.

وإضافة إلى المعاناة والخسائر البشرية في الأرواح، جلبت الأشهر الصيفية الحارة في نهايتها وباء التيفوئيد. وأظن أن هواء أيلول اللطيف ما جنّب القوات، من الطرفين، إبادة كاملة.

أشرق صباح ٢٩ أيلول مثل أيام أيلول التي سبقته، ساطعاً ومنعشاً لكن مشؤوماً. كانت الحملة لأسابيع تقتصر على مواجهات صغيرة وقصف عرضي على الجانبين.

قد تبدو الحادثة التي أرويها كقصة من قصص رومانسية الشرق، أو مقطعاً عرضياً من قصة مستحيلة، ولكنها صحيحة ورهيبة. لن أحاول أن أكون عاطفياً في شأنها لئلا أعطيها بريقاً لم تملكه. كانت حقيقية في شكل لاذع إلى درجة أنها لا تستطيع أن تكون براقة، وكانت أحاسيسي مطفأة ومعتادة الموت، فبدا ذهني فراغاً كبيراً تلمس فيه الحزن طريقه ببلادة.

في صباح ٢٩ أيلول، تلقيت رسالة تقول إن محرّم مصاب بجراح بالغة ومصر على رؤيتي فوراً.

أخذت إجازة ليوم، ووليت قيادة البطارية للملازمين، وصدقاً لست أدري كيف، انتقلت إلى الجانب الآخر من المضيق، حيث عثرت على المستشفى وفيه محرّم، كان مجرد كتلة من الضمادات على سرير نقال؛ كانت عيناه المحرّقتان باديتان، وكذلك شفتاه المزرقتان.

قال لي الجرّاح في الجناح إن محرّم لا يملك أي فرصة ولو ضئيلة للنجاة. كان

يعاني جراحاً كثيرة ونزيفاً داخلياً.

جلست قرب سريره وتناولتُ يده، التي كانت الجزء الوحيد غير المضمد من جسمه، وضغطت عليها وابتسمت، وقلت له إنه سيكون بخير قريباً، وسألته ما قصد بالوقوف في مسار قنبلة. وبدا لي صوتي باهتاً ومبتذلاً كالأكاذيب غير المناسبة التي قالها، فمحرّم عرف أنني كنت أكذب وعرف أنني أعرف. حاولت عيناه الملتمعتان بسبب الحمى أن تبتسما لي، ولا تزال صورتاهما في رأسه المضمد تسكنانني إلى اليوم. كان هذا صديقي الأعز، رفيقي الذي لم ينفصل عني خلال سنوات شبابي الأجمل في حياتي، مومياء مضمدة تُحتضَر. لماذا؟ لأي هدف؟ في لحظة، بدت الأيام كلها التي أمضيناها معاً تمر أمامي. المرح الذي عرفناه، حياتنا المهنية، الخطط حول الأيام المقبلة؛ كانت كلها في رأسي، ولا بد من أنها كانت في رأسه أيضاً، ولكنه عرف أن أحلامه لن تتحقق أبداً. وبدت وحشية الحرب الكبيرة والخرقاء تضغط عليّ وتجعلني عاجزاً عن الكلام.

حاول أن يتكلم، لكن صوته كان مجرد همس مبحوح من خلال شفتيه المنتفختين. رجوته ألّا يهدر طاقته، ولكنه أصر على أنه كان مدركاً لدنو أجله، وأنه على الرغم من كل شيء كان يرغب في إخباري سراً.

وكان السر الذي يرغب في إطلاعي عليه يتعلق بجميلة. كان صوته خفيضاً وهادئاً، ولم يعكّر صفوه إلا نوبات الألم التي كانت تنتابه حين كان يروي لي قصتها. وتذكرت لحظتئذ كيف جذبته والدته جانباً في ذلك اليوم الربيعي، حين شعرنا بأن الحرب مزحة.

واضح أن من المستحيل عليّ، بعد مرور السنين، أن أروي القصة كما رواها لي محرّم، لذلك يجب أن أرويها باختصار، فيما أؤلفها مجدداً في ذاكرتي.

همس لي بالنبرة الجديدة الغريبة التي امتلكها صوته: «أريد أن أخبرك عن شقيقتي جميلة. خلال المجزرة الأرمنية في ١٨٩٦، كان والدي قائداً للواء في الجيش متمركز قرب موش. وحتى آنذاك، كان حزيناً جداً بسبب تجاوزات الأتراك في التعامل مع رعاياهم المسيحيين. وفي أحد الأيام، وفيما كان يمر بقرية أرمنية، أخذ فتاة صغيرة، كانت بالكاد تتجاوز الثانية، وجدها تطوف من دون هدف في الشوارع المهجورة. لم يُعثَر على أثر لأهلها، وبسبب الشفقة أو الحب أو الحزن، أخذها أبي معه إلى منزله. وفي نهاية المطاف، قُبِلت في العائلة. لكن أمي اعترضت على صليب كان موشوماً على عضدها الأيسر، ووضعت مزيجاً حمضياً لتدمير الرمز المسيحي، ما ترك ندبة غريبة الشكل».

«وأمِل والداي بأن أتزوجها، ولكنك تعرف منذ زمن طويل حبي لنورية، فيما لاحظت، سامحني، حبك لجميلة. أقول لك هذا لتعرف أنها من شعبك، وأن ما من إله في جانب وإله آخر في الجانب الآخر يبعدانكما عن بعضكما بعضاً.

«صديقي الأعز، هذه الأمور التي قلتها لك هي سري. سترى نورية وتخبرها عن إخلاصي، وستبحث عن والدتي وشقيقتي لتخبرهما عن حبي».

حين أستعيد هذه الكلمات، تبدو كلماتٍ مسرحيةً، ورواية من خيالات ذهن محموم، ولكنها تبدو أيضاً هزيلة ومجرد خيالات لما رأيته وشعرت

به ليلتئذ. في الواقع لم تكن مسرحية آنذاك، وفيما تمنيت لو أن صديقي يبقى حياً، تقبلت موته المحتوم.

بعد يومين، خلال بعد ظهيرة كئيبة وممطرة، توفي، توفي فيما كنت أجلس إلى جانبه ممسكاً بيده. كنت أنظر إلى البعيد، وبدا نائماً؛ بردت يده في يدي.

أطارت ريحُ المطرَ ورمته كسوط انهال عليّ فيما كنت عائداً. ليس سهلاً أن تفقد صديقاً وتشعر فجأة بأنك وحيد. ربما الصداقة أكبر حتى من الحب، فلم أفكّر بجميلة بل بمحرّم الذي راح صوته إلى الأبد؛ لن أراه في مكان بعد ذلك، ولن أسمع ضحكته. حتى في المقبرة التي هي الحرب، يمكن للموت أن يلمس رجلاً ويقول، «على الرغم من أنك تراني في كل يوم، فيما يموت الرجال بالمئات، بالآلاف، وتصل إلى وقت تحتقرني فيه، حين أمر قربك، ثمة ألم يمكن أن أتركه في قلبك».

رغبت في الحصول على إجازة لأذهب إلى الباشا، لكن العدو ضغط علينا وهاجمنا بوتيرة أشدّ حتى بدت رسالة رفض للإجازة مكتوبة على عجل. ولثلاثة أشهر، ضغط علينا الحلفاء، وأدى كل عمل إلى مجزرة تركية إلى أن تساءلت أحياناً إن كانت القوة البشرية التركية ستُمحى عند جبهة شبه جزيرة غاليبولي تلك. لكن هذه المعركة المستمرة لم تؤدِّ إلى مكسب واضح للعدو.

مجدداً بدأت أفكر في تكتيكات الحلفاء، ومجدداً استنتجت أن الحلفاء لم يريدوا القسطنطينية. لم يكن الأمر حرباً بل مذبحة بشرية غير ضرورية باسم الدبلوماسية.

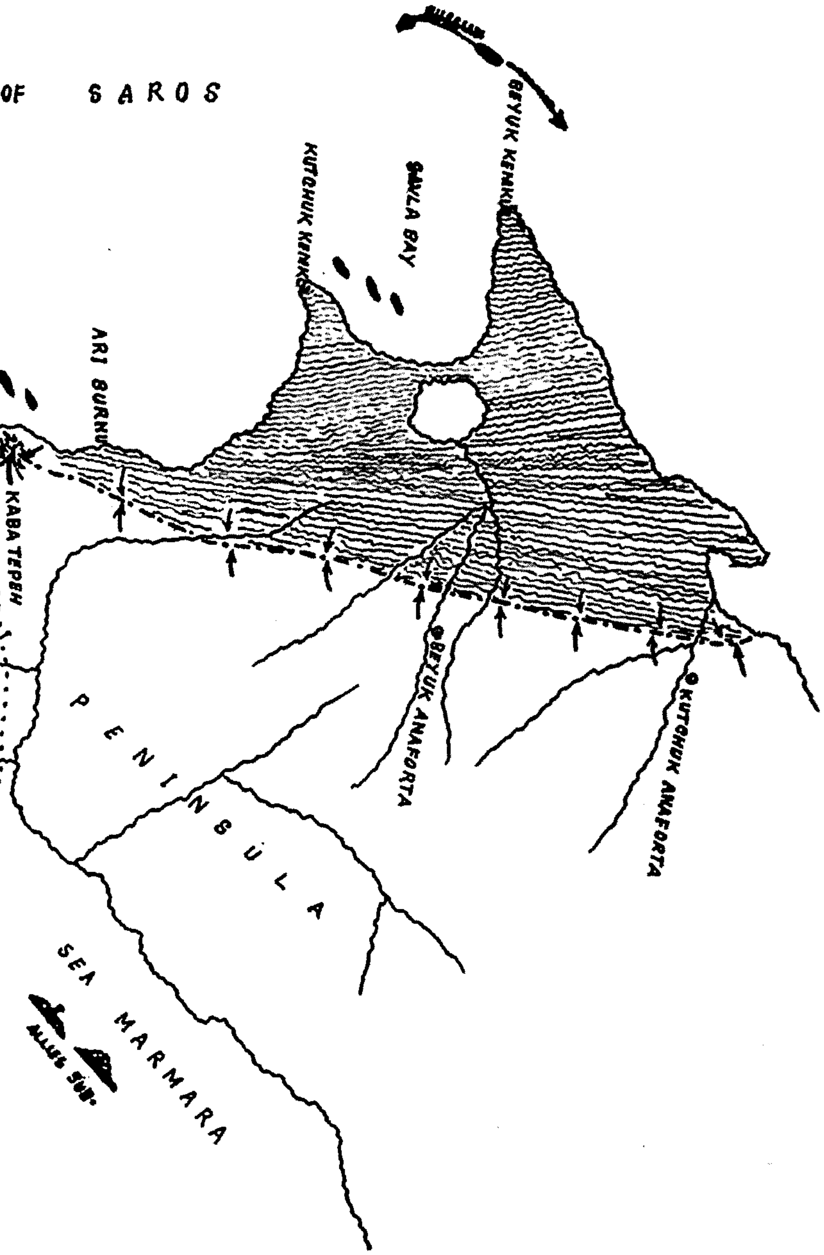
OF SAROS
SUVLA BAY
ARI BURNU
KABA TEPEH
BEYUK ANAFORTA
KUTCHUK ANAFORTA
PENINSULA
SEA MARMARA
ALLIES SUB.

النقيب طوروسيان ورفاقه خلال العودة من مهمة عند الشيخ موسى

لا بد من أن أي عقل عسكري تساءل لِمَ لم ينزل الحلفاء جيوشاً كبيرة في النقاط الأبعد من شبه جزيرة غاليبولي وفي منطقة خليج سولفا. كان أسطول الحلفاء سينطلق بسهولة شمالاً عبر خليج ساروس إلى الرقبة الأبعد لشبه الجزيرة ثم ينزل قوات يمكن أن تصد الجيش التركي في الجزء الضيق من اليابسة جنوباً، فيقطع كل الاتصالات مع القسطنطينية. كان شبح الدب الروسي يحوم في المضائق مانعاً مناورة بسيطة وفاعلة كهذه.

وفيما كانت الجيوش الفرنسية والإنكليزية في خنادقها بشبه جزيرة غاليبولي، كان حليفهما الروسي يحقق تقدماً مستمراً عبر الجزء الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى. وبحلول كانون الأول ١٩١٥، كانت القوات الروسية قد عبرت جبهة القوقاز لمسافة مئات عديدة من الأميال، وخلال الجزء الأخير من كانون الثاني ١٩١٦، احتلت هذه القوات جزءاً قريباً من مدينة أرضروم.

وفي الوقت نفسه، اندفع جيش روسي قوي آخر عبر الجبهة الفارسية، وبحلول الأسبوع الأول من كانون الثاني، وصل إلى مدينة همدان: والهدف الالتحام بالقوات البريطانية في بلاد ما بين النهرين.

بلغتنا أخبار عن أن القادة الأتراك كانوا يحضرون مجدداً لنقل العاصمة من القسطنطينية. تكرر ما حصل في ١٨ آذار ١٩١٥؛ كان الفرنسيون والبريطانيون يقرعون الباب مجدداً.

وللمرة الثانية حصل ما لم يكن متوقعاً، ومجدداً أخطأ الأتراك بشكر الله فيما كان عليهم أن يشكروا الدبلوماسية الفرنسية والإنكليزية.

مع إبداء القوات التركية مقاومة أقل فأقل، ومع تفاقم خسائرها إلى أرقام خيالية، قرر الفرنسيون والإنكليز فجأة إخلاء شبه جزيرة غاليبولي. وفي ليلتي ٨ و٩ كانون الثاني، استقلّت قوات العدو سفناً كانت تنتظرها وأبحرت بعيداً تاركة كميات كبيرة من المواد الحربية والغذائية وراءها.

وفوراً سُحِبت القوات كلها، باستثناء قوة بسيطة، من الدردنيل وعمد الأتراك إلى إعادة تنظيم الأفواج المشتتة للمساعدة في صد التهديد الروسي.

لنعد مجدداً إلى الجبهتين الفارسية والقوقازية لنرَ ما حصل بعدها.

أملت القوات التركية عند جبهة بلاد ما بين النهرين، الزاحفة شمالاً إلى الجبهة القوقازية، كسر الخط الروسي وإنقاذ بعض من المدن التركية الأكبر من الوقوع بأيدي الروس. لكن بحلول منتصف شباط، صُدَّت الهجمات التركية متكبدة خسائر ضخمة: قُتِل أكثر من ٤٠ ألف تركي وأُسِر حوالى ٢٠ ألفاً. في كل مكان كان الروس ينتصرون. ووقعت مدن فان وبدليس وموش المزدهرة في قبضتهم، إلى جانب بلدات محيطة كثيرة ومرفأ طرابزون، الأكبر على البحر الأسود. وفي اليوم الأخير من نيسان ١٩١٦، كان الروس على بعد ٤٤٥ ميلاً من القسطنطينية.

لكن الظروف عند الجبهة الفارسية اتخذت أولاً منحى غامضاً. فالقوات الروسية المندفعة عبر فارس إلى مدينة همدان بهدف الالتحام بالقوات البريطانية في بلاد ما بين النهرين، وجدت أن الإنكليز يبدون مترددين في التحرك. وفي هذه الأثناء، جلب الأتراك قوات احتياط من غاليبولي، وفي أواخر شهر أيار نجحوا في صد الروس.

لكن أين كان الجنرال البريطاني تاونشند ولواؤه المؤلف من ١٩ ألف رجل متمركزين في مدينة كوت العمارة؟ ولماذا لم يتحركوا لثلاثة أشهر؟ لا بد من أن الروس فكروا في هذه الأسئلة أيضاً.

قد يبدو الأمر غريباً وغير قابل للتصديق، لكن الجنرال تاونشند استسلم في ٢٩ نيسان ١٩١٦ لقوات تركية تساوي أقل من ثلث قوة قواته.

وفوجئ كبار قادة الألوية الأتراك باستسلامه إلى درجة أن الجنرال تاونشند اضطر إلى أن يشرح أن لواءه كان يحتل بلاد ما بين النهرين لهدف وحيد يتمثّل في حماية المصالح البريطانية في الهند وفارس من الأعداء الغرباء.

ولم يكن الأتراك المحتارون قد استوعبوا حظهم السعيد والملاحظة الأخيرة للجنرال حين حصل أمر أكثر غرابة ودهشة. عرض الجنرال تاونشند أن يدفع إلى الأتراك ٣٠٠ ألف جنيه إسترليني بريطاني إن نالت قواته حريتها في مقابل وعد علني بأنهم لن يزعجوا الأتراك في أي وقت أبداً عند جبهة بلاد ما بين النهرين أو أي جبهة أخرى.

كان مبلغاً كبيراً من المال، ولم يكن مذهلاً فحسب بل كان كذلك جذاباً للأتراك؛ لم يمنعهم من قبول رشوة فخمة كهذه سوى حضور حلفائهم ومستشاريهم الألمان. ولذلك استسلم لواء الجنرال تاونشند من دون شرط ومن دون مبرر وأصبح أفراده أسرى حرب. وقد لا يوازي الثمن الذي دفعه رجال ذلك اللواء البريطاني دماً وتعذيباً أي شيء آخر في حوليات التاريخ. لقد سجلت الدبلوماسية هدفاً جديداً لم يعش معظم الرجال الـ١٩ ألفاً ليروه.

أُرسِل الجنرال تاونشند إلى القسطنطينية وأُعطِي قصراً على البوسفور حيث وُضِع في الإقامة الجبرية، ولكن رجاله لم يحظوا بسعادة مماثلة.

قُسِم الرجال بداية وفق الجنسية ثم وفق الدين. وجُرِّد أكثر من ثلاثة آلاف منهم من ثيابهم وأُسيئَت معاملتهم وأُخضِعوا لكل نوع ممكن من الوحشية والإذلال البشري. قُتِل المئات فوراً. فقط ذوو الأصل الهندي أو أبناء المستعمرات البريطانية الذين كانوا يعتنقون الديانة المحمدية أُعطُوا بعض الاعتبار. حتى الضباط البريطانيون الـ٣٠٠ لم يكونوا محصّنين وأُخضِعوا للمئات من الأميال من المسيرات الإجبارية من دون طعام مناسب أو عناية طبية. لكن نسبة صغيرة جداً تمثلت في عدد من أفراد لواء الجنرال تاونشند وصلوا أحياء إلى قلب القسطنطينية وأسكي شهر.

وبعد عناء طويل من الاستسلام وبعثرة القوات، مررت عبر وادي بلاد ما بين النهرين في طريقي إلى الموصل. في دارا، العاصمة القديمة للملك داريوس، رأيت عظاماً وهياكل عظمية لـ٥٠٠ رجل على الأرجح. وأول حقيقة لاحظتها كانت أن الشعر عليها كلها كان بنّيّ اللون؛ كان واضحاً أن الهياكل العظمية لم تكن لأرمن ولا لأتراك.

لاحقاً عرفت من الأهالي ومن تبجح المسؤولين والضباط المحليين أن مئات من الجنود البريطانيين وربما أكثر، نُهِبوا وعُرُّوا وأُجبِروا على الدخول إلى الحفرة الضخمة حيث معظم الهياكل العظمية. ووُصِلت الحفرة بجدول فغُمِرت بمياهه وغرق الأسرى مثلما كان يحصل تماماً في زمن الملك داريوس الأول. سميتها هياكل عظمية، ولكن كثيراً منها كان لا يزال في مراحل مختلفة من التحلل. إن موت الأبطال حقاً غريب أحياناً.

الفصل السابع

سر الحرملك

بعد أشهر من القتال في شبه جزيرة غاليبولي، كانت فرقتنا على وشك الإبادة. وفي ١٤ كانون الثاني ١٩١٦، بدأ الناجون في شق طريق العودة إلى القسطنطينية لفترة وجيزة ليُعاد تنظيمهم فيها ويُجدَّد تجهيزهم. ووجب تدريب المئات من الرجال ليحلوا محل القتلى والجرحى. ولم تكن المهمة بسيطة وتطلبت أشهراً عدة. وأُعطِيت قيادة الكتيبة الأولى لمدفعية الاحتياط المتمركزة في رامي قشلة على ضفاف القرن الذهبي.

ونلت إجازة لأسبوع قبل أن أتولى قيادتي الجديدة.

كان الوقت قريباً من الظهيرة حين طفت في شوارع إسطنبول، لا أكاد أصبر على مرور بضع ساعات قبل أن أذهب إلى منزل محرّم. جميلة - بعد الظهيرة التي توفي فيها محرّم -و والداي - لماذا لم أسمع منهم؟ كانت أفكاري مزيجاً

من شكوك تنمو باستمرار، وآمال تضمحل، وأحزان مريرة. توقفت في مكتب التلغراف. أرسلت رسالة أخرى إلى والديّ وطلبت أن تُرسَل الإجابة إليّ في منزل الباشا.

فيما كنت أمشي بكسل، بدأت ألاحظ التغيير الكبير الذي كان قد طرأ على ذلك الحي المزدهر قبلاً. لم تعد النساء والأطفال يستعرضون أزياء معاصرة؛ كانت ثيابهم بائسة وبدت حتى وقفاتهم رثة ومتعبة. كانت المشقة والقلة قد بدأتا ترخيان ظلالهما. كنت أشهد على شعب على شفير الدمار. كانت صفوف المنتظرين أمام المخابز للحصول على حصصها اليومية من الخبز تضم أشخاصاً يعانون سوء التغذية بوضوح، فوجوههم كانت نحيلة وشاحبة ومريضة.

وبدا كل باب من اثنين مغطى حداداً. بدت إسطنبول، تلك البقعة الجميلة من مرمرة، كامرأة فقدت جمالها وسحرها بالمرض والحزن والتقدّم بالعمر.

وملأ الضباط الألمان الأسواق القليلة التي بقيت مفتوحة، يشترون المؤن المتوافرة كلها لعائلاتهم في وطنهم الأم.

وكانت أبسط الأغذية تباع بأسعار باهظة، وفي الأسواق، كانت الحاجات البسيطة تباع مقابل أغلى موجودات المنازل.

إن كان هذا وضع الطبقات الوسطى، فما بالنا بالفقراء الذين كانوا أكثر عدداً. وفي إحدى الأسواق التي تسكعت عبرها، سمعت الناس يتحدثون عن أطفال يموتون من سوء التغذية والمرض. وسمعت قصصاً عن عصابات من نساء يائسات تغير ليلاً لنهب متاجر الأغذية

أو المسافرين غير المتنبهين.

وملأ المتسولون الشوارع.

مشيت إلى حي السلطان بايزيد حيث اجتذبني مقهى أمين بك. عرفت أنه ملتقى للضباط الأتراك الكبار ورجال الدين المحمديين. وخطرت لي فكرة أن أدخل وأجلس لفترة، فقد أعرف شيئاً أكثر عن ظروف الداخل وأي تطورات جديدة حول الوضع الأرمني.

مشيت عبر القاعة الرئيسية ووصلت إلى حديقة صغيرة أنيقة في الخلف حيث كانت تجلس مجموعات عديدة من الضباط والمسؤولين الأتراك. ولم يكن صعباً فهم فحوى حديثهم. وفيما وقفت هناك أسترق النظر حولي، لاحظت طاولة يجلس عندها أربعة ضباط من ذوي الرتب العالية. وقررت أن أولي ميدالياتي الثقة لتبرير جرأتي، واقتربت منهم وأبديت ابتسامتي متملقاً، ثم ألقيت التحية التركية المعتادة: «السلام عليكم».

توقف الحديث فجأة فيما تفحّصوني. ولعبت ميدالياتي لعبتها. نهضوا وردوا معاً: «وَعليكم السلام».

أصبحوا وديين إلى حد كبير، وطلبوا مني الانضمام إليهم. وصرت واثقاً إلى حدٍ معقول بأنهم لم يشتبهوا بأصلي الأرمني.

لكنني شعرت من طريقة تركيز أعينهم الحادة عليّ بأنهم كانوا تواقين إلى معرفة بعض المعلومات الإضافية عني.

أشار أحد الضباط إلى أنني بدوت متعباً، وسأل آخر: من أين أتيت؟ وفيما

تناولت سيجارة، مال وأصر على الإمساك بعود ثقاب أمامي فيما تفحص ميدالياتي في شكل أقرب.

قلت لهم: «من الدردنيل حيث قاتلت الكفار».

واهتموا جميعاً وأرادوا أن يعرفوا إن كان للكفار جنود كثيرون، وما إن كانوا قد أنزلوا خسائر كبيرة في صفوفنا أم لا.

«ولا أي خسائر»، قلت كاذباً، «خصوصاً لأننا عرضنا البردة الشريفة لمحمد. فقدنا بعض الرجال، ولكن الكفار فقدوا رجالاً كثيرين».

لا شيء يضاهي كذبة من الطراز الرفيع وغير ملطفة في إسعاد أشخاص يفضلون سماعها على سماع الحقيقة.

وعاودوا الحديث بحرية. واتفق الجميع على أن الأتراك سيفوزون بالحرب قريباً، خصوصاً أن البلغار هُزِموا.

وقال أحدهم ملاحظاً: «ثمة أوقات يكون فيها حتى الكفار مفيدين، ولكن الأفضل دائماً اصطيادهم كالأرانب بدلاً من قبولهم كإخوة».

ولم يتكلموا ببلاغة إلا حين تحدثوا عن الأرمن. لقد مقتوا الأرمن ليس فقط بسبب دينهم بل كذلك بسبب تحكمهم بمعظم التجارة التركية. ولم يحبوا أن الأحد هو يومهم المقدس من الأسبوع بدلاً من الجمعة. لكن أكثر ما أزعجهم أن الأرمن الأغنياء كانوا أغنى من الأغنياء الأتراك. وتجاهلوا حقيقة أن قلة من باشاوات الأرمن وضباطهم كانوا بهذا الغنى.

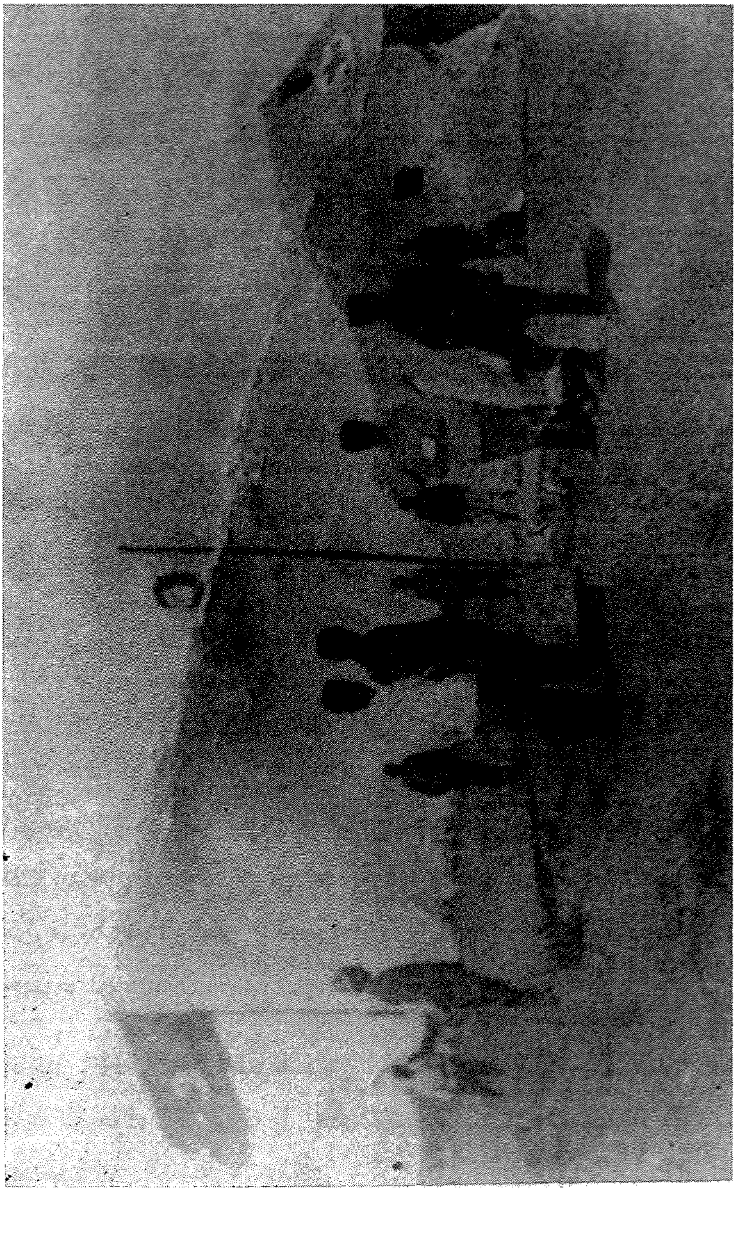

النقيب طوروسيان عند جبهة بلاد ما بين النهرين يتلقى إسعافات أولية في المستشفى الميداني إثر إصابة في يده.

وتجلى اطمئنانهم الحقيقي حين ناقشوا التدابير التي أطلقها الحزب الحاكم؛ خطة مذهلة ولا تُصدَّق كما بدت، للقضاء على العرق الأرمني في تركيا. وبالنسبة إلى شخص غير متآلف مع حماوة تعصبهم، كان هذا الحديث ليبدو كحلم مجنون. وما أقلقني أكثر من كل شيء آخر كانت ثقتهم الكاملة في أن الحكومة وضعت في الولايات كلها مسؤولين بمثابة عملاء خاصين قادرين ومصممين على تنفيذ هذه الخطة المروعة.

استأذنت بعبارات شائعة قليلة تتعلق بفوجي وعدت إلى الشارع، قلقاً على والديّ أكثر من أي وقت مضى.

كانت العربات قليلة فعدت إلى ديركلر أراسي، وهو موقع عسكري قريب كنت قد تركت فيه حصاني برعاية مرافقي.

لم أشعر بأنني كنت رجلاً محظوظاً حين امتطيت حصاني باتجاه قصر الباشا.

وإذ ترجلت داخل أبواب القصر كان قلبي مثقلاً. وجعل مشهد الأشجار التي أسقطت عنها أوراقها الطريق الطويلة إلى القصر تبدو كالسبيل المهجور إلى ضريح، حيث الحديقة الشتائية الكئيبة والحداد الموحش الذي لف المدخل الضخم. في ميدان المعركة، بدا الموت نافراً وعنيفاً، لكنه كان مألوفاً جداً فقبله العقل باعتباره القسوة الملونة للأيام، ولكن هنا بعيداً عن خطوط الموت، كان ثمة رفيق متجهم له يجلّد القلب.

أدخلني خصي [ميّزه المؤلف من لباسه المميز - المترجم] متين البنية إلى قاعة الدخول الكبرى ثم إلى حضرة شخص ذابل ملفوف بالأسود عرفت بصعوبة أنه والدة محرّم. عانقتني وبكت بين ذراعيّ فيما حاولت أن أعزيها.

سألت عن الباشا وبدت أنها ستجيبني بانهيارها. ساعدتها لتصل إلى أريكة فيما استدعى الخدم فريدة وجميلة.

ربما كان أفضل لو أن الخصي لم يستدعِ الفتاتين، فكل ما استطاعتا فعله كان الركوع عند قدمي أمهما والانضمام إلى نحيبها. كنت في موقع يشعر فيه حتى البطل بانعدام الحيلة؛ أعتقد بأنني قلت سابقاً إنني لست ببطل.

أخيراً تمكنت الآنستان من التماسك. أولاً فريدة ثم جميلة -. قبّلت يديهما.

التقت عينا جميلة بعينيّ ورأيت في أناقتهما السوداء التوقَ الذي جعل قلبي ينبض أسرع قليلاً.

في هدوء لم يكسره سوى صوتي الذي بدا خشناً وصائحاً، كان عليّ أن أروي الأحداث المحيطة بوفاة صديقي ولم تكن مهمة سعيدة. لم يتحدث أحد حين انتهيت؛ جلسن هناك في مجموعة متماسكة في مكان بدا للمرة الأولى عقيماً وفارغاً. اختفت السجادات العجمية والمفروشات الرائعة. ولم يعد من طاولات مطعمة لا تُقدَّر بثمن، ولا لوحات جميلة؛ لم يعد حتى من مزهرية. كانت ثمة أرائك قليلة ومقاعد عثمانية أمامها متفرقة في الغرفة التي أصبحت شاسعة أكثر من المعتاد.

وبعد وقت عرفت أنهم اضطروا إلى التخلي عن معظم مقتنياتهم الثمينة وأفقروا أنفسهم لسداد ما يفرض عليهم من القروض الحكومية المستمرة التي شعرت زوجة الباشا بأنها غير ذات قيمة. وهاجمت الحكومة بحدة.

قالت: «عانينا وتحملنا حتى أخذوا محرّم. ثم أصبح الباشا قانطاً ولم يعد في

مقدوره تحمل هذا القصر. الحدائق، الأشجار، الممرات القديمة المألوفة، كلها فاحت بذكريات عن محرّم».

وأضافت «كان يمضي ساعات كل مرة في مكتبه. كان حزيناً إلى درجة أنه رغب في مغادرة إسطنبول فوراً وتدبر أمر الذهاب إلى شبه الجزيرة العربية حيث يُفترَض أن يستخدم نفوذه في ضمان تأييد الزعماء العرب الجانب التركي. وخلال أسبوعين سنغادر فهو يرغب في أن نلحق به».

لا بد من أنني بدوت غبياً جداً حين بحلقت من دون حيلة في الفراغ.

ما الذي كان يحصل لعالمي الشخصي الصغير؟ سألت نفسي بغموض. صديقي مات، مصير والديّ مشكوك فيه، انفصالي عن حبيبتي لأشهر، وربما سنوات، سأفقد فجأة أصدقائي الأعزاء أكثر من غيرهم، شعرت بأنني بقعة ضائعة في فوضى أشخاص غرباء. بعد وقت قصير سأصبح بلا هدف.

أخرجتني والدة محرّم من ذهولي البادي حين سألتني إن كنت سمعت عن والديّ. حين قلت لها إنني لم أسمع عنهما منذ شهرين، نسيت حزنها في جهدها لتعزيتي. حضتني على ألّا أقلق لأنها كانت واثقة بأن سجلي العسكري سينقذهما، خصوصاً أن مرسوماً صدر بحماية عائلات الضباط المسيحيين الموالين من الذبح أو الترحيل.

وحلّ آخر بعد الظهيرة علينا ولم تكن قد سنحت لي لحظة لأهمس حتى كلمة واحدة إلى جميلة وحدها. نهضت لأغادر، ولكنهم رفضوا حتى البحث في الأمر. يجب أن أمضي ليلة على الأقل في قصرهم وأشاركهم وحدتهم، ففي

عالم الحرب بدت الوحدة الأمر الوحيد الباقي للنساء.

وقلت في نفسي إنه الأمر الوحيد الباقي لبعض الرجال.

قبل العشاء، تمكنت من أن أهمس لجميلة: «منزل قره بيت، الجمعة، الساعة الثانية».

في اليوم التالي جلت للمرة الأخيرة في الحديقة التي عرّاها الشتاء، وجلست وحدي قرب المقعد القريب من البركة.

مرت الأيام الثلاثة التالية بطيئة، وبدا كل منها بطول الأبد، وحملت كل دقيقة آلاف الثواني، وحمل في كل يوم آلاف الدقائق. أخيراً وصلت رسالة يُفترَض أنها من والدتي، تقول إن الجميع كانوا بأمان وفي وضع جيد. لكن التوقيع أثار شبهتي؛ كان يقول «السيدة فارتوهي طوروسيان»، فيما والدتي كانت دائماً توقع برقياتها: «فارتيه طوروسيان».

كنت بعيداً عن الاقتناع بأن البرقية حقيقية، فكتبت فوراً رسالتين إلى أمي، وأرسلت الاثنتين بالبريد الخاص ولكن في ساعات مختلفة من بعد الظهيرة. ستتطلب الإجابة أسبوعين.

الجمعة التقيت بجميلة في منزل قره بيت، وغادرنا فوراً إلى ضاحية صغيرة اسمها ماقريكوي على ضفاف مرمرة.

كان يوماً معتدلاً من أيام الشتاء، وتمشينا على الشاطئ الفارغ حتى وصلنا إلى بيت صغير. جلسنا في العزلة وضممتها إلى قلبي وقبلتها.

فجأة بدت قصة محرّم مجرد لفتة محمومة من صديق مخلص. لم تبدُ صحتها ممكنة، ولكنني شعرت بأنها كذلك.

لم أكن شخصاً رومانسياً، وأتساءل أحياناً إن كنت أعبّر عن الحب بتصلب. أظن أنني كنت فظاً.

قبلتها وفعلت شيئاً لم أفعله قبلاً. رفعت الكمين المتدفقين اللذين غطيا ذراعيها. أتذكر الأشباح المذعورة التي تحدثت من خلال عينيها. قدمت شفتيها إليّ مجدداً وانخفضت رموشها.

سألتها بقلق: «هل لديك ندبة قبيحة على ذراعك اليسرى؟».

بدت مندهشة.

قالت: «نعم، ولكن كيف استطعت أن تعرف؟» كان كما قال لي محرّم، شكلاً باهتاً لصليب تحت لحمها المتجعد.

لخبطت كلماتي في اندفاعي إلى أخبارها السر الذي كشفه محرّم لي. أردتها أن تكون سعيدة إلى الأبد، وعرفت أن قلقها الأكبر كان مصدره إسلامها وأنها لن تنال الإذن بالزواج من مسيحي. تعثرت الكلمات على لساني وضحِكَت من سعادتها بالكلمات.

كانت عيناها مشرقتين جداً ووجهاً دافئاً جداً وكسته الحمرة.

بقينا هناك حتى الغروب وبدأت تسعل. نصحتها أن تحذر ووبختها لأنها التقطت الزكام.

قالت إن الزكام لم يكن طارئاً بل هو قديم، ويرغب في البقاء معها مثلما ترغب في البقاء معي.

كانت هادئة في طريق عودتها إلى منزل قرة بيت، وكذلك أنا، وبدأت تبكي وترجوني أن أبقى معها بطريقة ما. وبدت خائفة من أننا فور افتراقنا لن نرى بعضنا بعضاً مجدداً. وتحدثت عن هاجس غريب لديها وعن أخطار الحرب.

أردتها أكثر من أي شيء آخر على وجه الأرض، ولكنني لاحظت كم الأمر مستحيل، وكذلك فعلت هي.

تحدثنا عن أن الحب لا يموت وتعاهدنا على الوفاء إلى الأبد. وبدأت تسعل مجدداً ووضعت معطفي على كتفيها.

كانت الرحلة طويلة جداً، فالعربة التي تمكنت من استئجارها كان يقودها حصان مسنّ جداً. كانت رحلة طويلة وسعيدة من الحب والمخططات والتصورات المستقبلية.

كانت هذه آخر إجازة لنا معاً.

في الصباح التالي، انتهت إجازتي.

بعد أسبوع، غادرت زوجة الباشا وابنتاه إلى شبه الجزيرة العربية، وذهبت إلى محطة حيدر باشا لأودعهن.

حضرت مجموعة كبيرة من الأصدقاء والأقارب لوداعهن، فوقفت جانباً.

رأتني جميلة ولوّحت لي، وقبل أن أعي الأمر، كانت بين ذراعيّ وكنت أقبّلها. وما إن قبلتها حتى تساءلت عمّا سيحصل لها، فثمة سيدات تركيات من الطبقة الاجتماعية الأعلى كن حاضرات، وكن ملتزمات بشدة بتقاليد طبقتهن. لكن الحرب والفراق يمكن أن يجعلا النبلاء متسامحين.

ثم عانقتني زوجة الباشا وفريدة ودعتا الله الأكبر وروح محرّم أن يحمياني.

وانطلقت صافرة، وسُمِع ضجيج وضوضاء، وتحركت عربات ولوحت مناديل، ثم لم يبقَ لي سوى وحدة كاملة ومستنفِدة إلى درجة أن العالم بدا متاهة مهجورة تتحرك فيها ظلال الناس وأنا أقف وحيداً.

الفصل الثامن

مصير والديّ الحزين

كانت تلك الأيام أيام ذعر كبير لم يبق فيها وقت للحزن. كانت أياماً مضنية. من الصباح إلى المساء، نشاط صاخب وانشغال وتدريب مجنّدين جدد في ظروف معاكسة.

وصلت مجموعة من الفلاحين المراهقين الأتراك، وكان علينا أن نعلّمهم خلال ستة أسابيع أسس الخدمة العسكرية ونضعهم في أكثر برامج التدريب كثافة ليُرسَلوا إلى الأفواه التي لا تشبع لجبهات القتال. وكنت أدهش أحياناً كيف استطعنا أن نعلمهم أصلاً، فلغيّاب التعليم، بدوا ذوي عقول بطيئة.

كانوا قد تعلموا أمراً واحداً هو إيمان وقبول كاملان في مواجهة المصير الذي كتبه الله لهم. وشعرت بأن من حظنا نحن الضباط أنهم امتلكوا هذا الإيمان، فمن دونه ما كانوا قط ليتحملوا بتبلد حظهم الذي لا يُحتمَل.

كان حظهم سيئاً، إذ كانت الحياة في الثكنة حياة قذارة مستحيلة، فالنظافة كانت غير معروفة؛ وكان الطعام غير الكافي يُقدَّم من مطابخ بالقذارة وسوء الإدارة نفسيهما.

لدى حلول وقت الغداء، كانوا يصبحون أفضل قليلاً من الوحوش. كانت حصصهم اليومية تتألف من ربع رطل إنكليزي [حوالى ١١٣ غراماً] من اللحم، وست أوقيات إنكليزية [حوالى ١٧٠ غراماً] من الرز ورطلين ونصف رطل إنكليزي من الخبز لكل رجل، وكانت النتيجة أنهم كانوا دائماً جياعاً. وحين كان ناقوس العشاء يدق، يدور سباق على مكان في أرضية الثكنة. وكانت كل مجموعة من ثمانية يجلسون في حلقة وهم يحملون ملاعق خشبية مرفوعة في الهواء كأنها تنتظر شحنة كهربائية. وكانت دلاء بحجم ١٠ كوارتات [حوالى ١٠ ليترات] من الحساء المخفف وفيه قطعة صغيرة من اللحم المسلوق تُوضَع في مركز كل دائرة من عرفاء يعمدون لاحقاً إلى تقطيع اللحم إلى تسع قطع. ثم تُعطى إشارة البدء ويغمس كل واحد ملعقته بشره في الدلو ويحاول ابتلاع أكبر كمية ممكنة من السائل. وينتهي العشاء بأصابع ملطخة بالدهن وملاعق ممسوحة بثنيات البزات ويُشكَر الله.

كان أجر الواحد منهم ٢٠ سنتاً شهرياً.

وفيما كانوا ينخرطون في العمل يوماً بعد يوم، كنت أنتظر خبراً من أمي يوماً بعد يوم أيضاً.

حوالى منتصف شباط، لم أعد أستطيع أن أضبط قلقي واضطرابي، فطلبت من وزارة الحرب مساعدة لمعرفة مصير شعبي. لم أكن قد تلقيت أي ردود

النقيب طوروسيان يلتقي بشقيقته في الصحراء قرب تل حلف

على الرسالتين اللتين أرسلتهما بالبريد الخاص ولم تصلني ردود على برقياتي الأسبوعية.

استقبلني سكرتير أنور باشا، وبعد سماع قصتي أرسل برقية إلى قائمقام إفيريك طالباً منه أن يُعلِم وزارة الحرب فوراً بمكان عائلة النقيب طوروسيان. وكان السكرتير مهتماً بصدق وطلب مني العودة بعد يومين قائلاً إن إجابة ستكون وصلت إليه.

حين عدت بعد يومين، تمكنت من أن أرى في وجهه أن الأخبار كانت كما توقعت. سمح لي أن أقرأ البرقية الموقعة من زكي، قائمقام إفيريك، والموجهة إلى وزير الحرب. أورد أن عائلة سركيس بك طوروسيان، النقيب في مدفعية جيش مولانا، رُحِّلت خطأً وأنه يعمل على معرفة مكانهم وإعادتهم سالمين إلى منزلهم.

كان شعوري مزيجاً من الغضب والعجز! ورجوت السكرتير أن يأخذ المسألة على عاتقه ويحاول العثور عليهم. أرسل برقيات كثيرة إلى النقاط الموجودة في أثر المرحّلين الأرمن ودعاني إلى العودة بحلول نهاية الأسبوع.

أسبوعاً بعد أسبوع عدت إلى وزارة الحرب، وكل مرة كنت أعود أكثر بؤساً وتعاسة. لم يكن ممكناً ببساطة أن تكون أمي وأبي يترنحان تحت سياط المجرمين والمنحرفين المفرج عنهم من السجون لهذا الغرض. ربما خرّ أبي صريعاً إلى جانب الطريق، جيفة للنسور.

أخيراً وخلال إحدى الإجازات، قمت بجولة في إحدى مقاطعات اسطنبول، حيث كان بعض القائمين من إفيريك يزاولون التجارة. وأسرّ

لي أحدهم بأن عائلة أرمنية من إفيريك وصلت إلى المدينة الليلة السابقة وكانت تختبئ داخل بيت في شارع قريب.

وجدت العنوان وطرقت الباب تكراراً، ولكن أحداً لم يرد. ظننت أنني رأيت ستارة تُزاح، وتحدثت بالأرمنية طالباً الدخول. أطلّت عجوز مذعورة. سألتها أن تفتح الباب فما من شيء يستدعي الخوف، ولكنها ظلت مترددة، وبدت قلقة من بزتي. أظن أن تصديقها عينيها كان مستحيلاً - أن أرمنياً بزي ضابط تركي كان يقف أمامها. لكن حين سمعت الاسم: طوروسيان أدخلتني فهي كانت تعرف عائلتي في إفيريك.

قادتني إلى علية في الطبقة العليا وفتحت ما بدا باب خزانة ونادت بهدوء: «غريغور».

فتح باب في خلفية الخزانة ببطء وأطلّ وجه رجل ينظر بحذر.

شرحت غايتي، فخرج وعانقني لفرحه الكبير، على ما أعتقد، لأنه لم يقع في أيدي الأتراك.

لاحقاً، جلسنا معاً على سرير نقال في العلية الحقيرة، وأخبرني قصة إفيريك. كان وجهه، الذي كان لا يزال فتياً، مجعداً وهزيلاً، وحملت عيناه نظرة رجل مسكون. سأنقل حديثه وفق تذكري لكلماته:

في وقت مبكر يعود إلى ٦ حزيران ١٩١٥، بدأت الأعمال الوحشية في إفيريك. أُجبِر جميع الأرمن الأقوياء على السير لأميال كثيرة إلى خارج المدينة، على افتراض أنهم يتجهون إلى

بناء طرق وجسور للجيش. لكن بدلاً من ذلك، أُطلِقت النار عليهم وقُتِلوا، ورُمِيت جثثهم في الغابات المحيطة.

ثم أُخرِجت النساء والأطفال من منازلهم ونُقِلوا إلى أماكن مجهولة؛ علمنا بأن أغلبيتهم ماتوا من الجوع وبفعل عوامل الطبيعة القاسية فيما مشوا مرهقين يوماً بعد يوم على طرق جبلية. في ذلك الوقت، أيها النقيب، لم يتعرض والداك لإزعاج، لأنك ضابط في الجيش التركي.

لحسن الحظ أنني فررت ولجأت إلى منزل صديق تركي نافذ في قرية مجاورة. ومن نافذة علية، شاهدت الخروج الجماعي المحزن، حين مشى المئات من الشبان الأصحاء والنشيطين عبر الطرق وسط حراسة مشددة.

تحت جنح ظلام تلك الليلة، عدت إلى منزلنا ووجدت زوجتي وطفلي مختبئين في حفرة في القبو الأسفل لمنزلنا. كانا مذعورَين ومريضَين بسبب ساعات من الاحتجاز في هواء فاسد. حملتهما إلى أعلى وأنعشتهما.

فكرت في طريقة أخرجهما بها بأمان من إفيريك.

عدت إلى منزل التركي الذي يحميني وطلبت منه مساعدة ونصحاً إضافيَّين. كان خائفاً من السلطات ولكنه رغب في أن يكون طيباً، فوافق على إرسال أحد خدمه إلى منزلي في اليوم التالي لإنقاذ زوجتي وطفلي. وكان على الخادم حمل الرداء

والحجاب التركيَّين لزوجتي وثوب تركي مناسب لطفلي.

وفى بوعده وتمكنت عائلتي من العبور عبر مداخل المدينة من دون أن يلاحظ أحد.

لثمانية أسابيع، عشت مع هذه العائلة وكسبت عيشي ببيع خيوط القطن والحرير ومعدات أخرى للخياطة في القرى المجاورة.

لكن سرعان ما بدأ صديقي التركي يبدي علامات قلق واضطراب ولمّح إلى أن الله الأكبر كان غاضباً منه لإيواء مسيحي تحت سقفه. وقررت القيام بزيارة سرية أخرى إلى إفيريك لأرى إن كانت الأوضاع قد استقرت في شكل كافٍ بما يسمح بعودتنا سالمين.

لم أجد سوى الذعر والخوف والضياع. كانت المئات من العائلات في القسم الشمالي من المدينة قد أُخرِجت بالقوة من منازلها ورُحِّلت.

في ذلك الوقت، التقيت بوالديك وتحدثت إليهما، وكانا يحاولان بيأس الدفاع عن نفسيهما في وجه اضطهاد القائمقام زكي. ولأنك كنت معروفاً كضابط في الجيش التركي، كانت حالة والديك معروفة كثيراً للجميع.

كان زكي يرسل عملاءه يومياً إلى منزلهما ويهددهما بالترحيل إن لم يقبلوا بالإسلام وبتزويج شقيقتك الصغرى إلى ابن قريبه.

كان اضطهاداً متعمداً، فهو كان يعرف أن المسيحيين المسنين لا يمكن أن يغيروا دينهم وتقاليدهم ومعتقدات حياتهم التي كبروا عليها.

ورفض باستمرار تسليم رسائلك إليهما، وحين ذهبت أمك إلى مكتبه للاحتجاج، عاملها بالطريقة الأحقر. نصحها بألّا تؤمن بابنها الضابط لأنه قد يُقتَل في أي يوم. ومرة غضب وجعل الحراس يرمونها في الشارع. وكان والدك، طبعاً، أكثر يأساً، فهو لم يعرف متى سيقتلونه، فتبقى والدتك وشقيقتك لوحدهما تحت رحمة زكي الوحش، كما كنا نسميه.

هذا كل ما أعرفه عن والديك وشقيقتك، فصديقي التركي كان يستمع إلى خطبة للإمام الذي انتقد بغضب واستنكار جميع الأتراك الذين كانوا يصادقون أرمناً وهددهم بخسارة الجنة، ولذلك وجبت عليّ المغادرة.

حين تركت غريغور بعدما شكرته كصديق وأعطيته ما استطعت إعطاءه من مال، سارعت إلى معسكرنا وقضيت المساء أكتب طلباً إلى وزير الحرب مستنكراً فيه عمل قائمقام إفيريك. ورويت خدماتي في الجيش التركي، وتنازلت له عن أي أوسمة، وتضرعت له أن يُبطَل أي سوء لحق بوالدي فوراً.

بعد يومين، استُدعيت إلى وزارة الحرب. استقبلني سكرتير أنور باشا مجدداً وأكد لي قلقه. وأراني رسالة كان قد ألحقها بطلبي. كانت موجهة

إلى طلعت باشا، وزير الداخلية، وموقعة من أنور باشا. وأبلغت الرسالة معالي طلعت باشا أن وزارة الحرب سمعت بقلق كبير أن زكي، قائمقام إفيريك، اضهد عمداً عائلة النقيب طوروسيان ورحّلها خلافاً للقوانين القائمة. وطلبت معاقبة القائمقام والعثور على عائلة النقيب طوروسيان ونقلها إلى القسطنطينية.

ووضع السكرتير الوثيقتين في مغلف وأمرني بأخذهما إلى وزارة الداخلية وتسليمهما شخصياً إن أمكن إلى طلعت باشا.

أفترضُ أن قلقي كان بادياً لسكرتير طلعت باشا، حين اصطُحِبت أخيراً إلى حضرة السكرتير عبر خط لا ينتهي من الحراس والعملاء الخاصين. وربما فضحت نبرة صوتي الكره الذي اعتمل في داخلي والغضب من انعدام حيلتي. رأيته ينظر باتجاه قراب مسدسي.

قال لي إن معالي طلعت باشا كان في اجتماع ولكنني إن كشفت طبيعة زيارتي فقد يستطيع أن يساعدني. أظن أنه كان قلقاً مثلي.

أبلغته أن من المهم أن أسلّم الأوراق إلى معاليه شخصياً.

قال بتعالٍ: «آسف، ولكن هذا مستحيل. لا يرى الباشا أحداً إلا بموعد».

لاحقاً شعرت بأن قلبي، ربما لأن عدم نيلي مقابلة خاصة كان سبباً إضافياً، كانت تعتصره المرارة كثيراً، وبدأت أفكاري تتحول مجدداً إلى الانتقام.

حين غادرت مبنى وزارة الداخلية، عرفت أنني لا يمكن أن أتوقع منهم مساعدة كبيرة.

كان القانون، وفق الأحكام العرفية، ينص على استثناء عائلات الجنود غير المسلمين من الاضطهاد. لكن طلعت باشا أهمل هذا القانون، إلى درجة التسبب بكراهية بينه وبين أنور باشا. فمن وقف في طريق طلعت باشا، قُتِل علناً أو سراً.

في صباح أحد الأيام وفيما كنت أتفقد الجنود الذين كانوا يتدربون في رامي قشلة بحضور كثيرين من المتفرجين، اقتربت مني امرأة، وعيناها دامعتان وقلقة وحزينة، وقالت بالتركية بصوت يُرثى له: «أيها الضابط العزيز، أنا امرأة أرمنية من أنقرة. اسمي آنيك. قبل حوالى ثلاثة أشهر، أخذ الأتراك زوجي لتشغيله في بناء طريق، ولم أعرف عنه شيئاً منذئذ. وفي كل يوم تأتي الشرطة إلى بيتي وتهينني وتضربني. أعطيهم كميات قليلة من المال، ثم يرحلون. والأمر يحصل منذ أيام كثيرة، وقررت أن أجد طريقة لإنقاذ نفسي من هذه الأعمال الشنيعة».

رثيت لحالها بصفتي أرمنياً. ذهبت إلى المقر العام وحصلت على شهادة من القائد أحمد بك. سر الأمرُ المرأة كثيراً، ودعتني إلى العشاء في مساء يوم الجمعة التالي.

يوم الجمعة ذلك، ذهبت إلى العنوان، الرقم ٥، زقاق دمير كابان، بايوغلو (بيرا)، وهي شقة تملكها السيدة صوفي، اليونانية العجوز التي كانت تشغل غرفاً كثيرة في الطبقة الأولى وتعمل أيضاً مشرفة على السكن. خلعت سيفي ومسدسي وحزامي وأعطيتها إلى السيدة صوفي التي نادت السيدة آنيك، وانتقلنا لاحقاً إلى الطبقة الرابعة التي تقطنها السيدة آنيك. كانت الشقة مفروشة في شكل رائع، وكان كل شيء مرتباً ونظيفاً. وعبقت في المكان رائحة

العطور العربية، التي كانت تستخدمها أيضاً أغلبية النساء التركيات. ولم يكن أحد حاضراً غيرنا أنا والسيدة آنيك. وسرعان ما بدأت تتحدث عن مشاكلها.

عند حوالى الساعة الثامنة، عرضت عليّ نبيذاً، ولكنني رفضت. وجهز العشاء عند الساعة الثامنة والنصف، وألحّت عليّ أن أشرب قليلاً قبل العشاء. شربت كأسين فقط. وبعد العشاء مباشرة وفيما كنت أشرب القهوة التركية، سمعت بعض الأصوات البشرية الهائجة. وإذ اشتبهت بالأمر، فتحت باب الشقة وركضت باتجاه الممر. كانت الأصوات تأتي من أسفل بيت الدرج، وسمعت أحدهم يصيح: «ثمة كافر مجنون فوق وسنقضي عليه».

كانت الساعة تحديداً التاسعة.

عدت إلى الغرفة بسرعة، وتناولت سكيناً كبيرة وخرجت راكضاً مجدداً. في هذه الأثناء، كان الحشد يصعد الدرج.

حملت السيدة آنيك مصباح زيت في يديها. ضربت المصباح فوقع على الأرض وتحطم. دفعتها مجدداً إلى الغرفة، وأقفلت الباب وهرعت خارجاً. كان يمكنني أن أنقذ نفسي لو كان مسدسي وسيفي معي، وتقت إلى النزول للنيل منهم، ولكن لم تكن من إمكانية لذلك، فقفزت، ضارباً ضوء الممر، فأغرقتهم في الظلام. وفي الفوضى، بدأوا يضربون بعضهم بعضاً، إذ ظنوا أنني في ما بينهم. وفي الوقت نفسه، صاح كثيرون منهم: «لم يؤثر السم في الكافر، فلنفر».

كانت هذه خطة السيدة آنيك لقتلي. وعرفت أن من المستحيل أن أنزل إلى الطبقة الثانية، فالبعض كان ينتظرني هناك. ركضت على الدرج صعوداً ووصلت إلى

السطح. شعرت بإعياء ودوار، وبدأت بالاستفراغ. وبعدما جلست قرب المدخنة لـ١٥ أو ٢٠ دقيقة، بحثت عن طريقة للفرار من هذا الفخ.

كان سقف الشقة الملاصقة أدنى بطبقة. قفزت، وخلعت باب العلية ودخلت. كان الظلم دامساً حوالى المكان. أضأت أعواد ثقاب وعثرت على بيت الدرج.

في الطبقة الثانية، رأيت ضوءاً عبر أحد الأقفال. نظرت من فتحة القفل ووجدت شابة مستلقية في سريرها تقرأ، فيما أمها تحيك قربها.

فتحت الباب وجريت إلى الداخل. وبدأت الشابة وأمها، المرعوبتان، تصيحان. قلت لهما: «لا تصيحا، فما من خطر عليكما إن بقيتما هادئتين». وشرحت ما حصل، ورجوت هذه السيدة أن تجلب سيفي ومسدسي من شقة السيدة صوفي وأن تطلب منها ألّا تفصح عن مكاني.

بعد خمسة دقائق، جلبتهما إليّ وقالت إن ثمة أكثر من ١٠ دركيين وشرطيين يفتشون الشقق فوق.

خرجت من الباب الخلفي وقطعت حوالى صف من المباني لأصل إلى الشارع الرئيسي، حيث أخذت عربة ومضيت مباشرة إلى رامي قشلة.

في وقت مبكر من الصباح التالي، ذهبت إلى وزارة الحرب ورويت الحادثة لرضا بك. وذهبنا معاً إلى مكتب سكرتير أنور باشا. أقنعاني بالذهاب إلى المقر العام للحصول على عناية طبية، وأن أراهما في مساء اليوم التالي في كازينو بايوغلو (بار بيرا).

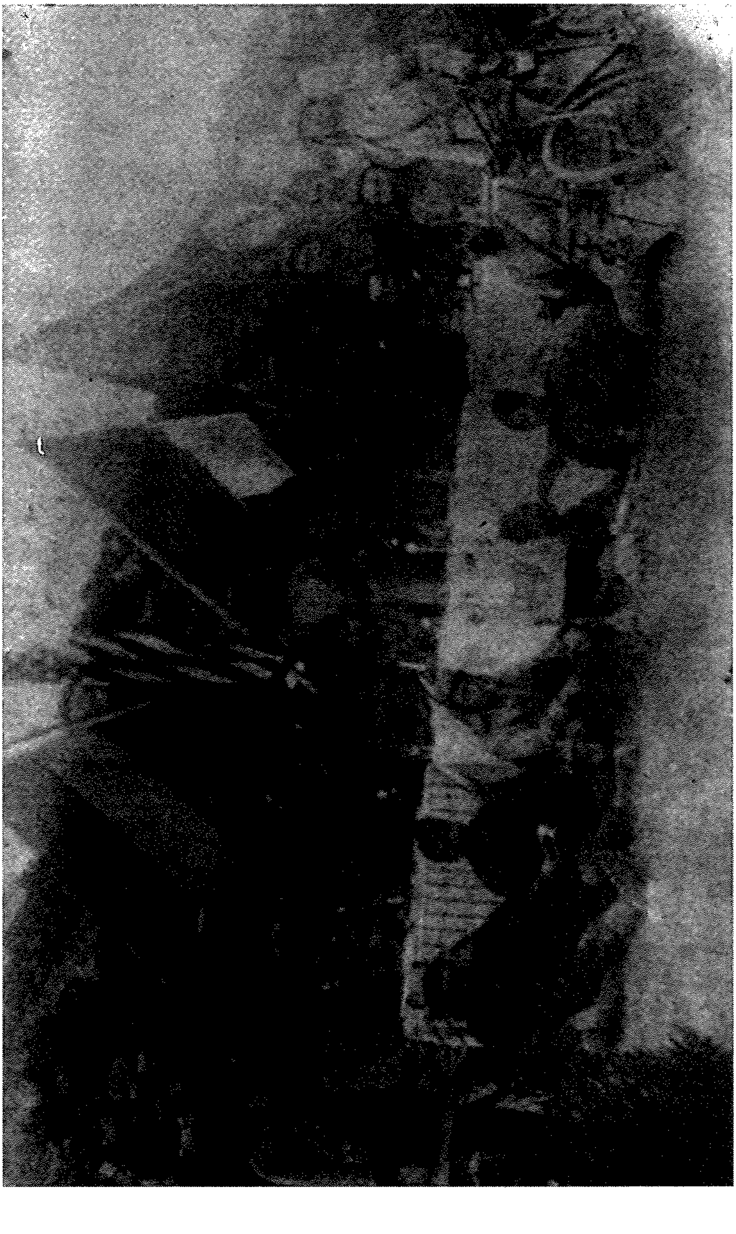

مجموعة من المتطوعين الأرمن من أميركا يؤدون الخدمة مع الفرنسيين بقيادة الجنرال أللنبي. يلاحظ العلم الأميركي مرفوعاً في وسطهم. وثمة شقيقان للنقيب طوروسيان من ضمن المجموعة

في مساء اليوم التالي، ذهبت إلى كازينو بايوغلو حيث وجدت هذه المجموعة شبه سكارى: ضياء بك وعاصي بك وعلي بك وخمسة آخرين. دعوني إلى الشرب، وشرحوا لاحقاً أن التحقيقات بينت أن أربعة أشخاص جُرِحوا خلال النزاع، وأن العمل خطط له طلعت باشا، عبر إحدى عشيقاته، فخرية هانم، لقتلي ورمي جثتي سراً في البحر. (وفخرية هانم هذه كانت أيضاً من الطغاة وعملت على قطع الشريان الرئيسي في ذراع ولي العهد التركي يوسف عز الدين).

في الثكنة، أمضيت ساعات أكتب رسالة إلى أخويّ في أميركا أخبرتهما فيها عن خطة الحكومة لاجتثاث الكتلة السكانية الأرمنية إن استطاعت. وأخبرتهما عن عقم جهودي للعثور على عائلتي. وأبديت رأيي بأني لم أكن أرى الأتراك قادرين على الصمود أكثر إن لم يتخلَّ الحلفاء عن الجبهة التركية تماماً كما بدا لي. وأكدت لهما أن الحلفاء لن يفعلوا ذلك، في رأيي، بل سيزعجون الأتراك من الجهات كلها ويضغطون عليهم ولكنهم لن يستولوا على القسطنطينية أبداً. وقلت إنني أعتقد بأن حالات ذعر ستدب في وزارتي الخارجية في إنكلترا وفرنسا إن حصل هذا الأمر. واقترحت أن يخبرا جميع الأرمن في أميركا عن الظروف الحقيقية لمواطنيهم في تركيا وأن تُبذَل جهود لتنظيم فيلق أرمني من المتطوعين يعود لإنقاذ شعبنا.

بالنسبة إلى شخص في موقعي، كانت من قبيل المجازفة كتابة رسالة كهذه، ليس فقط لأنها قد تؤدي إلى محاكمة عسكرية لي في حال عُثِر عليها، بل كذلك لما بدا غياباً لأقل فرصة لوصولها إلى أخويّ.

ومثّلت السفارة الأميركية أملي الوحيد. خلال الإجازة التالية، ذهبت إلى منزل قرة بيت، واستبدلت ببزتي العسكرية ثياباً مدنية، ومشيت إلى السفارة. كانت القاعة تغص بمواطني الدول الحليفة، وبدوا جميعاً يبحثون عن مساعدة من السفارة الأميركية في مسألة إغاثة شعبهم. قابلت مترجماً أميركياً وعرضت أمنياتي وأخبرته عن علاقاتي العسكرية وخسارة شعبي. وأبدى اهتماماً وتعاطفاً عميقين، ووعد بأن يعمل على وصول رسالتي إلى أميركا من دون أن تقع في أيدٍ تركية.

الفصل التاسع

الجبهتان المقدونية والرومانية

طوال الصيف والخريف، عملت بجد ومن دون توقف في قضية لم تعد تستقطب ولائي. لم يعد ثمة شيء آخر أفعله، كما بدا، واستحوذ الأمر على تفكيري. لكنني فكرت أكثر وأكثير بالانتقام، غير أن أفكاري جالت في حلقة مفرغة بدا أن لا فرار منها. وكان أملي الوحيد أن أراقب الضعف المستمر لقوى المحور وحلفائها. ربما يحين الوقت فأتمكن من أن أسدد الحساب للأتراك باسم أفراد عائلتي القتلى، فقد كنت مقتنعاً بأنهم ماتوا؛ ولم تصل أخبار من وزارة الحرب.

كانت تركيا تعاني خسائر فادحة في الرجال وتخضع في الوقت نفسه لضغوط ثقيلة من الألمان. في أيلول ١٩١٦، أُجبِرت تركيا على إرسال جيش من ١٠٠ ألف رجل إلى البلقان.

وبدأت ألمانيا تنوء بحمل ندرة المواد الغذائية نتيجة حصار الحلفاء وراحت تنقل أغذية من داخل آسيا. وكانت النمسا – هنغاريا تضعف وتسعى إلى مساعدة عند جبهة غاليسيا، وبلغاريا تقاتل بما يكفي من البسالة عند الجبهة المقدونية، ولكن خسائرها كانت فادحة.

في هذا الوقت، كان الفيلق الـ٢١، المؤلف من ثلاث من أقوى الفرق في الجيش التركي هي الـ٤٦ والـ٥٠ والـ٥١، استُدعِي من ساحل سميرنا [إزمير اليوم] الذي نجح في الدفاع عنه، وأُعيدَ إلى القسطنطينية بهدف إعادة تأهيلهم وإرسالهم لنجدة الألمان عند الجبهات الأوروبية.

نلت تعييناً جديداً فأصبحت مساعد قائد الفرقة الـ٤٦ للمدفعية، العقيد علي رضا بك.

ومن الكلام مع ضباط هذا الفوج، علمت بأن قائد الفرقة الـ٤٦، العقيد محمود بليغ بك، عارض بصراحة جمعية الاتحاد والترقي، الحزب الحاكم، وانتسب إلى الحزب المعارض الذي قُتلت أغلبية قادته. وعلمت بأن العقيد محمود بليغ بك أُعفِي من مصير أصدقائه في السياسة لأنه كان مرجعاً في العلوم العسكرية وكان أستاذ أنور وجمال باشا في الكلية العسكرية. وعلمت أيضاً بأن مصطفى شوكت بك، وهو من سميرنا والملحق بأركان العقيد، كان متعاطفاً شكلياً مع جمعية الاتحاد والترقي فيما كان في الواقع معارضاً إلى حد كبير لها.

بعد فترة وجيزة في معسكرات إعادة التأهيل حيث تأمنت تعزيزات ومعدات جديدة لحملة طويلة، أُمِرت فرقتنا بالانتقال إلى سيريز، وهي

نقطة مركزية عند الجبهة المقدونية، تبعد مسافة ٧٠ ميلاً عن مناطق القنوات عبر الأجزاء الجنوبية من اليونان إلى مدينة موناستير في صربيا.

في ٢٤ أيلول (١٩١٦)، وصلنا إلى هدفنا والتحمنا مع البلغار الذين كانوا يتعرضون لضغط كبير من العدو.

لم نكن قد استقررنا بعد في مراكزنا شنت الوحدات البريطانية والفرنسية واليونانية المتمركزة على بعد يقل عن ٧٠ ميلاً عند بحيرة تاكينوس هجوماً لا يرحم على موقعنا. واستمر الحصار ستة أيام من دون انقطاع من الفجر إلى الغسق، ولم تتوقف نيران المدفعية قط. وكانت ثمة مراحل خلال اليوم امتلأ فيها الهواء بالدخان الأزرق للمعركة، وحُجِبت عنّا الرؤية لأميال. كانت المعركة أكثر المعارك البرية التي اشتركت فيها إلى ذلك اليوم إثارة للخوف. رأيت أشجاراً كاملة تُقتلَع وتطير في الهواء، وسفوحاً تعريها القنابل المنفجرة وتشوهها. كانت مدفعيتنا متمركزة في قرية ساريمساكلي اليونانية وأحياناً كنت متأكداً من أن البريطانيين عرفوا مَدانا. وأعتقد بأن المدفع المزيف الذي صنعته من مدخنة ووضعته في مكان متقدم جداً أمام موقعنا حيّر الطيارين البريطانيين الذين وجهوا نيران المدفعية البريطانية. ولم أكن فقط فخوراً بأن التمويه البسيط الخاص بي (يجب أن أعترف بأنه بدا طفولياً قليلاً حين استخدمته) كان ناجحاً، بل شعرت أيضاً بالامتنان. ولدى انتهاء الحصار، بدا المشاة الأتراك والبلغار على وشك التعرض للمحو، لم تفقد فرقة المدفعية سوى ١٠ بالمئة من عددها.

وتلت ثلاثة أسابيع من الهدوء القلق.

في ١٥ تشرين الأول ١٩١٦، تلقيت رسالة من خفر السواحل البلغار المتمركزين في كافالا، نصت على أنهم في حاجة لتعزيزات تركية لصد هجوم متوقع من البريطانيين والفرنسيين حيث كان خفر السواحل ينتظرون إنزالاً وشيكاً.

استُدعيت إلى المقر العام في مدينة ذراما الواقعة على بعد ٢٧ ميلاً شرق موقعنا، واصطُحِبت فوراً إلى حضرة العميد عبد الكريم باشا.

كان رجلاً صريحاً ومرحاً جداً، على الرغم من أنه مؤيد للحكومة.

قال: «إذاً، أنت النقيب طوروسيان، الكافر المجنون الذي خدع الإنكليز بمدافع المداخن. حسناً، أيها النقيب، يبدو أنك تتمتع بالثقة الكاملة لوزارة الحرب وسأعينك ممثلي للتحقيق في الوضع البلغاري عند كافالا. أظن أنك كأرمني وكمسيحي، لديك فرصة أكبر لنيل ثقة حلفائنا الجدد وبالتالي الحصول على صورة أصح للأوضاع. لسنا في موقع يسمح لنا بإرسال رجالنا إن لم تكن من حاجة فعلية إليهم. احصل على المعلومات كلها التي يمكنك تحصيلها ولا تتجاهل تسجيل الموقف البلغاري وكيف يديرون أنفسهم».

أثارت المهمة فضولي، وكنت سعيداً بصدور الأوامر بالبدء فوراً. في محطة ساري شابان لاقاني القائد البلغاري لفوج خيالة ومرافق خيال. ووصلت بسرعة إلى المقر العام حيث بدا أن أرمنيتي أسعدتهم وفاجأتهم. وقبل انقضاء المساء، تطورت حميمية قوية بيننا.

أمضيت ثلاثة أيام أتفقد المواقع البلغارية في كافالا، وتكوّن لدي رأي مفاده

أن الخط الساحلي كان محمياً بما يكفي وأن البلغار لم يحتاجوا إلى أي مساعدة إلى أن يحاول العدو فعلاً الإنزال على البر. وكانت القوة البلغارية تستطيع الاحتفاظ بالدفاعات الساحلية لـ١٢ إلى ١٥ ساعة، وخلال هذا الوقت، يمكن لتعزيزات تركية كافية أن تُستقدَم.

أرسلت تقريري برقاً إلى العميد عبد الكريم باشا وانتظرت التعليمات. ولم تصل التعليمات قبل أسبوع عمد خلاله أصدقائي البلغار الجدد إلى الترفيه عني بحسن استقبالهم.

في صباح ٨ تشرين الثاني ١٩١٦، تلقيت برقية تفيد بالتوجه إلى المقر العام في ذراما، فانطلقت تحت مطر بارد وخفيف.

بدا أن للعميد ثقة كاملة فيّ وكان أكثر من ودود.

بعدما قدمت تقريري الرسمي، سألني كيف وجدت الأمور، وبدا مسروراً جداً حين أخبرته كيف كان الضباط البلغار يعيشون كملوك في منازل اليونانيين ويمتعون أنفسهم بالانغماس في مخزونات كبرى من النبيذ والكونياك استولوا عليها.

وبدا صمته يشير إلى أن المقابلة انتهت، ونهضت، ولكنه أشار إليّ بالبقاء.

قال: «اجلس، أيها النقيب. ثمة أمر مهم آخر أعتقد أنك قادر على خدمتنا به».

راجع ملفاً كبيراً من الأوراق كان أمامه ثم أخبرني أن فريقاً من الضباط الألمان والنمساويين والبلغار سيصل خلال أيام قليلة إلى المقر العام

للتشاور في وضع جبهة موناستير.

وأبلغني: «سينتقلون في شكل شبه فوري من هنا في جولة تفقدية وأتمنى أن ترافقهم وتنقل فوراً النتائج التي تخلص إليها. في هذه الأثناء، ستكون ضيفي واستمتع بحرية بضيافة المعسكر».

وهكذا متعت نفسي، فعلى الرغم من كل شيء، ثمة شرف في أن تكون أرمنياً في تركيا، شرف أن تكون مفيداً وخزي أن يكون والداي قد قُتِلا. ربما ثمة شيء شرقي فينا، نحن أهل الشرق الأدنى، ففيما كنت مصمماً بعناد على الانتقام لعائلتي، عرفت قيمة الصبر.

بحلول نهاية الأسبوع، كنا في قطار خاص متوجه إلى موناستير. كانت رحلة القطار الأكثر إزعاجاً في حياتي: حاولت مرتين طائرات فرنسية وبريطانية قصف كل من القطار والسكك الحديد. وكنت سعيداً حين بلغنا هدفنا، وكذلك كان الضباط الذين رافقتهم. وجعلتنا تسع ساعات من النسيان المؤقت في القطار نقدّر متاعب جبهات القتال حيث يمكن للمرء على الأقل أن يكون فاعلاً.

كان الوضع الذي وجدناه تقريباً كالتالي:

من جهة العدو، ثمة قوة قوية من الجنود الفرنسيين والبريطانيين واليونانيين والإيطاليين والصرب كان هدفهم الرئيسي التمكن من السيطرة على السكك الحديد.

وفي مواجهتهم، كان ثمة جيش مؤلف من الألمان والنمساويين والبلغار

القائد طوروسيان مسؤولاً عن ستة آلاف خيّال عربي في جيش الحلفاء المتوجه إلى دمشق

يحمي الخط، ولكن في مقابل تضحية كبرى بالرجال.

بعد تفتيشنا، أشار القائد الألماني إلينا بأنه يعتقد بوجوب شن هجوم قوي فوراً ضد معقل العدو في موناستير لدفع قوات الحلفاء إلى الوراء حتى سالونيك والاستيلاء بالتالي على مخازنهم الضخمة من الإمدادات.

نوقشت المسألة لثلاثة أيام.

وقلت شخصياً بأن العدو يمكن أن يُهاجَم في شكل أفضل من مركز الخط وليس من الميمنة.

لكن قبل التوصل إلى قرار محدد، جاءت برقية من المقر العام تنصح بالتخلي عن خطط الهجوم حالياً وانتظار تعليمات إضافية.

وبعد انقضاء يومين، تلقينا رسالة خاصة أُمِرنا فيها بالمغادرة فوراً إلى الجبهة الرومانية.

في صباح ١٩ تشرين الثاني ١٩١٦، انطلقنا إلى بلدة تورتوكاي عند الدانوب ووصلنا إلى هناك في وقت متأخر من بعد الظهيرة.

وجدنا قوة كبيرة من الألمان بقيادة المارشال فون ماكنسين. وكانت ثمة خطة لهجوم عام على طول الجبهة الممتدة لـ١٥ ميلاً، وكان التحضير للخطة قد قطع شوطاً مهماً. وتدفق المئات من الجنود الألمان والنمساويين على امتداد الساعات والأيام القليلة التي تلت.

وكُلِّفت اثنتان من أقوى الفرق التركية، الـ٥٠ وجزء من الـ٥١، بالتمركز

في سلاتا عند الجبهة وكُلِّفتُ قيادة الفرقة الـ٥١ للمدفعية واتخذت موقعاً خلف مركز الخط مباشرة.

وفي ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٦، عند الساعة الثالثة فجراً، أُطلِق الهجوم بنيران مدفعية مركزة استمرت من دون توقف لـ٣٠ دقيقة.

وفي الظلام الأسحم، بدا اندلاع ألسنة اللهب من المدافع كومضات مفاجئة لعرض كهربائي قوي، كالإضاءة والإطفاء غير المعدودين لأضواء الإشارة: وبدت القنابل المنفجرة تُقذَف عبر الهواء مثل النيازك. وكان في مقدورنا سماع مياه الدانوب في اضطراب مفاجئ جراء سقوط الشظايا.

وعلى ثلاثة جسور عائمة، بُنِيت خلال الليل، بدأت جيوشنا تعبر إلى الجهة الرومانية.

بحلول الساعة الرابعة والنصف، اشتعلت الضفة الرومانية من النهر لأميال فيما دمر العدو مخازن عتاده لئلا نحصل عليها. وكانت حرارة ألسنة اللهب قوية إلى درجة أنها لفحت وجوهنا فيما عبرنا النهر.

وسرعان ما اخترقت آلياتنا خطوط العدو المتراجع.

عند الساعة الخامسة، بدأت قوات مدفعيتنا تعبر النهر. وكانت كتيبتي في الصدارة، وحمت خيالتنا المتقدمين من بطاريات العدو.

واستمرت المعركة، التي خيضت بمرارة وعنف، ليومين بليليهما. واستمر تقدمنا وأوقفنا المئات من الخيالة والمشاة الرومانيين وأسرناهم. وأخيراً وصلنا إلى الطريق السريعة الرئيسية المؤدية إلى العاصمة حيث وُوجِهنا بعناد

أكبر من أي وقت مضى. وكانت بطاريات قوية تحمي مدخل بوخارست لمسافة ثمانية أميال ربما وحافظت على نيران ثابتة.

كان وضعنا ليكون خطيراً أكثر مما ينبغي لو تابعنا السير على الطريق الرئيسية، ولذلك، وفيما كانت طلائع الجيوش المهاجمة تخوض صدامات مباشرة عبر القرية، أمرت الرجال باتخاذ مواقع في الخلف عند التلال المحيطة، ووضع بطارياتنا في مواقع يبعد بعضها عن بعض ٢٠٠ ياردة [حوالى ١٨٢ متراً]. وخلال نصف ساعة، كنا جاهزين للبدء بإطلاق النار: كنت قد استكشفت معاقلهم ووضعت خططي.

لكن العدو كان مشغولاً أيضاً، واكتشف موقعنا وبدأ قصفاً عنيفاً.

ولأن الهجوم كان غير متوقع ومفاجئاً في الضباب الدخاني السميك، كان مستحيلاً تحديد المسافة واضطررت إلى إرسال بعض من رجالي بحثاً عن أغطية الشظايا التي خلّفها العدو. وأشارت قراءتي لها إلى أنها أُطلِقت من مسافة خمسة آلاف و٥٠٠ متر.

رددنا على النيران، وخلال ١٢ دقيقة أسكتناهم وتحوّل زئير مدافعهم إلى مجرّد أنين.

وحددت مدفعيتهم الجبلية مواقعنا وبدأت بإطلاق النار، ولكن ليس بفاعلية كبيرة. وقبل تحديد اتجاه هجومنا التالي، قررت أن أحاول الحصول على رؤية وتقدير أفضل لمحيطنا، فأخذت منظاري وتسلقت السفح. وأظن أنني كنت قد تقدمت ٥٠ ياردة حين مرت شظية برأسي، وفيما لم أفقد الوعي، سقطت أرضاً بعد أن أُصبت في رأسي. كان الألم كبيراً جداً، ونزف

الجرح بكثرة إلى درجة أنه غطى صدر بزتي وأعمى عينيّ. وبدأت أتساءل عن إمكانية النزف حتى الموت مع البقاء في وعيي حتى آخر قطرة، حين وصل جنود الصليب الأحمر إلى جانبي ونظفوا الجرح وضمدوه.

ساعدوني على الوقوف على قدميّ، وأظن أنني ترنحت قليلاً لأن فقدان الدماء أضعفني. كنت مهتماً مهنياً بالمعركة إلى درجة أنني لم أعر اهتماماً كبيراً لجرحي، فأمرت بطارياتي بقصف الحقول المفتوحة، فيما حاولت مجدداً استكشاف الوضع. ووجدت الجيوش في التحام قريب إلى درجة استحال معها تمييز العدو من قواتنا نحن. نقضت قراري، وأمرت بدلاً من ذلك بهجوم سريع باتجاه الوادي المفتوح.

قدت حصاني في مقدمة بطاريتنا مع أركاني، وبعد بلوغنا مسافة تبلغ ربما ثلاثة أميال، وعند منعطف الطريق، التقينا بثلاثة رسل يقودون أحصنتهم باتجاه بطاريتنا، حاملين رسالة مفادها بأن الرومانيين كانوا يتلقون تعزيزات وأبلغونا تعليمات بمحاولة وقفها.

دفعت بطاريتي إلى الوراء نحو منحدر منخفض يطل على الوادي، ومن هناك راقبت عرضاً لا ينتهي للخيالة الرومانيين المقبلين من الطريق السريعة الرئيسية في محاولة صد التقدم الإضافي لجيوشنا.

فتحنا النار فوراً، وتحت غطاء مدافعنا اندفع الألمان بجنون إلى الأمام لتفريقهم. وفي لحظة، عمّت الوادي فوضى من الرجال والأحصنة المجنونة في تطاحن، وجحيماً من الزعيق والأنين. استطعت أن أرى المئات من الأحصنة تعدو إلى التلال من دون خيالة أو برجال جرحى أو قتلى يتدلون

من ركبانها.

وقبل غياب الشمس، كان العدو ينسحب وكان الخيالة الألمان والبلغار والنمساويون يسيرون منتصرين إلى بوخارست؛ كان هذا في ٥ كانون الأول ١٩١٦.

كُلِّفت كتيبة المدفعية الخاصة بنا بالتمركز في قرية صغيرة تقع على بعد حوالى ستة أميال خارج المدينة، وهنا استعرضنا الحضور فتبين لي أنني خسرت ٢٨ رجلاً فقط.

بعد ظهيرة اليوم التالي، أُمِرنا بالدخول إلى المدينة حيث أقمنا في ترف «فندق القصر» وراحته.

وعلّق المسؤولون الألمان بإيجابية على المساعدة التي قدمتها كتيبتنا، وأبلغوا المقر العام بأن ٢٥ مدفعاً معادياً أُسكِتت تحت أمرتي، وأشاروا إلى شجاعتي الاستثنائية في الاستمرار أمام عدو قوي.

ولعملي الذي بدا بطولياً، ولأنني قاتلت قتال الشجعان وعند كل جبهة وفي كل ظرف، جاءني وفد من المسؤولين الألمان والنمساويين والبلغار امتدحني ببلاغة وقلدني وساماً.

الفصل العاشر

لقاء غير متوقع واجتماع سري

مع انتفاء الحاجة إلى قوات قوية في رومانيا، أُمِرت الفرقة التركية الـ٥١ بالعودة إلى القسطنطينية.

وأصبحت وزارة الحرب التركية أكثر قلقاً عند الجبهات الشرقية للقتال، وكانت الفرق التركية الأقوى الموضوعة خارج الخدمة الفاعلة تُستدعَى ليُعاد تأهيلها للخدمة عند هذه الجبهات.

أُلحِقت مؤقتاً بالفرقة الـ٥١، وكانت كتيبة المدفعية، بقيادتي، أولى الكتائب المغادرة. وفي طريق عودتنا، اضطربتُ وتجولت في القطار، وتعرفت مصادفة إلى عربي طويل القامة متناسق الجسم، اجتذبت قسماته السمراء الصلبة انتباهي إلى حد ما. تبادلنا اللياقات وعرّف بنفسه باسم الرائد نوري بك، وهو ضابط أركان في الفرقة التركية التابعة للفيلق الـ١٤. وقال

لي إنه غادر قبل وقت قصير جبهة غاليسيا وإنه متوجه وفق الأوامر من القسطنطينية إلى فلسطين.

حيرني الثقل البادي في كلامه. كنت واثقاً بأن وراء عينيه الثاقبتين وقسماته الأنيقة ثمة ذهناً وقّاداً يعبّر عن نفسه بنفسه. وبدا لي أنني أشعر بأمر يقلق فكره، فقدمت له سيجارة ونهضت للمغادرة، فأومأت يداه المعبرتان فجأة لي بالبقاء.

«إن لم يكن من أمر أهم يستدعيك، أيها النقيب، ألا تبقى قليلاً؟».

أكدت له أن ذلك من دواعي سروري. أشعلنا سيجارتينا وجلسنا براحة.

كانت ملاحظته التالية غير متوقعة.

«هل لي أن أسأل، رفيق، أين وُلِدت؟».

أخبرته أنني من أصل أرمني ومولود في إفيريك.

لدى سماعه إجابتي، نظر إليّ عن قرب إلى حد ما وشعرت بشبهة ما.

وكان سؤاله التالي أكثر مفاجأة، وشعرت أيضاً بقليل من الارتياح.

«إذاً ربما سمعت بالنقيب طوروسيان أو شاهدته، فهو مواطن لك يبدو أنه جعل من نفسه بطلاً نوعاً ما».

لم أكن متأكداً تماماً من الوجهة التي تتخذها محادثتنا، أو من الهوية المحتملة لهذا العربي الذي يبدو رائعاً، فاستخدمت مواهبي المحدودة جداً في المرح،

وقلت إنني رأيت الرجل في ذلك الصباح حين كنت أحلق ذقني.

حين لمس أهمية كلماتي، أمسك بيدي بقبضة صديقة، وأضاء وجهه كله، وتراقصت ابتسامة على عينيه السوداوين الفاحمتين.

«حقاً؟» سأل. «كم غريب أن نلتقي نحن الاثنين، وفي وقت...» قال متردداً كأنه لم يجد الكلمات المناسبة. وتابع: «أيها النقيب، سمعت عنك ورأيت صورة لك في قصر باشا عربي، هو صديق لي. لقد امتدح شجاعتك، ويعتبرك بفخر ابناً له. قال لي إن والديك حيّان. هل هذا صحيح؟».

احترت في أمري. هل يعرف الرجل والد محرّم حقاً؟ ومن التشديد الذي أرفقه بسؤاله المتعلق بوالديّ، شعرت بأن ثمة أمراً يعرفه حقاً، وهو الأمر المتعلق بالمجازر بحق الأرمن. وعلى الرغم من أنني كنت لا أزال غير واثق في موقفي، قررت أن أقبل تقييمي لحسن نيته وأقبله كصديق وليس كالجاسوس المحتمل جداً أن يكونه. وعبّرت عن السعادة الصادقة التي شعرت بها للقاء شخص لم يمضِ وقت طويل جداً على لقائه الباشا.

أخيراً رويت له قصة عائلتي. وأخبرته عن الترحيل الذي عرفت أنه حصل وعن شكوكي منذ شهور ومخاوفي من أن يكونوا قد أُهينوا أو عُذِّبوا في شكل يفوق التحمل، ولكنني كنت حذراً في تجنب أي إشارة شريرة من قبلي إزاء الحكام الأتراك. كنت لا أزال غير واثق به.

يبدو أنه كان أقل حذراً مني، على الرغم من أنني أعتقد بأن الأمر يعود ببساطة إلى فراسته الأقوى من فراستي. وعرفت منه أن اسمه الحقيقي كان نوري يوسف، وأنه متحدر من عائلة عربية نبيلة ذات قوة تُخشى، وأن

معظم أفرادها اعتُقِلوا وشُنِقوا. فقبل أربعة أسابيع فقط أُعدِم قريبه علناً في ساحة مدينة دمشق.

تحدثنا لساعات، ولأننا كنا وحدنا في المقصورات، لم يحاول قط إخفاء مرارته من الأتراك، ووصف ظلماً تلو ظلم وإذلالاً تلو إذلال تعرّض لها مواطنوه.

قال: «إذاً، أيها النقيب، ترى أن لدينا أمراً مشتركاً، أنت الأرمني وأنا العربي؛ لدى شعبينا أمر مشترك. انتظرت وقتاً طويلاً نقلي إلى فلسطين، وأملت به. عند أول فرصة، سأنشقّ وأجمع جيشاً من شعبي وسأنتقم، أيها النقيب، وبسرعة كما آمل. لا يليق النير التركي أبداً بأكتاف العرب، والثورة موجودة أصلاً في عقول شعبي وقلوبهم».

قبل أن نفترق، انتزع مني وعداً بتمضية ليلة معه في منزله بسوري - يار وهي ضاحية على البوسفور. ووفيت بالوعد، وأذكر الليلة لحسن ضيافتها والأمل الذي أوقدته نوعاً ما بوجود مغامرات جديدة في مكان ما أمامي، مغامرات قد تقودني إلى دروب الثورة العلنية. فقد أجد أنا أيضاً الانتقام على رمال الصحراء. كانت ليلة قلقة، مليئة بوعد بيوم يلحق بي فيه رجال سمر تملأهم شجاعة كبرى إلى ساحة غير معروفة. وفي تلك الليلة، حلمت بخطة وبخطة مضادة، وبمهام سرية، وبمؤامرات، وبالظلال المهلكة لأعداء يتجسسون؛ بفكرة الأحداث المخفية والأهميات السرية للكلمات، والابتسامات، والإيماءات.

وفي القسطنطينية، سلمت رجالي ومعداتي إلى المقر العام، ورتبت التحاقي

بفوجي السابق للمدفعية في الفرقة الـ٤٦ التي كانت قد عادت بهدف إعادة التأهيل قبل أسبوع فقط.

وأُمضيَت الشهور التالية في العمل الرتيب المعتاد المتعلق بإعادة ملء الصفوف والمعدات. وجاءت الأوامر بمهمة على امتداد جبهات بلاد ما بين النهرين.

في ١٧ أيار ١٩١٧، بدأنا النصف الأول من رحلتنا الذي كان مقرراً أن يوصلنا إلى المحطة الأخيرة في قطمة شمالي سورية.

وعند كل محطة على خط السكك الحديد، غادرت القطار واستخدمت الوقت في البحث عن لاجئين أرمن بدأت ألاحظ وجودهم في الوقت الذي كنا نتقدم فيه إلى الداخل، واستجوابهم. صممت على أن أعرف في شكل محدد وحاسم مصير والديّ. وكانت جهودي غير مثمرة.

وأخيراً، وبعد ساعات مرهقة، دخلت القطارات متثاقلة إلى قرية قطمة التي كانت الشمس تصليها نارها. هناك كان ثمة معسكر عام للفرق كلها التي كانت تنتظر دورها لتُرسَل إلى نقاط مختلفة في الداخل. ووُضِعت فرقتنا مؤقتاً مع سائر الفرق.

وفيما بقينا في المعسكر، اغتنمت كل فرصة ممكنة للوصول إلى لاجئين أرمن في المقاطعات المجاورة والعثور على أخبار محتملة عن لاجئين جاؤوا من إفيريك. وكان أول دليل عثرت عليه في شوارع قطمة ذلك الذي أعطتني إياه امرأة عجوز رثة الثياب التقيت بها تترنح وهي تبيع أرغفة صغيرة من الخبز. وتبين لي أنها أرمنية، وقالت لي إنها سمعت بأن لاجئين من منطقة

إفيريك وصلوا إلى مدينة حلب الواقعة على بعد ٢٠ ميلاً جنوب قطمة.

بما أنني كنت في إجازة، انطلقت فوراً إلى حلب التي بدت مليئة بالأطفال الجياع والحفاة؛ لم يبدُ أن أياً منهم تجاوز العاشرة بكثير، وكان كل منهم، من الأضعف إلى الأضخم، يحمل على كتفيه الصغيرتين، عدة مربوطة بأشرطة مخصصة لتلميع الأحذية، كانت العدة الأكثر تهالكاً من نوعها التي يمكن لأي شخص أن يتخيلها.

حاولت أن أتحدث إليهم بالأرمنية، ولكنهم كانوا يفرّون مني، وعيونهم الكبيرة مليئة بالخوف، حين كانوا يحدّقون ببزتي؛ كانوا يصرون على أنهم مسلمون. أخيراً نلت ثقة أحدهم، وعرفت منه أن عائلته رُحِّلت قبل شهرين فقط. لن أنسى أبداً التعبير في عينيه، والخوف والكره، حين وصف كيف قُتِل إخوته الأكبر وأبوه على الطريق إلى المنفى، تاركين إياه هو وأمه يخوضان وحدهما الدرب الوعرة اللامتناهية.

سألته إن كان يعرف عن صبيان من إفيريك، ورد عليّ بأن استدار وأطلق صفرة حادة.

جاء إلينا صبي في الثانية عشرة، ونظر إليّ بحدة حين تحدثت بلغته الأم. لكنه بدا صبياً شجاعاً، وليس حيياً مثل الصبي الآخر، ولكن حين استعلمت إن كانت عائلته جاءت من إفيريك، بدأ يبكي. وبعد ذلك، كان كل ما حصلت عليه تمتمة مرتبكة من خلال بكائه، حاول أن يقول فيها كم كان سعيداً في إفيريك، فيما الآن لم يبقَ على قيد الحياة غيره هو وأمه، وأن أمه تعمل في مصنع قريب للبزات العسكرية في مقابل ١٠ سنتات يومياً. شعرت بأنني

في ما أفعل وحش يستجوب الصبي ويتملقه ويزعجه.

أخيراً وبعد كثير من الملاطفة وفي مقابل أجر كبير، وافق على اصطحابي إلى المصنع حيث كانت أمه تعمل.

في نصف ساعة، انتهى الأمر، وكنت أغادر محبطاً أكثر من أي وقت مضى. التقيت بالنساء الآتيات من إفيريك، وسألتهن عن مصير والديّ، ولكنهن لم يستطعن إخباري شيئاً.

جبهة بلاد ما بين النهرين

في أواخر أيار ١٩١٧، تلقت فرقتنا أوامر بالانتقال إلى الموصل. ولساعات متتالية لا تنتهي، سافرنا في عربات على سكك حديد، ونحن نكاد نختنق من الحرارة المتقدة، حتى وصلنا إلى تل حلف، حيث انتهت السكك الحديد وترامت خلفها الأرض في رتابة قاحلة.

من تل حلف انطلقنا في مسيرة لـ١٢ يوماً إلى ضفاف دجلة حيث تقع الموصل (نينوى).

كانت الطرق وعرة ومليئة بصخور حادة، وكان المسير بطيئاً ومملاً، على أرض تقلبت بين صحارٍ ومستنقعات تعشش فيها الملاريا. وكانت الشمس لا ترحم إلى درجة أصبح معها السفر نهاراً مستحيلاً. كنا نراوغ للحصول على ملجأ في المستنقعات ونحاول النوم حتى غياب الشمس، ثم يبدأ السير المتعثر

الطويل حتى الفجر. وكانت المياه نادرة فاضطررنا أحياناً كثيرة إلى حفر برك في المستنقعات وغلي الزبد الموحل المليء بالجراثيم لنشرب. وكان البعوض يهبط علينا في أسراب. وتفشت الملاريا والتيفوئيد ومات المئات. لكن المسيرة استمرت ليلة بعد ليلة. ومرة دخلنا في عاصفة من الجراد وكافحناه باستمرار ليومين. وملأت الملايين والملايين من الأجنحة البيضاء الهواء مثل ثلج سميك وحجب الشمس. ومرة صادفنا مجموعات من العمال تبني خطاً لسكك الحديد تحت إشراف ألماني. كان معظمهم لاجئين أرمنيين، ولم يكونوا سعداء. لقد أرهقوا مثل العبيد، وكانت ظهورهم تلمع في الشمس.

كان آخر مسير (مارش) نهاراً، وفي ٩ حزيران ١٩١٧، تظاهر جيش من الأشباح بعيون محدقة وشفاه مسودة بالسير فيما دخلوا إلى الموصل.

وقف اللواء خليل باشا، قائد جبهة بلاد ما بين النهرين، على تلة قريبة لتفحص بطارياتنا. ولم يكن منظرنا باعثاً على الأمل فكثيرون من الرجال كانوا لا يزالون ضعفاء من تداعيات المرض؛ كنا تعزيزات رثة.

وساءت الأوضاع لاحقاً؛ هاجم التيفوئيد والكوليرا والملاريا ضحايا جدداً حتى غصت المستشفيات المحلية بأكثر مما تحتمل، وبُنيَت مستشفيات ميدانية. ومات أكثر من ٢٠ شخصاً يومياً.

كانت الحكومة التركية في وضع لا يدعو إلى كثير من التفاؤل: كان الطلب على الرجال عند الجبهات المختلفة أكبر من أن تمكن تلبيته، وكان نقص جدي في الإمدادات في الداخل يثير الذعر.

وفي منطقة الموصل عند دجلة، كان عدد من القبائل العربية يقطن السهول

والجبال، وكانت كل قبيلة مستقلة عن الأخرى وتحافظ على عادات خاصة بها وعلى تقاليدها. ولم يُبدِ أي منها ولاءً صارماً للحكومة التركية، وعاشت كلها في شكل كامل داخل مجتمعاتها الخاصة بها، فأسست محاكمها الخاصة بها، ووضعت قوانينها الخاصة بها، واختارت قضاتها وزعماءها الخاصين بها وفق ما رأته مناسباً. وكانت كل قبيلة تتميز عن القبائل المجاورة بتغاير طفيف في الملبس وبعلامة وشم على الخد الأيمن مرسومة بالحبر الأزرق، يميز العشيرة التي ينتمي إليها أفراد القبيلة. وعاشت القبائل وازدهرت وعملت باجتهاد في مزارعها وكرومها ورعت قطعانها، وأنتجت كميات كبيرة من الأغذية والماشية وأنتجت صوفاً ممتازاً من خرافها.

واستعرت عداوات في ما بينها، ولم يكن مزاجها الجمعي غير مستقر فحسب، بل كان موقفها من الغرباء يتغير أيضاً بين قبيلة وأخرى. وكانت القبائل عادةً ترحب بالضيوف، ولكن بعضها كان معروفاً بإقامة وليمة لضيوفه، وبعد أن يُتخَموا وينامو، يهاجمهم أفراد القبيلة ويقتلونهم. وكانت ثمة قبيلة لا تؤذي أبداً مسافراً تقاسمت معه خبزاً وسمحت له بالدخول إلى مضاربها. وسمعنا عن قبيلة كانت تلاطف ضيوفها إلى أقصى حد، وتخلع على المسافرين المغادرين أفضل الثياب، لتطاردهم بجنون بعد مضيهم لبضعة أميال، فتصرخ في أعقابهم، وتطلق خيالتها بأقصى سرعة، وتقتل المسافرين من دون سابق إنذار أو رحمة.

بالنسبة إلى أميركي أو أوروبي متحضر، لا بد من أن هذا كله يبدو غير واقعي حد الذهول، وسينمائياً في الواقع، ولكنني رأيت رجال القبائل هؤلاء يسارعون خلال الليل، خيالة بثياب بيضاء وسيوف لامعة،

يرتكبون القتل من دون اكتراث.

قبل أسبوعين من وصولنا إلى الموصل، كان القائد العام خليل باشا، بعدما خبِر مقاومة القبائل الكبرى لضرائبه الغذائية، أرسل ألفاً و٥٠٠ جندي تركي لطلب أطعمة أو انتزاعها إذا تطلب الأمر. لم يعد الرجال قط، وأُعيدَت الرؤوس المقطوعة للضباط في أكياس بمثابة رد من القبائل.

إن الحرب في أيامنا هذه أكثر تهذيباً وليست خرقاء أو صاخبة كما كانت آنذاك. تتسلل غازات مروعة وقاتلة في مناطق شاسعة وتحرق حياتنا في عذاب من الألم. وتسقط القنابل بدلاً من الشهب، وتُطلَق أوبئة. والحرب اليوم أقل شخصانية بكثير، ولكنني غير واثق في كونها أكثر شجاعة.

خلال بداية تموز، أصبح شح الطعام حاداً وتقرر اتخاذ تدابير فورية لضمان مساعدات من كثير من القبائل الكبرى ذات الصفات التي تحمل أملاً بالنجاح، على الرغم من عدم موثوقيتها عموماً. وكان على الحملة أن تتسم بالاستدراج وليس بالعقاب. فالأتراك لم يستطيعوا تحمل عداء مكشوف مع العرب؛ ولم يستطيعوا أيضاً تحمل انتظار إضافي للطعام.

وعُيِّن العقيد صالح بك، الذي كنت قد تعرفت إليه عن قرب، قائداً للحملة، وتقرر أن الشيخ موسى من قبيلة اليزيديين، يحمل الأمل الأكبر. وأُمِرت بمصاحبة الحملة مع بطاريتي والمساعدة في حماية خطوطنا إن تطلب الأمر ذلك.

ناقشنا المسألة صالح بك وأنا لساعات كثيرة؛ كنا نحن الاثنين نتقن العربية، وشعرنا بأننا بالحزم والقيادة الحذرة نستطيع أن نحقق مهمتنا من دون سفك

للدماء. وحُذِّر كل رجل في الحملة في شأن سلوكه، وأُمِر بأن يكون حذراً جداً فلا يتعرض بإهانة، خصوصاً في حضرة النساء العربيات.

في صباح ٢١ تموز ١٩١٧، انطلقنا باتجاه الوادي؛ بلغت القوة ألفاً من المشاة ومئة خيال وبطاريات المدفعية الخاصة بي.

وبعدما سرنا لحوالى ١٥ ساعة، وصلنا إلى مضارب الحميدات، موطن شمّر، وهي إحدى أكبر القبائل العربية وأكثرها نفوذاً وصداقة. كانت خيامها تنتشر لأميال على امتداد السفوح وتنتهي عند أطراف بغداد. وفاخرت بخيالة من ١٥ ألف رجل، وامتلكت بعضاً من أفضل الأحصنة والجمال في المنطقة.

كان زعيمها الحاج عادل بك، عربياً مسناً محبباً وودوداً استقبلنا بلطف. وأمر بطعام لحملتنا شبه الجائعة والمرهقة جداً، وأصر على أن نتناول العشاء، العقيد وأنا، إلى مائدته باعتبارنا ضابطين من ذوي الرتب العالية.

عسكرنا في العراء بين ظهرانيهم تلك الليلة بعدما أقمنا حراسة مزدوجة. وفي الصباح التالي، كلّف الشيخ العجوز عدداً كبيراً من خيالته بالعمل أدلّاء، وبقوا معنا لخمسة أميال أو أكثر حتى وصلنا إلى حدود مضارب شمّر.

لم نستطع أن نتقدّم لأكثر من ٢٠ ميلاً بعيداً عن الحميدات حتى عمدنا، نحن الضباط الذين كنا نمتطي أحصنتنا في المقدمة، إلى جذب أحصنتنا بحدة وفي شكل شبه متزامن. فمن العدم، ظهرت مجموعة من الخيالة العرب وكانوا يعْدون بأحصنتهم بجنون نزولاً على سفوح جبال سنجار.

رفع العقيد صالح منظاره. كنا كلنا متوترين. وتوقفنا عن العمل مترقبين الأوامر الحاسمة، محاولين تحديد الخطوة التالية.

كانت توصيتي كالتالي: بما أن مغادرة الضابط الأعلى رتبة للمهمة أمر غير حكيم، وبما أنني الضابط الوحيد الذي يتقن العربية، يجب السماح لي بالتوجه على حصاني لملاقاتهم كبادرة صداقة.

أمرت اثنين من مرؤوسيّ باللحاق بي، وانطلقنا إلى الأمام، مباشرة إلى طريق الخيالة. وأوقف الشيخ الذي كان في المقدمة حصانه فجأة أمامي وامتلأ وجهه الأسمر بالغضب فيما صاح لي طالباً تفسيراً لموكب من الرجال والمدافع عبر مضاربه. وكان متوتراً جداً إلى درجة أنه تمايل فيما كان يلوّح بقضيب حديد كان يحمله. وأشار إلى أن قواته ستسحقنا بسهولة إن كنا آتين كأعداء، وهدد بأن من دواعي السرور الكبير إعادة رؤوس الضباط إلى قادتهم. وأظن أنه وعد بفعل ذلك بـ«لطف» بواسطة أكياس خيش. لكنه قال إن كرمه يتسع لنا إن كنا آتين كأصدقاء.

أظن أنه كان قادراً على تنفيذ أي من الخيارين، وشعرت بأنه كان نصف كاذب في الأمرين، وعرفت أنني إن أردت الاحتفاظ برأسي، عليّ أن أجاريه بالأسلوب نفسه مثله. ثم قال لي إنه الشيخ موسى، وهو الرجل نفسه الذي كنا نبحث عنه.

في لحظة، قفزت من حصاني وسارعت إلى جانبه، وأخذت يده وصافحتها بالقوة نفسها التي كان يتحدث بها. وانحنيت وحييته، ثم وبكل ما أوتيت من طلاقة، أكدت له أننا جئنا كأصدقاء سمعوا بحسن ضيافته وصداقته،

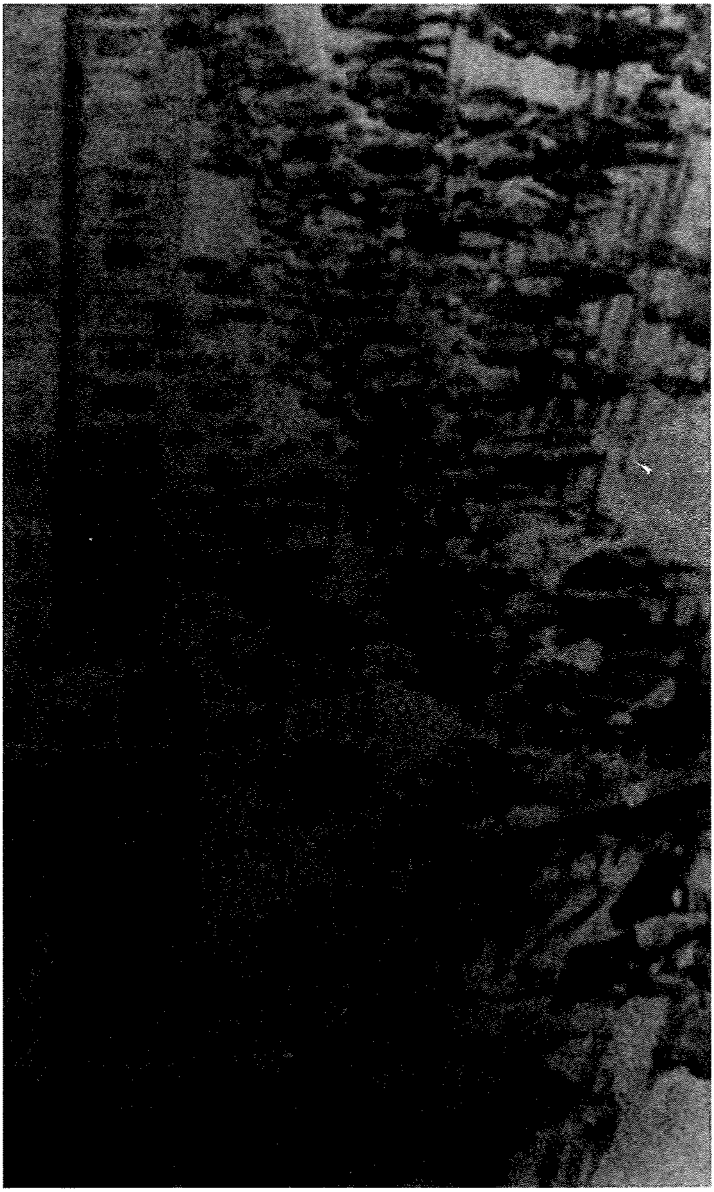

النقيب طوروسيان مع ٨٠٠ متطوع في الطريق من دمشق إلى بيروت

وأننا جئنا مسالمين، وأننا إذ سمعنا ببراعته ونبله كمقاتل، عليه أن يستقبلنا، على الأقل لفطنتنا التي لا تسمح لنا بالاقتراب منه متنكرين كأعداء.

وانتصر المديح، فبعد محادثة إضافية انضم إليها العقيد صالح، أمر الشيخ رجاله بالانسحاب وبقيادة رجالنا إلى مخيمه. لكن همسة سرت عبر خطوطنا تحض كل رجل على التنبه.

قادونا إلى الجنة، حرفياً وتقليدياً، فالشيخ موسى كان يهيمن على مضارب يقول علماء الآثار إنها كانت يوماً جنة عدن. كانت السهول امتداداً لا نهاية له من سجادات العشب الأخضر الطري. وانحنت أغصان أشجار الفاكهة تحت وزن أطايبها. وملأت رائحة البراعم ونكهة النضوج الهواء. وكانت الحدائق التي تقاطعت مع السهول كصور مرسومة لزهور ملونة بجمال على خلفية السماء. وكانت العصافير كومضات من اللون، حمراء وزرقاء وصفراء، أو تتبختر بروعة على العشب المتجانس. لقد غابت الحرب والأسف، وغاب التهديد والمجازر والمعاناة. لقد أصبحت الحياة جمالاً يقطع الأنفاس.

عسكرنا في الوادي إلى جانب نهر كان يثرثر في استمرار كنساء متحلقات حول الشاي. وعومل رجالنا معاملة الملوك. جاء المئات من رجال القبائل إلى معسكرنا بين وقت وآخر بالفاكهة والمئات من الأكياس الملأى بالذرة المشوية والعسل والخبز واللحم. وأكلنا كما لم نأكل يوماً؛ لقد أُتخِمنا حقاً.

مر أسبوع ولم يُبذَل أي جهد للإفصاح عن الهدف الفعلي لزيارتنا. وكان العقيد صالح، على الرغم من أنه كان ممتناً للمعاملة التي كنا ننالها، يميل

إلى الاشتباه إلى هذا الحد أو ذاك بنوايا الشيخ، وكان يتجنب بحذر مسألة الإمدادات.

ومنذ البداية، شعرت بأن الإفصاح عن الهدف الحقيقي لزيارتنا يقع على عاتقي، فعمدت إلى إظهار الامتنان إلى الشيخ موسى لنيل تقديره وثقته. وأصبحنا صديقين عزيزين وأمضينا ساعات نناقش الحرب. لكن ما من ثغرة مؤاتية بدت سانحة، وأصبحت مقتنعاً بأن أملنا الوحيد بالنجاح كان يتمثّل في وضع خطة ما قد نتمكن من خلالها من أن نقدّم إلى مضيفنا خدمة خاصة كنت أعلم أنها ستستجلب تعبيراً سخياً عن امتنانه. وكنت مقتنعاً بالمقدار نفسه بأننا إن قمنا بعمل خاطئ واحد، يضعنا في مصاف المتسولين أو اللصوص، فثمة أمل ضئيل لنا. واضح أننا لم نستطع البقاء هناك إلى الأبد، جنوداً في ظروف بدائية، وطبعاً لم نستطع العودة خالي الوفاض.

كان وقت طويل قد مضى على اعتباري لنفسي رجلاً محظوظاً، إلى درجة أن حُسن حظي غير المتوقع في ذلك، حين كنت أتحدث إلى الشيخ، جعلني غير قادر على الكلام. لم أعد أذكر كيف طُرِح الموضوع، ولكنني كنت فجأة أمام الوجه الأحمر ذي الحاجبين الأسودين للرجل الذي تمايل مرة على حصانه وأشار إلى أن رأسي كان في وضع دقيق. كان الشيخ موسى غاضباً جداً ويتحدث عن شخص اسمه إبراهيم باشا، كان قائداً سابقاً لقبيلة كردية مجاورة، كانت نمت بوضوح إلى حد أصبحت معه شوكة كبيرة في خاصرة قبيلة الشيخ موسى من خلال أعمال نهب وسرقة للماشية على نطاق واسع. وبدا أن الأكراد مقلقون ومزعجون، فهم لا يقاتلون في الملأ، ويهاجمون باستمرار المراعي المعزولة ويقلقون شعب الشيخ موسى.

لحسن الحظ، لم يكن العقيد صالح موجوداً إذ أشك في أنه كان ليفكر في شكل إيجابي في خطة تكونت في رأسي فوراً. ومن دون مناقشة الأمر مع العقيد صالح، اقترحت على الشيخ أنني أود أن أرافقه ببطاريتي في حملة تأديبية لجيران من هذا النوع فأقنعهم في شكل نهائي بأن ليس في مقدورهم اجتياح أراضي الشيخ بجبن والبقاء محصنين. وشرحت أن العقيد قد يعارض خطتي ما لم نظهر له سبباً أكثر صحة من مجرد فكرتي. وتقرر بالتالي أن يواجهنا الشيخ موسى، العقيد صالح وأنا، في صباح اليوم التالي بخبر مفاده بأن قبائل إبراهيم باشا كانت تنتظر لإيقاعنا في كمين عند أسفل الجبال.

وأدى الشيخ موسى، الممثل البارع، دوره في شكل جيد إلى درجة أنني غضبت لدى سماع النبأ. وكما تقرر سابقاً، اقترحت على العقيد صالح أن يشكل الشيخ جيشاً فوراً وأن أرافقه ببطاريتي.

وخلال ثلاثة أيام، كان الشيخ موسى، مع قوة من ٥٠٠ خيال وألفين من المشاة، تدعمهم بطاريتي، يسير إلى معقل الأكراد في جبل عبد العزيز.

وأُخِذ الأكراد على حين غرة، وسرعان ما انهارت هجماتهم الصلبة ومقاومتهم العنيدة والشرسة، ودخلنا إلى قراهم. واعتبر الشيخ موسى أن نصراً مهماً تحقق، وفاخر بالأسلاب والغنائم من الأطعمة والماشية والمقتنيات الثمينة. وقدّر الدعم الذي قدمته بطاريتي فأصر على أن أقبل حصاناً من أجود الأحصنة العربية التي كانت في إسطبلاته. وتساءلت حين قبلت الهدية كيف سيتصرف حين يعلم بأننا نريد أكثر بكثير.

حين عدنا إلى المخيم، بدت تعبيراته عن امتنانه غير قابلة للتوقف، وفي ضوء إصراره الإضافي على وجوب أن يبدي تقديره في شكل ملموس أكثر من الكلمات، شعرنا بأن اللحظة النفسية أزفت. وبأكبر دبلوماسية ممكنة، شرحنا الحاجة الكبيرة لجيشنا.

هبّ واقفاً على قدميه، هو الرجل العصبي الناري، وشعرت برأسي يتدحرج بقلق بعيداً عن جسمي. نفخ في شكل مزعج بالقرن الغريب الشكل الذي يحمله القادة العرب جميعاً، وجلب الصوت مرافقيه يعدون. وبسرعة خاطفة، أصدر أوامر بدت مذهلة.

في اليوم التالي، بدأت حملتنا نحن رحلة العودة إلى معسكرنا العام، وبرفقتنا قافلة من أكثر من ٥٠٠ جمل، محملة بكميات ضخمة من الأطعمة، وأكثر من ألف بقرة.

كانت عودتنا إلى المقر العام مدعاة احتفال. وفي المساء الثالث لعودتنا، أُقيمَت مأدبة. وخلالها، اقترح أحدُ ضباطنا، مصطفى شوكت، وهو يتحدث تحت تأثير كثير من النبيذ، نخْباً.

قال رافعاً كأسه: «أيها القائد العام، أيها الإخوة الضباط، كأس الكافر، النقيب طوروسيان، البطل الأرمني للأتراك. هو ابن كافر، ولا يؤمن بمحمد، ولكن في ضوء الواجب، هو موال ومؤمن وورع كالنبي الكبير نفسه».

للمرة الأولى، بدأت تلك الليلة أفكر في هذا الولاء الذي «شُرِب» نخبي من أجله. مؤكد أنني لم أشعر بأي ولاء فيما كان الشعور الإيجابي بالمرارة يكبر

في داخلي. وحين أفكر الآن في تلك الأيام، أفترض أنني (آمل ألّا يبدو هذا غروراً) كنت جندياً جيداً لا يرغب في الإخلال بواجباته المهنية. سأشرح الأمر كالتالي: دُرِّبت جيداً كعسكري فلم أملك أي فهم آخر. وفي الواقع، لم أملك خيارات أخرى، والسبب غياب أي وسيلة لمغادرة البلاد، وغياب الثوار الذين يمكنني أن أقودهم، وغياب المجموعات السرية التي يمكن أن ألتحق بها.

بقي كل شيء هادئاً في الموصل حتى بداية تشرين الأول ١٩١٧ حين وصلت إلى القيادة العامة تقارير مقلقة عن تقدم جدي ومهدد للروس عبر الجزء الشرقي من السلطنة، وأن الإنكليز كانوا يحققون مكاسب مستمرة واحتلوا مدينة تكريت الواقعة على ضفاف دجلة في منتصف الطريق بين بغداد والموصل.

وفي ١٠ تشرين الأول ١٩١٧، أُمِرت الفرقة الـ٤٦ بالحضور إلى الجبهة، وبعد مسير لثمانية أيام، تمركزت قرب بلدة الفتحة الواقعة عند ممر جبلي على بعد ١٥ ميلاً خارج تكريت. وكان الموقع ممتازاً كمعقل طبيعي؛ كان دجلة يمر عبر ممر ضيق، وكانت جبال حمرين تحمي الضفاف.

وبعد يوم على وصولنا، أمرت بوضع بطارياتي و٤٠٠ رجل على صدر الجبل وانتظرت الأوامر.

وفي اليوم الثالث، اكتشفت طائرات بريطانية موقعنا، وبدأ قصف عنيف. وأمرت ببناء مدافع وهمية من مداخن الأفران ووضعها في مواقع تسهل رؤيتها من العدو على أمل أن يبتعد عن موقعنا. لكن العدو كان قد اكتشف

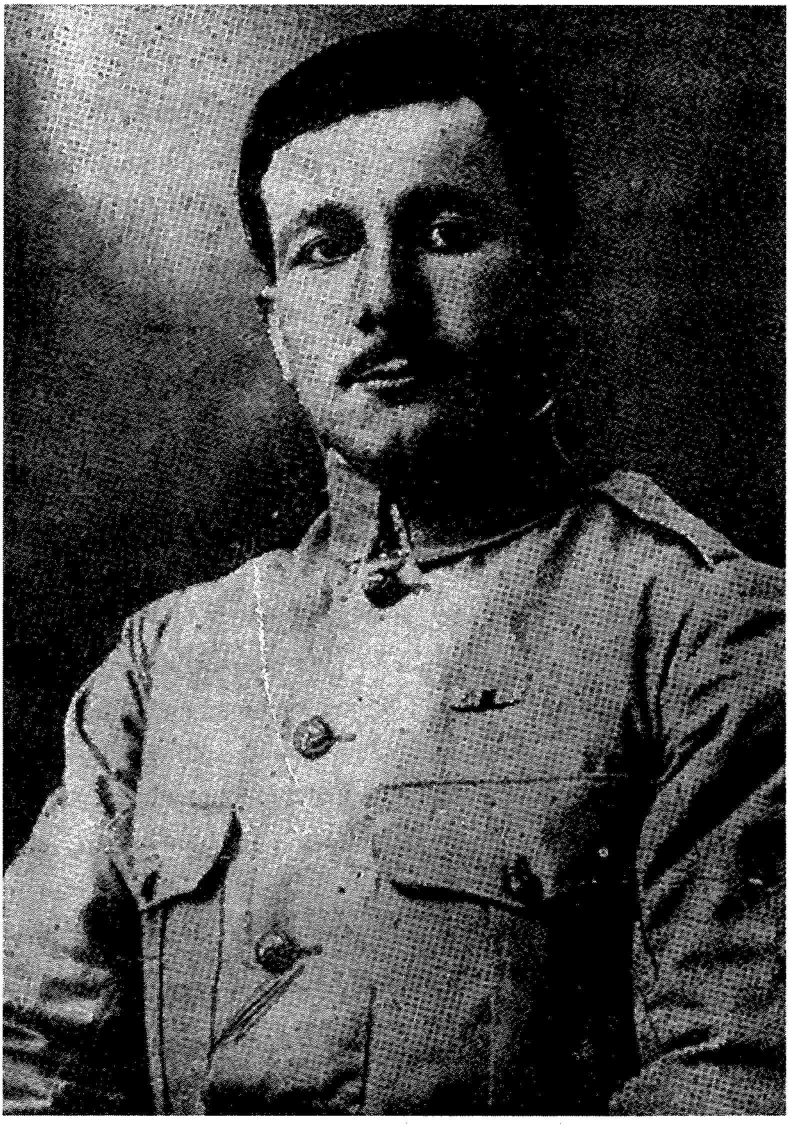

شقيق النقيب طوروسيان، الرقيب بارسيغ طوروسيان. قاتل بشجاعة في فلسطين وعند جبهة كيليكيا. نال أوسمة من إنكلترا وفرنسا

بحلول ذلك الوقت مدى مدفعيتنا وبدأ بقصفنا.

كاد الوضع يصبح حرجاً حين توقفت مدفعيتهم عن القصف، مفترضة، وفق تقديري، أن صمتنا يعني أننا ننسحب. وانتشرت بسرعة فرقة من الجنود الهنود، وتسللت صعوداً إلى سفح الجبل بحثاً عن ملجأ بين الصخور والأشجار. وأطلقت بنادقنا الآلية النار من مكامنها، ولكن قبل أن ننزِل أي ضرر جدي، انسحب الهنود في فوضى مذعورة.

في اليوم التالي حلقت طائرات بريطانية فوق موقعنا وقصفتنا مجدداً. وخلال القصف، جُرِحتُ مجدداً، هذه المرة في يدي، وكان الجرح من الجراح المزعجة التي تضطر المرء إلى مراجعة المستشفى الميداني في كل يوم لتضميدها.

واستمر القتال لثلاثة أسابيع على جانبي النهر وشاركت بطارياتي أخيراً في المعركة. وجرت أهم المعارك في ٢٠ تشرين الثاني، وتكبد خلالها الأتراك خسائر فادحة.

لكن الإنكليز صدُّوا أخيراً، فالأعمال العدائية توقفت مؤقتاً على الأقل، وسررنا بالباقي.

وأثار الهدوء المفاجئ على امتداد جزئنا من دجلة شبهات سرعان ما أُكِّدت. لقد حاول العدو جذب وحدات تركية ثقيلة إلى منطقة ممر الفتحة فيما بدأوا تقدماً ملحوظاً إلى فلسطين للاستيلاء على القدس ودمشق.

وبصفتي عسكرياً سابقاً، يروي تجارب عند جبهات قتالية، أفترض أن عليّ تذكّر أحداثاً في معركة (ممر الفتحة) لها علاقة أكبر من الخنازير، مجرد

الخنازير، ولكن وبكل صدق لا أتذكر، أو أن سائر الأحداث طغت عليها على الأقل، ذكرى خنازير، خنازير برية، قطيع كامل منها.

أولاً، هل لي أن أستطرد؟ لا أذكر إن كان هذا هو الاستطراد الثالث أم لا، أم الـ١٣، ولكن الاستطراد واجب عليّ إن كانت للحادثة التي سأرويها أي أهمية.

لا يحب الأتراك الخنازير؛ أعتقد بأن الشعور ليس شخصياً بل دينيّ، ما يجعل الكره أشد وأعمق. لا أعرف إن كانت الخنازير تحب الأتراك أم لا؛ لا أعتقد أيضاً بأن ثمة أي مرجع حول الأمر. أما بالنسبة إلى أي تركي محمدي، فالخنزير حيوان قذر؛ يقول دينه ذلك، وأنا خبير ضعيف في هذا المجال لأوكد الأمر أو أنفيه.

لكن ثمة فضائح في أفضل الأديان، وثمة ثرثرات خلفية، وكان المسيحيون، على ما أظن، أول من نشر فضيحة تقول إن المحمدية تكره الخنازير لا لأن الخنزير قذر افتراضاً بل لأن خنزيرين بريّين خدعا محمد خدعة دنيئة في الأيام الأولى حين كان لا يزال يحاول الانطلاق.

وها هو استطرادي حول ليلة الخنازير في ممر فتحة. وحصل الأمر كله، بالمناسبة، خلال أيام هجمات الأعداء على مواقعنا.

غزت قطعان من الخنازير البرية جوار ممر فتحة وأزعجت المؤمنين عموماً.

ثم جاء الحجة، أي رجل الدين، الخاص بفوجنا، وبقي معنا في موقعنا خلال الهجمات. وصلّى رجل الدين هذا يومياً لله الأكبر ليبعد الخنازير البرية

الكريهة هذه بعيداً عن ممر فتحة وعن طريقنا. لكن خللاً ما حصل، فإما أن الحجة لم يكن يسير على الصراط المستقيم في حياته، أو أن نيران المدفعية في ذلك اليوم أبقت الله بعيداً عن السمع، فعند الساعة العاشرة والنصف من إحدى الليالي، وبعدما طلبنا جميعاً راحة كنا نشدها في خيامنا الميدانية عند مخل كهف قديم، أيقظتنا ضربات ثقيلة لحوافر. ولم يكن من وقت للتفكير أو التخطيط في ما يجب عمله؛ هاجمت الخنازير المعسكر بشراسة، فمزقت الخيام، واقتلعت خياماً وأشجاراً.

تناولت مسدسي وصحت أوامر، ولكن الأتراك كانوا فوضويين مثل الخنازير. وفي كل مكان نظرت إليه، وجدت تركياً يحاول إخفاء نفسه عن مرأى الحيوانات؛ بسبب تدينهم المتشدد، أُصيبوا بنصف جنون من الزيارة التي تلقوها. ووجدت الحجة يلمّع عمود الخيمة ويدعو الله أن يحمي حياته.

وطُرِدت الخنازير في النهاية، ولكن لم ينم أحد لساعات، فالحجّة صلى بصوت عالٍ لئلا تعود الخنازير، التي يأنف المسلمون ذكرها بالاسم. وأمر بنقل خيمته إلى منحدر صخري وأصر على أن تُغسل متعلقاته كلها وتُطهَّر في تلك الليلة. وفي آخر مرة رأيته فيها، كان يقفز على أصابع قدميه صاعداً السفح وهو يخشى من أن يدوس على آثار حوافر الخنازير.

كما قد تقولون بالعامية، يا لها من ليلة! هي أكثر ذكرى راسخة عن معركة «ممر فتحة».

الفصل الثاني عشر

لقائي بشقيقتي في الصحراء

أُمِرت الفرقة الـ٤٦ بالعودة إلى المقر العام للجيش في الموصل والانتقال من هناك إلى الجبهة الفلسطينية. غادرنا ممر فتحة في ٩ كانون الأول ١٩١٧.

لم تقلقنا العودة إلى الموصل، ولكن ما من ضابط أو رجل لم يخشَ تكرار تلك المسيرة من الموصل إلى تل حليف. ولحسن الحظ، كان الطقس أكثر اعتدالاً، وكانت المعاناة من المرض والحر محمولة نسبياً. وحققنا تقدماً أسرع بعدما تعودنا ذلك السير في الصحراء.

حين وصلنا إلى تل حليف، وجدنا المكان في فوضى من الجنود المتدفقين المنتظرين دورهم ليُنقَلوا إلى جبهات مختلفة. وسُدَّت مرائب السكك الحديد لأميال بقطارات الإمدادات والمؤن العسكرية. وامتلأت معسكرات الانتظار وفاضت. وبدا من ظاهر الأمور أن فرقتنا ستنتظر لشهر أو أكثر

قبل أن يصبح بالإمكان نقلها إلى فلسطين.

تمركزت بطارياتي في قرية كردية صغيرة تبعد خمسة أو ستة أميال عن المقر العام لفرقتي، وكانت القرية مكاناً هادئاً ومريحاً.

واقترب عيد الميلاد المسيحي، وكان قلبي مثقلاً بكثير من الأمور؛ غياب جميلة، وموت محرّم، واختفاء والديّ وشقيقتي، وخسارة أصدقائي. وكان العالم ليغدو مكاناً موحشاً بها لا يُطاق خلال عيد الميلاد ذلك لو لم يعطِ القائد التركي إجازة لثلاثة أطباء أرمن ليمضوا العيد معي. وكان لكل منا قصته الحزينة ليرويها، وحمل كل منا في ذهنه صورة مطبوعة غير قابلة للمحو عن الوجوه المنهكة والمحزنة للاجئين من مواطنيه.

وخلال محادثتنا، أشار أحد الأطباء إلى أنه سمع عَرَضاً ضابطاً تركياً يقول لآخر إن بضع مئات من اللاجئين الأرمن كانوا يعيشون في مخيم على السفح غربي تل حليف فيما كانوا يعملون بخطوط السكك الحديد.

واقترحت أن ما من عمل أفضل لنا سوى طلب أحصنتنا والانطلاق. وأعتقد بأن في أعماق قلبي كان ثمة أمل لا يزال قائماً بأنني قد أعثر على والديّ.

كان الوقت أول بعد الظهيرة في أحد الأيام، والطقس ربيعياً مشمساً ومعتدلاً كالربيع. سرنا بأحصنتنا بسرعة مريحة، ومن وقت إلى آخر، كنا نتوقف لنستطلع التلال بالمناظير. وأخيراً عثرنا على بقعة رمادية منفردة في المدى، وتوجهنا إليها حتى استطعنا أن نرى الحدود الخارجية لصف طويل من الخيام.

كانت الشمس الدافئة على وشك الاستسلام للغسق، في ساعة كئيبة، حين ترجلنا قرب ممر وعر وحجري من جهة المدخل الخلفي للمخيم. ودلنا حارس إلى منازل النساء وكانت عبارة عن أكواخ من جذوع الأشجار وراء الخيام.

طرقت باب أكبر الأكواخ، وسُمِع صرير مزلاج ثقيل، وفُتِح الباب قليلاً. قابلتنا امرأة عجوز بدا وجهها المجعد مسبوكاً بخوف أزلي.

حييتها بالأرمنية: «ميلاد مجيد».

لم أشهد تحولاً مماثلاً من قبل؛ بدا وجهها الشبيه بورقة مجعدة أصغر سناً فجأة، على الرغم من أن ذلك كان، على ما أعتقد، وهماً خلقه اللمعان المشرق الذي حل بعينيها المتعبتين والذابلتين والمملوءتين خوفاً.

أجابتني بصوت مرتجف: «ميلاد مجيد. عمّن تبحث؟».

طمأنتها إلى بزتي وقلت لها إنني أبحث عن نساء من إفيريك.

قالت لي: «يا بني، لدينا هنا نساء كثيرات من ملطية وسيواس وقيصرية ومرسيفون، وامرأة واحدة من إفيريك، هي فتاة شابة جداً. هل أناديها؟».

تدربت كعسكري وترعرعت وسط التقاليد التركية، وإلى يومنا هذا لا أبدي مشاعري بسهولة، ولكن فيما رجوتها أن تسرع، بدأت أتعرق واصطكت أسناني. ربما كان الأمر هو التوتر غير المعقول لشهور خلتْ.

كان الأمر التالي الذي وعيته تماماً فتاة نحيلة بنيّة الشعر وزرقاء العينين،

تقف أمامي، محمرة وخجلة وخائفة من بزاتنا. لم أجرؤ على الثقة في حواسي، ففي عينيها رأيت التعبير الخاص بأمي. لم أصدق أنها يمكن أن تكون شقيقتي، الشقيقة الطفلة التي رأيتها آخر مرة حين كانت لا تزال فقط في الثامنة من عمرها. لكنها وقفت هناك أمامي في ثياب فلاحية رثة، شابة تحمل عيني أمي.

تمكنت أخيراً من أن أسألها في نبرة تبدو طبيعية: «هل لك أن تقولي لي ما اسمك؟».

قالت في شبه همس، وصوتها ناعم وخجول: «بايزر طوروسيان، وكنت أسكن في شارع تيكيشيه بإفيريك».

كانت شقيقتي، ولكن لسبب مجهول استمررت في الاستجواب.

سألت، عارفاً قسوة سؤالي: «وهل سائر عائلتك معك؟».

قالت: «أبي وأمي ماتا. لدي ثلاثة أشقاء في أميركا وآخر كان ضابطاً في الجيش التركي، ولكنه قُتِل في معركة الدردنيل. أنا وحيدة».

أظن أنها، قبل أن يعي أحد ما كان يجري، ارتمت بين ذراعيّ وبكت كأن قلبها على وشك الانفطار.

كل ما استطعت قوله كان: «أنا شقيقك». وظللت أردد العبارة ببطء وأظن بقليل من الأسى. لم أكن قاسياً، ولكن العاطفة التي شعرت بها لم تكن كلها متجذرة في الحب الأخوي. شعرت بأنني انتزعت شيئاً من الحكومة التي كنت أكرهها تدريجياً.

كنت شبه متأكد أنها كانت تجهد لتحرير نفسها وأنني أخفتها في شكل مرعب.

أطلقتها وأمسكت يديها.

«ألا تعين، يا حبيبتي، أنني شقيقك، الشقيق الذي ظننت أنه قُتِل؟ بايزر، يجب ألّا تخافي، فأنا شقيقك. يجب ألّا تخافي بعد الآن، بايزر، فأنا جئت لآخذك».

حاولت أن أجعل صوتي حنوناً في شكل لامتناه، فيما كررت أن مشاكلها انتهت أخيراً وأنها بأمان.

قلت بفخر: «لن يجرؤ أحد في تركيا كلها على لمس شقيقة النقيب طوروسيان».

بعد ساعة من وصولي إلى المخيم في التلال، كانت بايزر تمتطي الحصان أمامي فيما كنا نعود أدراجنا، أصدقائي وأنا. اختلط الحزن والفرح في قلبي فيما قفلنا عائدين إلى المعسكر. كان ثمة أسف كبير لفقدان أمي وأبي العزيزين، ولكنني كنت سعيداً لعثوري على شقيقتي الغالية. تركني الأطباء عند أطراف القرية وعادوا إلى مواقعهم. ومضينا بايزر وأنا إلى البيت الذي كان فيه مقري، ووصلت إلى هناك قبيل منتصف الليل.

وبدأت في هذه الأثناء تثق بي إذ أخبرتها قصصاً عن المنزل تذكَّرَتها أيضاً. وفي ضوء مقري حيث جعلت وصيفي يسهر على راحتها، وغادر الخوف عينيها اللتين أصبحتا الآن متحمستين ولامعتين، قالت لي إنها بدأت تتذكر قسماتي.

جلسنا معاً وشربنا الشاي، ناسيين الوقت، فيما أخبرتني عن تنقلاتها. وأورِد تنقلاتها باختصار أكبر مما يجب، ربما، ولكن بكلماتها بمقدار ما أتذكرها:

في ٥ تشرين الثاني، أرسل قائمقام إفيريك رسالة إلى منزلنا تحمل خبر مقتلِك في معركة الدردنيل. وبما أننا فقدنا الحماية التي كان يؤمّنها لنا اسمك، أُمِرنا باعتناق المحمدية فوراً، وكان يجب تزويجي فوراً إلى شاب مسلم.

كان أبي وأمي يقاومان هذه المطالب لشهور، وتعبا من الزيارات إلى البلدية لترجي الرحمة، طارحين اسمك كحماية.

وتراجعت صحة أمي من القلق، وعومِل أبي بخشونة. لكنهما واظبا على مقاومة القائمقام ولم يُرحَّلا. وكانا أحياناً يبقيانني مختبئة في منزل أحد الجيران لأيام كل مرة.

ويوم أرسل خبر مقتلك، كنت في المنزل. أعاد أبي وأمي الرسول بالإجابة السلبية التي كانا يعطيانها دائماً، واستعددنا للفرار. وشعر أبي بأننا يمكن أن نغادر تلك الليلة، ولكن خلال ساعة، عاد ضابط وثلاثة حراس، وأُجبِرنا على مرافقتهم. والتحق بنا ثلاثة حراس آخرين وسرنا عبر الشوارع إلى الطريق السريعة المكشوفة.

خارج المدينة، شعر أبي بخوف شديد على سلامتنا، واقترب من أحد الحراس الذي كان يعرفه بالشكل لسنوات، وحاول أن يعرف ماذا كانوا سيفعلون بنا وأين كانوا يأخذوننا.

حاول الحارس أن يكون طيباً معنا، ولكن كل ما استطاع أن يخبرنا به كان أنّ علينا أن نسافر لـ١٢ يوماً على الأقل حتى نصل إلى مدينة سيس، حيث كان يجب تسليمنا إلى حاكم ذلك المكان. كانت رحلة مرهقة.

كانت أمي لا تزال ضعيفة من التوتر فانهارت حين وصلنا إلى هناك، وسُمِح لنا بالاستراحة لبضعة أيام قبل أن نُؤمَر بالمواصلة.

وجاء حراس جدد، أقل لطفاً من الآخرين. وواصلنا السير، وكان الهدف هذه المرة مدينة إصلاحية، ولكن مصيرنا كان لا يزال مجهولاً. وكانت الرحلة إلى إصلاحية صعبة، على الرغم من أن المسافة تساوي جزءاً بسيطاً من المسافة بين إفيريك وسيس. لقد أزعجنا الحراس وآذونا كلما استطاعوا ذلك، وأصبحنا تعبين جداً. وكنا نُطعَم مرتين يومياً وكميات قليلة.

في إصلاحية، اقتُدنا عبر الشوارع إلى مخيم احتجاز حيث قالوا إن ثمة ألفي لاجئ ينتظرون الترحيل. وذهب الضياع والتوتر بما بقي من قوة قليلة لدى أمي فانهارت مرتين. لقد أصبحت مجرد هيكل عظمي؛ كنا جميعاً كذلك ولكنني كنتُ الأفضل حالاً. وصلنا إلى مخيم الاحتجاز في الصباح وبحلول الظهيرة كنا نجرّ خطانا المرهقة في المسيرة الحزينة لناس مرهقين شبه جياع، يمشون في شكل متثاقل في طريق مكشوفة لا يعرف أحد إلى أين تفضي.

وعلى بعد خمسة أميال تقريباً خارج أسوار المدينة، أُمِرنا فجأة بالانتظار. لا أعرف ما حدث بعدها. أظن أن الخطين الطويلين للحراس تراجعا. والشيء التالي الذي أعرفه كان أزيز الأسلحة النارية، ربما كانت مدافع صغيرة أو بنادق آلية، أو بنادق، لا أعرف. كان الصراخ رهيباً. أنين، دماء، أسلحة نارية، دفعات دخان، قتلى، جرحى - لا أعلم. لم أعرف قط أن العالم يمكن أن يكون مكاناً وحشياً كهذا. بدت النساء والأطفال والصغار يتهاوون كشخوص ورقية تدفعها الريح أرضاً.

لم أنهَر فعلاً، فأنا، إذ وقعت بين الجثث على الأرض، كنت واعية. تمددت إلى جانب شخصين ميتين، أظن على الأقل أنهما كانا ميتين وقتئذ. دفنت وجهي في الأرض ثم بدأت الدماء تسيل. شعرت بها تتسلل على خدي باتجاه شفتيّ وأردت أن أصرخ وأهرب، ولكنني كنت خائفة جداً. تساءلت إن كانوا سيقتلونني بعدئذ.

لا أعرف كم من الوقت توقف إطلاق النار قبل أن أتنبه إلى الأمر. كان الغسق قد أصبح ليلاً تقريباً. مر وقت طويل قبل أن أرفع رأسي. لم يكن من جندي ولا ضوء في المكان. وبين وقت وآخر كنت أسمع أنين شخص يموت، على ما أعتقد. عرفت أن الأتراك سيعودون ليرفعوا الجثث. وتساءلت إن كان ثمة آخرون محظوظون مثلي وأصبحت أجرأ. ناديت أبي وأمي. لم يردّ أحد في أي مكان، ولم يتحرك أحد. وجدت قنينتي ماء

وانتزعتهما من جثث، وأنا أصيح كل الوقت. ثم بدأت أعدو بأسرع ما أمكنني باتجاه الجبال. جريت ومشيت حتى منتصف الليل إلى أن وصلت إلى الجبال، ولم أتوقف قط عن البكاء. وحين أصبحت وحدي في الغابات، بكيت حتى غفوت. ومنذئذ وحتى رأيتك الليلة، لم أبكِ قط.

طفت في هذه الجبال لأسبوعين، وكنت خائفة إلى درجة لم أستطع معها معرفة ما كان يجب أن أفعل. أكلت ثماراً وعشباً وأي شيء. لم أعرف قط أن شخصاً يمكن أن يجوع إلى هذه الدرجة ويبقى حياً.

في أحد الأيام، سمعت إطلاق نار. كنت يائسة إلى درجة أنني لم أرغب في الاختباء، فمشيت كالعمياء باتجاه الأصوات. توقفت الأصوات بعد وقت، ولكنني تابعت السير. أخيراً تأكدت من أنني سمعت شخصاً يئن. توقفت وأصغيت، ثم رأيت رجلاً على بعد أقل من ٢٠ قدماً حيث كنت أقف. كان ظهره باتجاهي، واستطعت أن أرى أن ذراعه كانت مجروحة، وأنها كانت تنزف بغزارة. لم يكن يلبس بزة جندي، فذهبت إليه بأسرع ما استطعت، وأنا أمزق قطعاً من ثيابي يمكن استخدامها كضمادات.

حين اقتربت، وعلى الرغم من ضعفه الشديد، رأيته يستل بندقيته ويحاول الاستدارة ومواجهتي. لكنني عرفت وقتئذ أنه أرمني أيضاً، وناديته. ساعدته في تضميد جرحه بمقدار ما

استطعت وأعطيته ماءً. كان ضعيفاً من فقدان الدماء واسترحنا هناك حتى المساء.

قال لي إنه قدم من جبل رواندز الأرمني، وإنه هو وعدد من الشبان الآخرين سرقوا أسلحة وأطعمة وجاؤوا إلى هذه الجبال فراراً من المجازر. وطاردهم الأتراك، وقُتِل كثيرون منهم.

وأخبرني عن كهف في الجهة المقابلة من التلة حيث كان يعتقد بأن رفاقه الناجين قد يكونون، وهكذا وقبيل حلول المساء، انطلقنا معاً.

وجدنا الكهف و٤٠ رجلاً أرمنياً وطعاماً وترحيباً.

وبعد بضعة أيام، خرجنا بحثاً عن مكان آمن. حاولنا البقاء في الطرق الجبلية وتجنب القرى الكردية والتركية، ولكن دورية تركية اكتشفتنا يوماً وطاردتنا. اختبأت بين الصخور في وهدة ضيقة وانتظرت. وسمعت أصوات القتال، وإطلاق النار من البنادق والصياح. وتلاشت الأصوات وبقيت كل النهار منتظرة، مقرفصة هناك وحدي، فالرجال قالوا إنهم سيعودون إليّ. وعادوا حين حل الظلام تقريباً؛ عاد خمسة منهم، فالآخرون قُتِلوا.

سافرنا عبر الجبال يوماً بعد يوم، وفي كل يوم كان تعبنا يزداد وكذلك آلام أقدامنا وجوعنا. لا أحد يعرف كيف وصلنا إلى ذلك المخيم حيث وجدتني، ولكنه مثُل أمام أعيننا في بعد

ظهيرة مشرقة. ومضى الرجال إلى العمل في الطريق وآوتني النساء في كوخهن. وبعد ذلك وحتى قدومك، لم يحصل شيء. عملنا جميعاً وجُعنا وتساءلنا وخفنا. ولم يكن كل يوم أكثر من خوف من اليوم التالي. فكرت كثيراً في أشقائي في أميركا، ولكن بالنسبة إليّ، ربما يكونان قد ماتا أيضاً. ثم أتيت أنت. أنا الآن خائفة جداً، وأنا سعيدة جداً.

إن قصتها كما رويتها ميتة من دون نار، ضائعة في ذاكرتي ومتشابكة مع الخيوط الدقيقة للكلمات التي تفر مني في شكل ما، هي الرحلة الطويلة، الرومانسية والمأساوية، لشقيقتي الجميلة الزرقاء العينين. ليست لدي القدرة على روايتها كما روتها لي؛ سواد تلك الجبال ليلاً؛ الذعر من المجزرة التي فرت منها؛ الغربة اليائسة في تلك الجبال. ويبدو في أفضل الأحوال أنني لا أستطيع سوى تقديم الخطوط الخارجية المجردة لما يجب أن يبدو لأميركي قصة غير قابلة للتصديق.

لليلة الأولى منذ شهور، حظيت بالراحة وبغرفة خاصة بها. وبعدما مضت إلى الفراش، جلست لوقت طويل أقلّب فكرة مُرّة وغير مثمرة؛ أن أنشقّ عن الجيش التركي لم يكن كافياً، فعليّ أن أنتقم. تذكرت نوري يوسف، العربي، الرائد نوري بك في الجيش التركي وتساءلت إن كان يجلس في خيبة أيضاً ويرغب في الانتقام، أو إن بدأ حتى في قيادة شعبه سراً!

قبل ظهيرة اليوم التالي انتشر خبر عثوري على شقيقتي في الأوساط الرسمية. وبعد أيام قليلة على وصولها، فوجئت في صباح أحد الأيام برجل غريب يزورني معرّفاً عن نفسه بأنه عربي صديق، عاد لتوه من بغداد. وأخبرني أنه

سمع في القرية أنني أرمني يبحث عن والديه، وأنه مر بي لمجرد أن يقول لي إن ثمة عدداً لا بأس به من اللاجئين حوالى بغداد؛ كان يمكنني البحث هناك.

لفتتني فصاحة كبيرة في كلامه، وقدرته على تحويل النقاش إلى قنوات يرغب فيها. وذكر الجيش الإنكليزي وقال إنه سمع أنهم كانوا يدفعون كميات جيدة من الذهب في مقابل خدمات الضباط الأجانب الذين يعرفون جغرافية البلاد أو يقدرون على كشف معلومات عسكرية قيّمة.

بحلول هذا الوقت، اقتنعت بأنني أستقبل عضواً في مكتبنا الاستخباري، وقلت لنفسي إن اللحظة المناسبة للانشقاق عن الأتراك لن تحل بسبب الذهب الإنكليزي بل من أجل حساب ضخم عليّ تسديده.

شكرته للطفه وقلت إنني سأتقصى بالتأكيد مخيمات الأرمن حوالى بغداد فور وصولي إلى هناك، ولكنني ذكّرته بأنني في الوقت الحالي ضابط في الجيش التركي ويجب أن ألتزم بالواجب بصرامة.

بدا مقتنعاً بصدقي؛ بالتأكيد نظر إليّ في شكل مقرب كفاية لتكوين استنتاج ما.

وما أن غادر، أرسلت دورية وراءه، وخلال ساعتين تأكدت شبهاتي؛ مضى الرجل مباشرة إلى المقر العام للواء.

الفصل الثالث عشر

الجبهة الفلسطينية

في ٣ شباط ١٩١٨، أُمِرتُ بتجهيز رجالي للانتقال إلى الجبهة الفلسطينية.

وفي ٥ شباط، استقللنا قطارات وتوجهنا إلى هناك. وخلال هذه الرحلة، عرفت للمرة الأولى أنني على الرغم من كل شيء، قد أنال فرصة لتعزيز الاستقلال القومي الأرمني بأسرع مما كنت أتوقع. فقد أجريت محادثة مع ضابط من مكتب الاستخبارات أصبح قابلاً لكشف الأسرار إلى حد كبير بعدما أفرط في شرب الويسكي.

أسرّ لي القول: «تبدو الأمور ملتبسة بالنسبة إلى هذه المهمة. فليس الحلفاء وحدهم في مقابلنا بل كذلك جيش قوي من المتطوعين الأرمن من أميركا. وإلى جانب ذلك، ثارت أغلبية القبائل العربية القوية واتحدت تحت قيادة الخائن نوري يوسف وجعفر وعلي رضا وسعيد نوري وقدير. إن الشيوخ

العرب ثائرون علينا. حتى القبائل الأضعف والناس في هذا الجزء من البلاد ضدنا ويرفضون بيعنا الطعام، مدعين أن عملتنا لا قيمة لها».

لم أعرف من قبل ولا بعد عن رجل يشرب الويسكي ثم يتحول إلى رجل آخر بهذا الشكل.

تعاطفت مع رفيقي المخمور وقلت لنفسي إن ساعتي قد تحين قريباً.

بعد ١١ ساعة وصلنا إلى حلب، وعسكرت فرقتنا في محيطها لـ١٠ أيام قبل أن تتقدم أكثر.

وبسبب مشكلة تقديم عناية جيدة إلى شقيقتي، عانيت لليالٍ كثيرة، فأخرت حركتي الحاسمة يوماً بعد يوم. وبدا واضحاً لي في شكل متزايد أنني لا أستطيع الاستمرار بإبقائها معي، ولكنني بعد عثوري عليها، ترددت في الافتراق عنها. لقد أصبحت أكثر من شقيقة لي؛ لقد أصبحت رمزاً، فرداً من شعبي أخذته من الأتراك؛ شخص لم يجرؤوا على القضاء عليه وأنا بقربه.

عرفت أنني لا أستطيع ولا أقدر أن آخذها معي إلى الجبهة، ولم أرغب كذلك في تركها وحدها في حلب. أعددت طلباً إلى الحاكم العسكري المعين لحلب، أطلب تمهيد طريق آمنة لها إلى القسطنطينية، حيث يمكنها أن تعيش مع أصدقائي وأن تكون آمنة وسعيدة معهم. ووافق رؤسائي الضباط فوراً على طلبي، وتوقعت أن تبدأ ترتيبات السفر.

وفي اليوم التالي، أُعيدَ طلبي مع الرفض الفظ التالي:

«إن سفر الأرمن إلى القسطنطينية ممنوع بصرامة، ونقترح أن يصطحب

النقيب طوروسيان شقيقته معه إلى الجبهة، أو يتركها متمركزة هنا في إحدى القرى المجاورة».

كان الرفض غير دبلوماسي، فهو انعكس على احترام فرقتي وسلطة قائدي الذي كان ودوداً جداً معي. وعرفت أنه سيشعر بإهانة كبرى، ولكنني لم أتوقعه أن يتدخل إلى درجة كبيرة كما فعل.

قال وعلى وجهه إمارات الغضب: «إن هذه، أيها النقيب طوروسيان، إهانة فظيعة؛ هو عمل جائر وغير مبرر وغير مناسب. نحن جنود، وحين ينكر أحد الموظفين المتسمين بالصلف والأبهة علينا أبسط تدبير فيما نحن نخاطر بحيواتنا لنحميهم، فقد بلغ الاحتمال أقصى حد».

أمرني بأن ألحق به، ورافقنا نحن الاثنين كثيرون من أركانه، وتوجهنا إلى مكتب الحاكم. قاد حصانه بسرعة أمامنا، ولكن أبقى ياقته مرفوعة، ووصلنا في دوامة من الغبار.

مضى قائدنا عبر الحراس بعجلة شديدة ولحقناه. توقعت أن يحصل أي شيء، وكذلك فعل الخفير خارج مكتب الحاكم، على ما أعتقد، حين وصلنا إليه.

أصبح صوت القائد جافاً. قال: «هل سيدك في الداخل؟ تكلم بسرعة أو سأستخرج الكلمات من حلقك».

كان الجندي يافعاً إلى درجة أن الزغب كان لا يزال على خديه. امتقع لونه، ووفق ما أذكر، لم ينبس ببنت شفة، مكتفياً بفتح باب الردهة المفضي إلى المكتب الرئيسي.

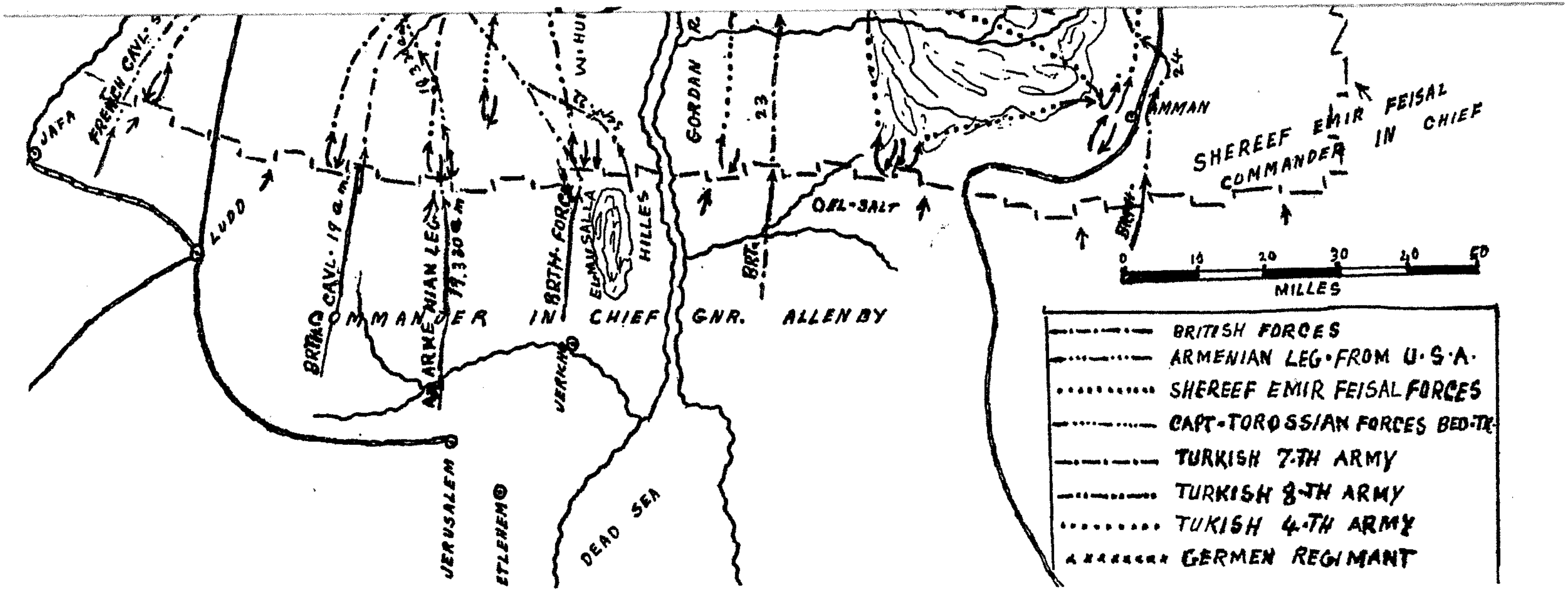
JAFA
FRENCH CAVL.
LUDO
BRTH. CAVL. 19 a.m.
COMMANDER IN CHIEF GNR. ALLENBY
ARMENIAN LEG
19.330 a.m
BRTH. FORCE
EL-MUSALLA
HILLES
W. HU
GORDAN R
23
BRT.
OEL-SALT
AMMAN
24
SHEREEF EMIR FEISAL COMMANDER IN CHIEF
JERUSALEM
ETLEHEM
JERKHO
DEAD SEA
0 10 20 30 40 50
MILLES
BRITISH FORCES
ARMENIAN LEG. FROM U.S.A.
SHEREEF EMIR FEISAL FORCES
CAPT-TOROSSIAN FORCES BED-TK
TURKISH 7-TH ARMY
TURKISH 8-TH ARMY
TUKISH 4-TH ARMY
GERMEN REGIMANT

كان الحاكم جالساً عند مكتبه حين اقتحمنا عليه غرفته، وكرجل هزّه وتَر، هب واقفاً على قدميه محيياً.

لم يرد القائد التحية بل رمى طلبي على المكتب، وأظن أنه طلب بنبرة وقحة ومهينة أن يعرف إن كان التوقيع تحت التذييل توقيعه.

وقبل أن يتمكن الحاكم من الرد، سحب قائدي مسدسه، وللحظة لم أعرف إن كان الحاكم أُصيب برصاصة، فهو ارتمى على كرسيه متمتماً: «أي توقيع؟».

قال القائد: «اقرأ هذا، ثم اجرؤ على إخبارنا سبب إهانتك ضابطاً في الجيش».

أصر الحاكم على أنه لم يقرأ الطلب قبل أن يوقعه، واستعطف السماح بذل، ووعد بإجراء تصويبات فوراً وإرسال شقيقتي إلى أي مكان تريده.

قال له قائدي: «ستفعل ذلك بالتأكيد، أو سآمر بإعدامك في الساحة العامة». وعرفنا جميعاً أنه قد يفعل.

بعد انتهاء الحادثة، بدأت أندم على تسرعي. كانت القسطنطينية تبعد ٤٠٠ ميل على الأقل وسأكون قريباً عند الجبهة. ويمكن لضابط تركي مهان أن يرتب حصول أنواع الحوادث كلها لفتاة أرمنية تحظى بمرافقة تركية خلال رحلة بهذه المسافة. وكان مقرراً أن يبقى في حلب ضباط من الجيش التركي كانوا أصدقائي، وكانت ثمة عائلات أرمنية كثيرة لم تتعرض إلى مضايقة. تركت بايزر مع إحدى هذه العائلات، واثقاً بأنها ستحظى بحماية وعناية.

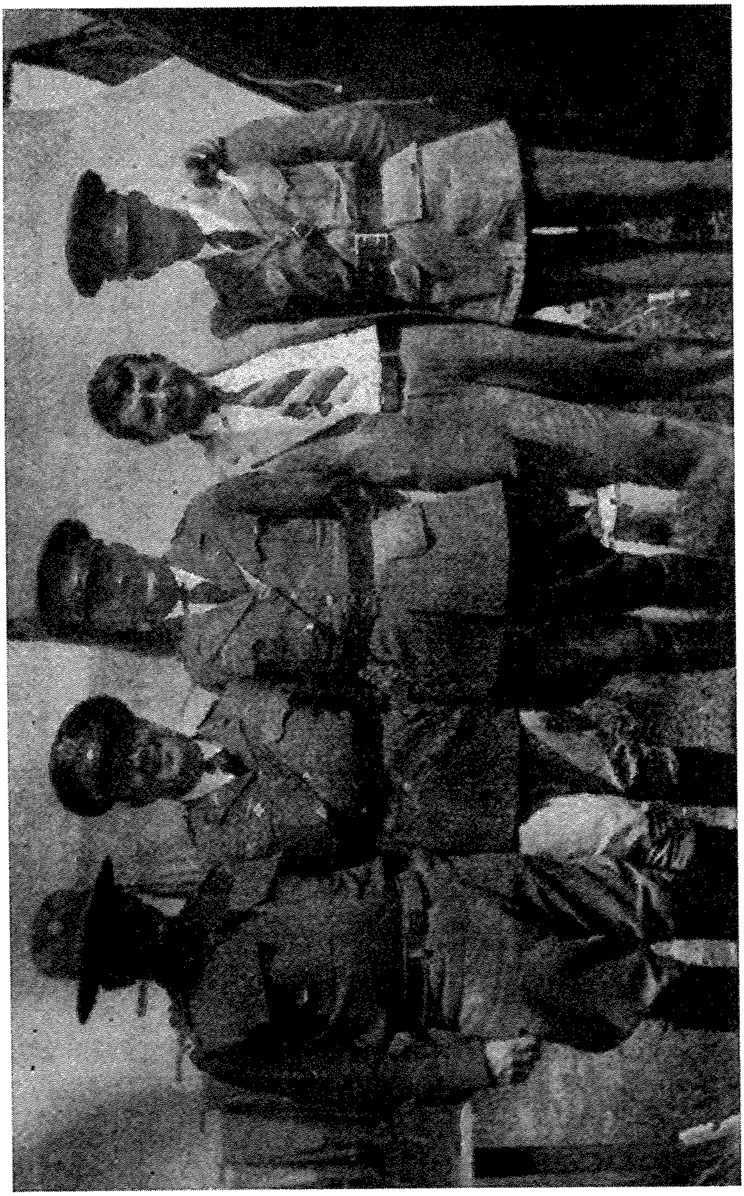

النقيب طوروسيان مع مجموعة من ضباط الجيش الأميركي في أحد المعسكرات

بكت حين افترقنا، ولا أظن من الخوف، فهي عرفت المخاوف كلها وعانتها، بل من الوحدة.

في ١٧ شباط ١٩١٨، تابعت فرقتنا سيرها على الأقدام إلى دمشق. ووصلنا بعد ١٠ أيام، واستقررنا في معسكر خارج المدينة في انتظار أوامر إضافية.

في أول إجازة لي، قدت حصاني إلى دمشق لأفهم أكثر الوضع هناك ولأرى إن كانت ثمة شائعات إضافية تدور حول الثورة العربية.

كان كل ما وجدته الآلاف من اللاجئين الأرمن مجمَّعين في جزء قذر من المدينة ومحتجَزين هناك في ظروف لا تُصدَّق. تحريت الأمر ووجدت حوالى ٥٠ شخصاً مجمَّعين في قذارة غرفتين وبؤسهما، من دون نظافة مناسبة أو تهوئة مناسبة، وكان مسموحاً لهم الحصول على كميات من الطعام تكفي بالكاد لبقائهم أحياء. وبدا جيش كامل من الحراس الأتراك متمركزاً في الحي مانعاً السجناء حتى من الخروج إلى العراء.

حين عدت إلى المعسكر، ناقشت الأمر مع قائدي الذي وافق على مرافقتي إلى مكتب الحاكم العسكري لنعرف السبب وراء اعتقال هؤلاء الناس.

لم نجد الحاكم العسكري في مكتبه حين ذهبنا إليه في اليوم التالي، ولكن محادثتنا مع سكرتيره كشفت أن اللاجئين كانوا معتقلين بأوامر من وزارة الحرب في القسطنطينية.

بدا أن أي فعل غير ممكن. لكنني ناقشت الأمر مع ضباط ألمان ونمساويين كثيرين من ذوي الرتب العالية، وعرفت منهم أنهم كانوا لأسابيع يتواصلون

مع وزارة الحرب لمصلحة مواطنيّ.

وفيما ازدادت مرارتي إزاء الأتراك كذلك ازدادت أعمالي لمصلحة مواطنيّ؛ وكذلك ازداد أعدائي.

وبعد فترة قصيرة على زيارتي مكتب الحاكم العسكري، دُعينا زملائي الضباط وأنا إلى عشاء على شرفنا نظمته مجموعة من التجار الأثرياء. وأُبلِغنا أن العشاء سيكون فخماً ويشمل رقصاً وموسيقى. كنا ١٤ ضابطاً امتطينا أحصنتنا تلك الليلة مرتدين أفخر بزاتنا وحاملين كالعادة مسدساتنا وسيوفنا.

أُشير إلينا بالتوجه إلى منزل يشبه القصر في أفخم أقسام دمشق.

وفي البداية، لم يبدُ أن أي شيء غير مؤاتٍ، باستثناء أن التجار بدوا لي في سلوكهم ومحادثتهم ذوي علاقة قليلة بالتجارة؛ بدوا أكثر عسكريين أو بيروقراطيين.

وتضمن حفل العشاء متعاً جنسية وكثيراً من الشراب الكحولي. وأُكِل الطعام على المائدة المنضَّدة الفاخرة ولكنها كانت عادية بالنسبة إلى زملائي.

وكانت ضيفة الشرف عرافة، جميلة من دون شك، وأقول عن خبرة إنها كانت جميلة تماماً، فهي كانت عارية عملياً. كان اسمها عائشة هانم. لكن في البدء كان السحر في المشروبات. لقد قُدِّمت بسخاء، وبسخاء شرب زملائي: نبيذ ملقة الإسباني، شمبانيا، كونياك فرنسي ويوناني، عرق محلي، بيرة بيلسنير، ولا أستطيع أن أتذكر الباقي؛ مشروبات لم أكن قد سمعت بها.

واكب العشاء عزف أوركسترا غجرية ورقص. كانت الراقصات غجريات يرتدين سلاسل ذهبية وفضية، وكان رقصهن على ما أظن، تحويراً لرقص فولكلوري غجري قديم عن الخصوبة. ما من شك في أن المشهد كان مثيراً جنسياً. لم أشرب يوماً بكثرة، وقطعاً لم أشرب بجنون كرفاقي. وبقيت صاحياً، ولفت مضيفونا انتباهي لأنهم على غراري كانوا يشربون باعتدال، على الرغم من أنهم ادعوا السكر أمام سائر الحضور.

انتهى العشاء واستؤنف الشرب، ثم بدأ الصراع في مرح مخمور على الفتيات الغجريات. وسُحِبت المسدسات، وأُطلِقت بضع طلقات صاخبة في الهواء. وفيما تقدم الليل، لمحت مرات كثيرة التجار وعائشة هانم يراقبونني باهتمام مفرط، كما أحسست. وعند حوالى الساعة الثانية فجراً، حين أخرج مضيفونا أيضاً مسدسات من قراب على خصورهم وبدأوا يتنافسون بلهو على الراقصات، أدركت أن ثمة خطة ما قيد الإعداد. ربما كان الاشتباه الفطري الذي يكنه الأرمني للتركي؛ إنه الحدس بالخطر. شربت باعتدال كمضيفينا، ولكنني اصطنعت مشية مترنحة وغادرت المائدة بذريعة البحث عن بيت خلاء. ولاحظت حين غادرت الغرفة أن التجار الأربعة نهضوا وتبعوني. وفي مأزقي لحظتذاك، خطر لي أن بيت الخلاء قد يكون مكاناً آمناً. وسارعت إليه وانسللت إلى الداخل وأقفلت الباب. كان الشيء الوحيد أمامي أن أتفقد مسدسي وأنتظر التطورات. كنت محقاً. سمعتهم في الخارج، وأقنعتني ملاحظة فهمتها جزئياً حول حظهم الجيد في فصلي عن رفاقي الضباط، بأن من غير السليم لي أن أغادر كما دخلت. بحثت حولي عن وسيلة للفرار، ووجدت نافذة ضيقة يمكنني أن أعصر نفسي عبرها بصعوبة. رفعت

الشباك بهدوء كافٍ وتعلقت بالحافة التي كانت بارتفاع ١٥ قدماً عن الأرض التي كانت تطل عليها النافذة. أفلتّ نفسي فسقطت جزئياً على قدميّ. ولم أكد أستجمع نفسي حتى بدأوا يطلقون النار عليّ من نافذة أخرى. رددت على النار وانسللت إلى ما وراء زاوية المبنى، ولكن ليس قبل أن أُصاب بجرح سطحي في ذراعي. جريت محتمياً بجدار، وانسللت عبر بوابة صغيرة مستعملة، وأصلحت هندامي بأفضل ما استطعت، وغطيت ذراعي الجريحة بمعطفي، وفي الشارع الرئيسي اكتريت أول عربة استطعت العثور عليها وتوجهت إلى المقر العام. في المقر العام، رويت الحادثة للرائد الألباني سليم بك الذي كان من أركان المقر العام وتحلّى بالود وروح المساعدة. بعدئذ تفقدنا الجرح ووجدنا أن رصاصة اخترقت الذراع فتسببت بنزيف حاد. ونصحني بألّا أخبر عن الحادثة أو الجرح الذي كان يمكن تضميده بحذر شديد من دون اللجوء إلى طبيب.

في اليوم التالي، أُرسِل تقرير إلى المقر العام مفاده بأنني أطلقت النار على تاجرين بنية قتلهما (كانت هذه أول إشارة إلى أن الحظ رافق طلقاتي). وأصدر سليم بك بياناً أفاد فيه بأنني تركت المأدبة عند الساعة الواحدة بناءً على طلبه، وساعدته بين الساعة الواحدة والنصف والخامسة في مراجعة تقارير المقر العام. ولحسن الحظ، كان رفاقي سكارى إلى درجة أنهم لم يعرفوا ما حصل. ولم تحصل تطورات إضافية، ولكن الرائد عرف لاحقاً أن خطة لاغتيالي كانت قيد التنفيذ وأنها انطلقت على ما يبدو من حاكم حلب بالتواطؤ مع فرع جمعية الاتحاد والترقي في دمشق. طبعاً لم يكن من أمر يمكن فعله حيال المسألة غير الحذر في المستقبل.

وأخيراً جاءت الأوامر بالانخراط في العمل والالتحاق بالجبهة الفلسطينية. سرنا لـ١٧ يوماً، ثم جمعنا قواتنا وقوات الفيلق السابع في مدينة نابلس. وجدنا الوضع خطيراً جداً. كان البريطانيون قد استولوا على بيت لحم ويافا والقدس وأريحا وجمعوا قوة من ١٥٠ ألف رجل على امتداد الجبهة الفلسطينية من شواطئ البحر المتوسط إلى الضفاف الشرقية لنهر الأردن وعلى امتداد الضفاف الغربية إلى صحراء شبه الجزيرة العربية.

وفي مسعى إلى صد تقدم الحلفاء هذا، عبّأ الأتراك قوة من ١٢٥ ألف رجل بقيادة الجنرال الألماني فون فالكنهاين. وضمت هذه القوة الكبيرة الجيوش الرابع والسابع والثامن، وشملت أفضل الجنود تدريباً في الجيش التركي. ولاحقاً، تولى المارشال ليمان فون ساندرز قيادة هذه القوات.

تمركز فوجنا المدفعي في وادي الأحمر على بعد سبعة أميال من نابلس على الضفاف الغربية للأردن. وكانت المنطقة كثيرة التلال وغير مناسبة كثيراً لوضع مدفعية، واضطررنا إلى ترتيب بطارياتنا في مساحة كبيرة تمتد من ضفة النهر إلى أول السفوح لنحمي وحدات كبيرة من المشاة كانت تنتشر في هذه المنطقة.

وإلى جنوبنا تماماً تقريباً، وعلى بعد أربعة أميال، كانت «تلة المُسكَّرة» محتلة من قوة بريطانية بإحكام. وقام الأتراك بمحاولات كثيرة للاستيلاء على هذا الموقع لأنه كان يتحكم بمدخل أريحا ولكنهم صُدّوا بخسائر فادحة كل مرة.

وأصبح الطقس حاراً في شكل لا يُطاق، وغزت أسراب من البعوض آتية

قوات النقيب طوروسيان (عرب وقبليون وبدو) خلال المعركة مع الجيشين التركيين السابع والثامن عند نهر الأردن قرب جسر دامية

من المستنقعات القريبة المعسكرات ونشرت التيفوئيد والملاريا. ومرِض المئات من الضباط والجنود وأمضوا في المستشفيات خمسة إلى ستة أسابيع كل مرة. ثم خرجت أسراب من العقارب ووجب حفر أوكارها لأميال حوالى المعسكرات للقضاء عليها.

لم يكن الانتظار إجازة ممتعة.

في ٢٩ نيسان ١٩١٨، شنت الفرقة الأسترالية من قوات العدو هجوماً شرساً على الضفاف الشرقية للأردن، مستهدفة فوج يلديريم (الصاعقة) التركي للخيالة وجيشنا الرابع. بدأ القتال في الساعة الثالثة والنصف فجراً، وعنُف الهجوم حتى الساعة الثامنة صباحاً. ودُمِّرت الخطوط التركية، وانسحبت بسرعة وفي فوضى باتجاه جبال عمّان. وطاردتها وحدات بريطانية وأسترالية معززة، ومن خلال المراقبة، بدا أن الوحدات ستستولي مباشرة على جسر «دامية» الذي كان يعبر الأردن. وكان سقوط هذا الموقع سيشكل ضربة قاضية لفرقنا في الضفة الغربية، فالعدو إن عبر الجسور سيحاصرنا بسهولة. لاحظنا فوراً أن الوضع طارئ وتحضرنا لانسحاب سريع. ولحسن حظنا، لم تكن التحضيرات ضرورية، فلسبب غير محتسب، مر الخيالة البريطانيون قرب الجسر وتمركزوا على بعد سبعة أميال أخرى في محيط «تبنة».

ومالت كفة الميزان لمصلحة الأتراك. في الساعة الثانية فجراً، أُمِرنا بإطلاق نيران المدفعية، فأطلقنا وابلاً مستمراً من القنابل الثقيلة والمتشظية. وخلال أقل من ساعة، أخرجناهم بالقوة من موقعهم قرب تبنة. وأدت مطاردة سريعة عبر جسر دامية إلى اعتقال عدد كبير من الأسرى البريطانيين. ثم بدأ مشاتنا فجأة باستخدام الحراب وبسلب الأسرى، واضطر ضباط كثيرون،

النقيب طوروسيان، قائد مفرزة في المقر العام للخيّالة التابع للفيلق الأرمني ذي القيادة الفرنسية من بيروت إلى كيليكيا

وأنا شخصياً، إلى امتطاء أحصنتنا مثل المجانين على الجسر والتلويح بمسدساتنا كي نتمكن من وقف ما كاد يصبح مجزرة أخرى.

وأسعد نصرنا الواضح القائد العام الألماني ومساعديه الأتراك فتقرر شن هجوم معاكس في حزيران ومحاولة استعادة أريحا.

كان رأيي أن العدو يفوقنا عدداً بكثير فلا تصح محاولة عمل من هذا النوع. لكن رأيي بقي رأيي، وفي ٨ حزيران كان كل شيء جاهزاً للهجوم. وتخندق المشاة الألمان في التلال شرقي أريحا، وحمى الفوجان التركيان الـ٤٦ والـ٤٨ ميمنتهم وميسرتهم.

وفي صباح ٧ حزيران ١٩١٨، غادرت موقعنا متوجهاً إلى المقر العام للفوج الألماني حيث عُيِّنت ضابط اتصال وتفتيش. خرجت مع مرافقَين وضابط إشارة وستة عاملين في تمديد الأسلاك الهاتفية. كان ضرورياً لنا مد الأسلاك ووضع الوصلات المناسبة على امتداد طريقنا. وصدرت الأوامر بالوصول إلى هدفنا بحدود الساعة السابعة ذلك المساء. كنت أعاني يومها من عارض شديد من عوارض الملاريا، وعانيت للبقاء على صهوة حصاني. وكان ذهني مشغولاً جداً بقناعة مفادها بأن الخطة كلها ستفشل حتماً، ما قد يعني وقوعي في أسر البريطانيين ونهاية خططي الشخصية في شأن الاستقلال القومي الأرمني الذي أصبحت مقتنعاً بأنه سيحصل من خلال ثورة عربية.

ضللنا طريقنا حوالى منتصف بعد الظهيرة وهمنا على وجوهنا في التلال حتى اقترب الغروب. ثم لاحظ وجودنا طيارون بريطانيون وأطلقوا النار علينا.

اختبأنا في غابة قريبة وبقينا هناك لفترة. وأخيراً سمعنا ضجيج عربات ثقيلة إلى يسارنا. سرنا في ممر ضيق وانتظرنا. أصدقاء أم أعداء؟ وبدا لنا ألمان يقودون بغالاً بعرباتها ودلّونا إلى الطريق الصحيحة.

وبعد أميال قليلة وصلنا إلى خيمتين مخفيتين جيداً بين الأشجار ووجدنا فيهما ضباطاً ألمانيين ينتظرون وصولنا. وخلال نصف ساعة، وصلنا إلى موقع في حقل ملاصق حيث استرحنا حتى الساعة الثانية والنصف من فجر اليوم التالي حين كان مقرراً بدء العمليات. ومع أن ذهني صفا إلى حد كبير، كنت سعيداً بالباقي.

في الساعة الثالثة إلا عشرين دقيقة، أُوقِظنا وسارعنا إلى مواقعنا.

وأمرني الرائد الألماني المسؤول بالاتصال بقائد المدفعية التركية والطلب منه بدء القصف فوراً عند الساعة الثالثة و ٥٠ دقيقة.

ونُفِّذت الأوامر، وفي الوقت المحدد تماماً، سمعنا هدير البطاريات التركية. لقد قصفت مواقع العدو من دون توقف لـ ٢٠ دقيقة. ثم وصل تقرير يقول إن المشاة الألمان كانوا يتقدمون بصلابة إلى تلة المُسكَّرة.

خلال ساعة تلقينا تقريراً يخبرنا عن سقوط خنادق الصف الأول لدى العدو. ثم وصلت أخبار عن سقوط الخط الثاني في أيدينا وأخيراً الثالث.

فاجأني اتجاه المعركة، ولكنه لم يحيرني مثلما فعل بالرائد الألماني الذي كان يدير العمليات حين أبرق إلى المقر العام من موقعنا قائلاً إن أريحا ستسقط مع حلول الفجر.

في الساعة الخامسة صباحاً ولسوء حظ الألماني، بقيت المعركة تتصاعد بشدة وفق ما تناهى إلى أسماعنا من أصوات المدافع؛ وكان الأكثر إقلاقاً أننا لم نعد نتلقى تقارير برقية.

وزاد قلق الضباط الألمان الذين كانوا يديرون المعركة من موقعنا واقتربنا أكثر من الخطوط.

في الساعة السادسة والنصف صباحاً، بلغت الشمس كبد السماء ولم تصل بعد أي تقارير برقية، فيما بدا أن جلبة نيران المدافع تتصاعد من الجانب الإنكليزي.

أخيراً وصلنا إلى موقع مراقبة حيث تمكنّا من أن نراقب في شكل حاسم خطوط المعركة. كان التقدم الثابت للألمان واضحاً لنا، لكن الأفواج التركية كانت متأخرة عنها بوضوح. وبدا الأتراك حائرين وفاقدين للاتصال بالألمان.

وخلال نصف ساعة انتهى كل شيء. استغل الإنكليز الثغرة في صفوف الأتراك ودفعوهم إلى الخلف تحت نيران كثيفة، فيما طُوِّق المشاة الألمان وأُسِروا.

وتابع الأتراك،غير المتنبهين لما حصل للألمان، القتال بشراسة على تلة المُسكَّرة ولكن سرعان ما هُزِموا.

وبدأت التلال والوادي تمتلئ بالجنود الإنكليز، وقال الرائد الألماني المحبط تماماً إننا يجب أن نستسلم أيضاً، فوقوعنا في الأسر لن يستغرق سوى ساعة

أو أكثر قليلاً في أفضل الأحوال. لكنني أقنعته بأننا إن بقينا مختبئين فثمة فرصة ممتازة لعدم العثور علينا، وأكدت له أنني أستطيع أن أقودهم جميعاً إلى المقر العام لدى حلول الظلام.

انطلقنا فور حلول الظلام علينا ميلاً بعد ميل وببطء، واخترنا بحذر طريقنا عبر التلال. وقبيل الفجر، وصلنا إلى مخيم الإمداد الألماني. وعلمنا بأن عشاء ضخماً أُعِد في الليلة السابقة للاحتفال بالنصر المتوقع وأُمِرت الفرق الموسيقية العسكرية بالحضور للمشاركة في الاحتفال. ولدى بزوغ الأشعة الأولى للشمس حين وصلنا إليهم، لم يكن ضباط المقر العام سعداء. وبعد وقت قصير، بدأ ضباط بالوصول، وكرر كل منهم روايتنا عن المعركة باستثناء تفاصيل صغيرة مختلفة.

بعد أيام قليلة أُقيمَت محكمة عسكرية في محاولة لتحديد المسؤولية عن فشل الهجوم. وترأسها الجنرال فون ساندرز واستمع إلى أتراك وألمان تبادلوا الاتهامات. وأخيراً لم يُنحَ باللائمة على أحد وأُقفِلت القضية.

وفي ٢٤ تموز ١٩١٨، تقرر نقل فرقنا الثلاث إلى موقع مناسب أكثر عند بلدة بيتا حيث كانت تكثر أشجار التين والزيتون ويجري جدول صغير مياهه شفافة وصافية وشديدة البرودة. كنا على بعد ثمانية أميال فقط جنوبي نابلس.

وفي بعد ظهيرة أحد الأيام، خلال الأيام الأخيرة من تموز، زرت نابلس لعدّة أيام في مهمة رسمية، وفيها كنت هناك، ارتدْت مقهى تركياً كان يحظى بشعبية لدى الضباط. وعند كل طاولة تقريباً، كان الضباط يومئون

برؤوسهم وأيديهم ويناقشون بحماسة أوضاع الحرب وهم يحتسون القهوة. كان المشهد العام قاتماً وغير مشجع عموماً، وكانت التقارير تتحدث عن هجوم كبير وشيك سيشنه الأرمن والفرنسيون والإنكليز علينا. لم أستطع سماع كلمة عن العرب الذين مثّلوا لي أملي الأكبر بالاستقلال القومي الأرمني. كانوا أناساً أفهمهم، وكنت أتحدث لغتهم، وكانت لدي الفرصة الأكبر للاتصال بهم.

توقفت الأعمال العدائية، واقتصر الأمر على إطلاق نار متقطع وغزوات سريعة؛ ارتاح كل طرف وأعاد تجميع قواته وانتظر بتوتر.

الفصل الرابع عشر

في المقاومة العربية السرّية

في ١٢ آب ١٩١٨، زرت نابلس مجدداً، وخلال زيارتي النادي العسكري هناك في بعد ظهيرة أحد الأيام، فوجئت حين علمت بأن ضابطاً قدّم نفسه على أنه زميل صف لي في الكلية العسكرية جاء في اليوم السابق وترك رسالة لي.

وإذ شعرت فوراً بشبهة، استجوبت مدير النادي، ولكن كل ما استطعت معرفته كان أن الضابط يعتزم العودة في اليوم التالي عند الساعة الثانية بعد الظهيرة، على أمل أن يتمكن من رؤيتي.

شعرت فوراً بحشرية شديدة وقررت أن أكون موجوداً، ولذلك وصلت في اليوم التالي إلى النادي عند الساعة الواحدة والنصف واخترت زاوية هادئة استطعت أن أجلس فيها وأراقب الداخلين جميعاً من دون أن يراني أحد.

وبعيد الساعة الثانية، رأيت ضابطاً طويلاً أسمر يدخل، مرتدياً بزة ملازم تركي. ولم يتوجه فوراً إلى المدير ويسأل إن كنت موجوداً، بل مسحت عيناه الغرفة مع تقييم سريع لمن كانوا فيها. ومشى جيئة وذهاباً ومر قربي مباشرة. كانت حركاته سريعة وعصبية. ومشى جيئة وذهاباً مرة أخرى. ولاحظت أنه نظر إليّ بحدة. فجأة مشى باتجاهي وابتسم وحياني بقوة ومد يده إليّ.

قال بأسلوب رجل رأى لتوه صديقاً قديماً: «ها، كيف حالك، أيها النقيب طوروسيان؟».

على الرغم من أنني كنت على حذر، دُهِشت ولا بد من أنني أظهرت دهشتي، ففي اللحظة نفسها تحديداً بدا محتاراً ومذهولاً. عرفت أنني لم أرَ الرجل قط سابقاً ولم أستطع إلا أن أُقدِّر رباطة جأشه.

سأل: «ألا تستطيع أن تحزر من أنا؟ يبدو حقاً أنك نسيتني إلى حد كبير».

قلت وأنا مصمم على تعلّم لعبته: «اجلس، أيها الملازم. يحرجني أن أعترف بأنني لا أذكر لقاءك قبلاً. هل لي أن أسأل عن اسمك والفرقة التي تنتمي إليها؟».

ابتسم ابتسامة حيرى وتجنب بحذق الإجابة على سؤالي.

«يشعرني هذا بخيبة كبرى، إيها النقيب، فأنا أذكرك أنت وصديقك محرّم جيداً. من المحزن جداً أنه قُتِل. يبدو أنني تغيرت كثيراً منذ أيامنا في الكلية»، قال ضاحكاً. «ولكن إن لم تتمكن من التعرف إليّ، فأنا أكيد من أنك ستتذكر لقاءك قبل بضعة أشهر بصديقي العزيز نوري يوسف بك».

كانت نظرته تشي بمعرفة، وشعرت بعدم الارتياح. كنت واثقاً من أن الرجل يعرف كثيراً عني. هل هو ضابط استخبارات آخر يحاول الإيقاع بي؟ هل نوري يوسف بك، الزعيم العربي المتمرد، رجل ينبغي أن أُعرَّف به؟ حاولت استجماع أفكاري والإجابة في شكل غير مكترث فيما كنت لا أزال أنكر.

«نوري يوسف بك! يبدو الاسم مألوفاً. هل لك أن تصف لي الرجل لتتضح الأمور أكثر؟ أنت تعرف، أيها الملازم»، أضفت، «من حقي أن تتضح الأمور».

تركيزي على الجملة الأخيرة جعله يبتسم، وبرزت في عينيه نظرة ودودة وعارفة. فعلى الرغم من كل شيء، كان هو أيضاً يقامر في الظلام، وأنا لم أقر بأنني النقيب طوروسيان. عرفت لاحقاً أنه شاهد صورة لي غير واضحة تماماً واستمع إلى وصف عام جداً بدا قريباً قليلاً مني حين رآني للمرة الأولى في زاويتي.

مال إلى الأمام كأنه ينحني وعرض عليّ سيجارة، وقال نصف هامس: «أيها النقيب، فلنفهم بعضنا بعضاً. أنت صديق لنوري يوسف بك. التقيت به في قطار خلال العودة من الجبهة الرومانية. وأمضيت ليلة في منزله في سوري - يار. أليس هذا صحيحاً؟ كان لديكما أنتما الاثنين كثير من الأمور المشتركة ولا يزال».

راهنت مجدداً، راهنت على صدق عينين سوداوين حادتين، وعلى رغبته الواضحة في إقناعي، وعلى حدسي الخاص بي. أومأت برأسي موافقاً.

سألت: «متى وأين رأيت نوري يوسف للمرة الأخيرة؟».

جلس وقال بنبرة حذرة: «قبل بضعة أيام في مقره العام بالصحراء. رغب في إيصال خبر مهم إليك حين علم بأنك عند هذه الجبهة. ووافقت على التنكر ومحاولة العثور عليك لإيصال الخبر. وها أنا ذا».

ظاهرياً، لم أرتجف طبعاً، ولكن داخلياً، كنت أكثر استثارة من أي وقت مضى منذ بداية الحرب. لقد آن الأوان الذي أملت به وتساءلت عنه، ومنذ لحظة مغادرتنا، بعد دقائق قليلة، أصبحت ملتزماً بقضية جديدة في شكل لا رجعة فيه.

قلت وأنا أنظر حولي: «بسرعة، ما هو خبرك؟».

قال مهدئاً إياي: «ليس هنا، أيها النقيب. إن لم يكن من أمر يشغلك، فلنمتط حصانينا إلى قرية الشيخ الحاج سعيد التي تبعد ساعة من هنا. ليس هذا المكان مناسباً لخطط كخطتنا، وليس الشيخ حاجي سعيد موضع شبهة».

نادينا حصانينا وامتطيناهما معاً، ضابطين تركيين في نزهة لبعد الظهيرة. لخمسة أميال يممنا شطر بيسان ثم أوقفنا حصانينا فجأة قبل ممر ضخم في جدار صخري مرتفع انطوى على قرية عربية.

في الداخل، وجدنا حراساً مسلحين رافقونا بعد تبادل إشارات إلى مقر الشيخ حيث كان ٤٠ حصاناً عربياً ضخماً، مسرجة وشموسة، مربوطة إلى عارضة حديد.

دُفِع ستار ثقيل جانباً ووجدت نفسي في مجلس طويل في مواجهة وجوه

عابسة وسمراء ومبهمة لحوالى ٢٠ شيخاً عربياً.

وقفوا قبل أن أتمكن من الكلام، وككورس من الأصوات العميقة حيوني مرحبين: «السلام عليكم».

«السلام عليكم»، رددت التحية فيما تقدم الشيخ سعيد بخطى واسعة مبتسماً ليصافحني.

بدا الأمر كحلم.

«أيها النقيب، أنت بين ظهرانينا ونحن سعداء لأننا نعرف أنك تملك أيضاً أمنية بالتخلص من النير التركي. شعبنا، شعبك وشعبي، عانى بما فيه الكفاية».

وخلال نصف الساعة التالية، استعرض سريعاً صورة عامة لاتحاد القبائل العربية التي استُقطِبت، وباسم صديقي نوري يوسف سألني الانضمام إليهم كأحد قادتهم.

وافقت ووضعت نفسي في تصرفهم. حاولت أن أتحدث بهدوء وأظن أنني فعلت، ولكن ذهني بدا رافضاً في حماسته لأن يهدأ.

وجُلِبت قماشة فضية كبيرة وفُرِشت على الأرض وجلسنا لتناول العشاء احتفالاً بتحالفنا.

غادرت إلى المعسكر قبل الغسق واعداً بالعودة خلال يومين.

في تلك الليلة، لم تراودني فكرة النوم قط. كان ذهني حلبة سباق بين خطط

لا تُحصَى حتى بدوت مرتبكاً. أخيراً! الانتقام! كم أعرف ضعف الجيش التركي وأفضل النقاط لمهاجمته. درست خرائطي حتى الفجر، وصممت في ذهني أفضل طريق تُتّبَع.

اليومان التاليان كانا مفصليين.

بعد يومين، أخذت إجازة، وغادرت المعسكر في الصباح الباكر. وحين اقتربت من قرية الشيخ، لاحظت من بعيد كوكبة كبيرة من الخيالة العرب تعبر المدخل. حثثت حصاني وتبعتهم.

في الداخل، لم يتسن لي وقت لأترجل عن حصاني إذ اقترب مني شيخ عربي؛ كان صديقي الملازم في نادي الضباط. سلمني رسالة فيما ترجلت وسألني أن أقرأها. كانت من نوري يوسف وفيها حرفياً:

عزيزي النقيب،

عرفت قبل ثلاثة أشهر بأنك أُلحِقت بفرقة متمركزة في محيط نابلس ومنذئذ لم أحاول الاتصال بك. فلوقت ما بدا ذلك مستحيلاً إذ لم أرغب في تعريض سلامتك للخطر بإرسال رسول. ثم خطرت لي فكرة نادي الضباط في نابلس فأرسلت نسيبي الشيخ الحاج محمود لمقابلتك.

الحاج محمود رجل ثقة ونبيل عمل كثيراً لتعزيز اللحمة في صفوف شعبنا في اتحاد كبير وفي تحريضهم على الأتراك. يمكنك أن تضع ثقة كاملة في الحاج محمود.

إن لحاقك بنا حدث رائع لكل منا. لدينا كثير من المظالم لننتقم لها.

اكشف خططك كلها بحرية للشيخ الحاج سعيد وناقشها معه، فهو سيقدّر مساعدتك وإرشادك. إن ١٥ شيخاً عربياً، بمن فيهم بدو عند ضفة نهر الأردن، تحت إمرتك. سيؤمّنون محاربين ومعدات عسكرية. وستهتم لجنة سرية بالنفقات كلها.

تذكر أنني أضع إيماني كله وثقتي كلها فيك وأؤمن بأن النجاح يجب أن يتوج جهودنا. إن الله سبحانه وتعالى إلى جانبنا والحرية بمتناول أيدينا. هو قادر أيضاً على إعادة قيام أمّتك.

رجاءً تواصل معي بأسرع ما يمكن. وإلى ذلك الحين، أحيِّيك باسم الله ودمت.

نوري يوسف

لطالما قدّرت هذه الرسالة.

في لقاء الشيوخ الذي توجهت إليه، نوقشت خطط العمل. وكان معظم الشيوخ المجتمعين مؤيدين لفكرة وجوب جمع قوة كبيرة من المحاربين من مختلف القبائل وراء دمشق لتستدير وتضرب الأتراك من الخلف.

عارضت بشدة عملاً كهذا، مشيراً إلى أنه عمل واضح ومكشوف أكثر مما ينبغي وعمل يمكن لجواسيس الأتراك أن يرصدوه بسهولة. وشرحت الأوضاع اليائسة نوعاً ما في الجيش التركي والمعنويات المتدنية لدى كل

من الضباط والرجال. وتضمنت خطتي نزولاً سريعاً وغير متوقَّع عند خطوطهم في شكل اعتقدت بأنه سيثير الذعر فيهم. واقترحت أن تجمع كل قبيلة قوة من الخيالة وما يكفي من المؤن وتستعد للتجمع في قرية الشيخ الحاج سعيد فور إبلاغها ذلك.

وبدا الحاج سعيد مرحّباً بخطتي ولذلك سرعان ما قبل بها الآخرون. وعُيِّن رسل موثوقون واتُّفِق على علامات وإشارات لتوجيه تجمع القبائل والبدو.

وكلما فكر الشيوخ في خطتي المتضمنة توجيه ضربة قوية وسريعة وذات دلالة، تناسبت أكثر مع أمزجتهم النارية، وانتهى اجتماعنا باتفاق مرضٍ.

وقبل أن أعود إلى موقعي التركي، كتبت رسالة إلى نوري يوسف استعرضت فيها الخطط التي قدمتها إلى الشيوخ وطلبت موافقته. وسألته أيضاً إن كان يستطيع تزويدي بأخبار عن عائلة محرّم.

منذ غادرت والدة محرّم وشقيقتاه في القسطنطينية، وردتني رسالتان صغيرتان مراقبتان من جميلة. وبدأت أقلق على سلامتهم وأتوق إلى رؤية جميلة مجدداً. لم أكن في طبيعتي نارياً، ولكن حبي كان أكبر من أن أعبّر عنه. اشتقت إليها شوقاً تعوّد الصبر والكتمان.

تقرر عقد اجتماع سري آخر للشيوخ قرب نهاية الأسبوع، وتمكنت مجدداً من الحصول على إجازة لفترة الصباح. لا أستطيع أن أتذكر الذريعة التي قدمتها في تلك المناسبة، ولكنني أعرف أنني انتبهت إلى أن إجازاتي المتكررة بإفراط لا بد من أنها أثارت الشبهة، فاتخذت طريقاً قديمة قليلة الاستخدام

إلى قرية الشيخ. وقبل أن أغادر، طلبت إجازة لأسبوع لأن الجبهة كلها كانت هادئة وما من أعمال قتالية كانت مقررة. ولم تكن لدي أي فكرة حول ما يجب فعله في الإجازة في حال الموافقة عليها، ولكنني فكرت في عبور الخطوط التركية لمقابلة نوري يوسف في مقره العام.

قابلني الشيخ الحاج محمود قبل اجتماع مجلس الشيوخ، وناولني رد نوري يوسف على رسالتي:

عزيزي النقيب،

أوافق بكل قلبي على الخطط التي عرضتها، وأوصيك بتنفيذها بكل ما أوتيت من مهارة. لديك فهم كامل للموقف التركي وأجيز لك العمل وفق أفضل تقدير لك.

في هذا القسم، نحن شديدو التنظيم ونحقق تقدماً كبيراً. أدعو الله أن يقوينا إلى النهاية.

سألتَ عن معلومات حول المحسن إليك وصديقك الباشا العربي وعائلته. آسف لأن أخباري ليست جيدة. كان الباشا أحد الداعمين الأشد لنا وفعل كل ما في وسعه للمساعدة في الإعداد للاستقلال العربي. كان يكره قلبياً جمعية الاتحاد والترقي ويستنكر في أعماقه ليس فقط سوء حكمها للعرب بل كذلك تجاوزاتها بحق الأرمن؛ لقد أسف بشدة لهذه التجاوزات.

حين غادر الباشا القسطنطينية وجاء إلى شبه الجزيرة العربية،

كان رجلاً مسناً كسير الفؤاد غير قادر على تقبل موت ابنه محرّم. وقبل أقل من سبعة أشهر، توفي في مدينة القدس وقد أثقل عليه الحزن. وفور وفاته، غادرت زوجته وابنتاه إلى مدينة غزة وهي مسقط رأس الزوجة. وعلمت أخيراً بأن الابنة الكبرى فريدة تزوجت، ولكن الابنة الصغرى جميلة مريضة بالسل في شكل لا شفاء منه ولا تستطيع الخروج من فراشها.

عزيزي النقيب آمل أن تسامحني حين أشير إلى مسألة شديدة الخصوصية. حين توفي والد الآنسة جميلة، وكانت وقتئذ تعاني مرضاً شديداً، أسرّت إليّ بالحب الذي يجمعكما وجعلتني أعد بالعثور عليك وجلبك إليها. وأريد أن أفي بهذا الوعد، كما أريد أن أتحدث إليك، أيها النقيب. إن كان في مقدورك الحصول على إجازة لأيام كثيرة من دون إثارة شبهة، افعل ذلك فوراً. سيقودك الشيخ الحاج محمود إلى هنا بأمان ثم إلى غزة والفتاة التي تحبها كثيراً.

إن الحزن أيضاً من نصيب الشجعان. ألهمك الله العزاء.

أنتظر إجابتك وأرسل لك أطيب أمنياتي.

نوري يوسف

في الحرب وخلال الإعداد لثورة، لا وقت كثيراً للرجل ليضعف أمام ما قد يبدو ضربات القدر غير العادل. طويت الرسالة ولمست ذقني وجبيني ورفعت كفي الأيمن في الهواء في تحية عربية فيما مرت الكلمات

الأخيرة أمام عينيّ.

أفكر أحياناً بأن تجربتي ضغطت مشاعري إلى كرة متكلسة ودفعتها إلى أعماق قلبي حيث تشتعل منذئذ من دون أن تجد تعبيراً عنها. كان الحزن شيئاً ما زلت قادراً على الشعور به من دون أن يعبّر عن نفسه. كان الحزن شيئاً لا أزال أستطيع أن أشعر به من دون أن أبيّنه. وفي خضم الحرب، كنا نخطط لعصيان مسلح، وكانت كل لحظة حبلى بتاريخ وشيك ومعقدة «بعصابات» سرية واجتماعات خطرة.

عقدنا مجلسنا ودرسنا خططنا وصوّبناها. وفي نهاية الاجتماع، أُعِدّت ترتيبات لزيارتي قائدهم نوري يوسف.

فور العودة إلى معسكرنا، مضيت إلى المقر العام بعد الظهيرة وقدمت طلباً خاصاً لإجازة بذريعة زيارة شقيقتي في حلب. وأعطيت الإجازة.

في صباح ٤ أيلول ١٩١٨، وصلت إلى قرية الشيخ الحاج سعيد حيث وجدت الحاج محمود في انتظاري. ارتديت زياً عربياً، وتسميت باسم عربي، وبرفقة الحاج محمود انطلقت إلى غور الأردن. كان تقدمنا بطيئاً، وأصبح خطراً ما أن بلغنا غور النهر، فجانبا النهر كانا خاضعين لرقابة مشددة. قدنا حصانينا عبر الممرات الضيقة والمرهقة للسفوح، وتمكنّا بذلك من البقاء في مأمن من الممرات والمراكز التركية. وأخيراً وتحت جنح الظلام، دفعنا حصانينا إلى المياه ولـ٢٠ دقيقة عانيا عبر قاع غير مضمون تحت الضغط الدافع لتيار النهر. وبعدما عبرنا بسلام، استرقنا الساعات الليلية القليلة قبل الفجر ونمنا. نهضنا في ضوء الشمس واستمررنا في المسير ووصلنا

خلال بضع ساعات إلى محيط وادي اليوسف.

وبعد تقدّمنا بمسافة قصيرة، شاهدنا مقراً عربياً، وفيها عدونا بحصانينا باتجاهه، حث الحاج محمود حصانه إلى الأمام بأن ناداه بتلك الصيحة العربية الهادرة. وتلا ذلك تدفق لجمهرة مجنونة من الخيالة المرتدين العباءات العربية مرددين الصيحة إياها.

التقيت بنوري يوسف وجددنا الصداقة بكل حبور. لكن الوقت كان حرجاً، ولم تكن أمامنا سوى بضع لحظات للكياسات الشخصية. أمضينا اليوم كله ندرس خرائط وخططاً وإستراتيجيات سرية.

قبيل آخر بعد الظهيرة، غادرت، مع أدلّائي بالسرعة نفسها التي جئت بها، ووجهنا أحصنتنا باتجاه غزة. كان نوري يوسف قد ضَمِنَ لنا ممراً آمناً عبر الخطوط البريطانية وأرسل معنا ١٠ من الخيالة العرب رافقونا حتى «الشيوخ». وسرنا حتى وصلنا إلى قرية عربية صغيرة قرب الخليل حيث تقاسمنا عشاءنا مع زعيم القرية.

امتدّت رحلتنا الليلية حتى حوالى الساعة الرابعة فجراً حين دخلنا إلى مدينة غزة القديمة والجميلة بلا حدود. كنا جميعاً منهكين من التعب وطلب مرافقي الراحة في حديقة قديمة بدلاً من إزعاج الأصدقاء الذين كنا نقصدهم. لم أنم بل جلست في سكينة من دون حراك حتى بلغت الشمس مكاناً مرتفعاً في السماوات. لم أعد أذكر بوضوح بما فكرت. ويبدو الآن أنني جلست وراجعت حياتي كلها، بمسراتها وأحزانها؛ وجدت آمالاً كسيرة تمر في مسيرة كأنها رجال مهزومون. وبدوت طيفاً منفصلاً عن المشهد وفاتراً،

نصف نائم وبعيد المنال.

وحوالى الظهيرة، عبرت وحدي الشوارع المتعرجة المضاءة بالشمس والمعطرة بالزهور والصامتة كأن العالم كان يهمس. وصلت إلى قصر حجري قديم، وفيما ارتجفت يدي إذ قرعت الباب، لم أعِ أي شعور. بدا أن في داخلي شيئاً مات.

سألت خادمة صغيرة وعيناها جزعتان من الذعر، عمّن أريد. حين سألتها إن كانت عائلة الباشا تعيش هناك، بدا أنها تراجعت كما لو أنها خائفة من الإجابة. أكدت لها أنني صديق للعائلة وسألتها أن تخبر زوجة الباشا ببساطة أن نقيباً مدفعياً ينتظر.

استطعت أن أسمع الصوت الخفيف لخطوات امرأة على الدرج، وللحظة بدت الحياة تتحرك في داخلي وحلمت في ذهني للحظة بأن جميلة آتية. لكنني عرفت أن ذلك لم يكن ممكناً لأن صديقي أخبرني أنها كانت تحتضر.

بعد وقت فُتِح الباب بحذر ورأيت عينين حزينتين جداً، ولكن مشتبهتين، تنظران إليّ.

انحنيت بالطريقة الأوروبية قائلاً: «سيدتي. آمل ألّا تخافي مني بسبب زيي الذي ارتديته طلباً للحذر والأمن. هل تذكرين سركيس طوروسيان؟».

جاءت كلماتها ناعمة ومبهمة كما لو كانت تلاوة لصلاة: «الله! الله! هل هذا صحيح؟».

فُتِح الباب وتعثرت وارتمت بين ذراعيّ باكية. وتقلبت بين البكاء

والتحسر على سوء طالعها. امرأة محطمة ويائسة، تعاني عذاباً لا يستكين بسبب فقدانها ابنها وزوجها. وعلى الرغم من أن الكلمات التي قلتها حملت بعض المعنى، شعرت كأنني ظل ضائع في عالم الرجال، وطيف من أطياف قسوة العيش.

تحدثت عن جميلة كمن يكرر اسماً، وعرفت بأنها لا تزال حية لسبب لا يعرفه أحد، وأنها تبدو في كل ساعة مشرفة على الموت.

عبر ممر متعرج في الحديقة حيث نمت زهور وجاورت أشجار زيتون الأسوار، تبعت امرأة متشحة بالسواد. في مكان ورائي، بعيد جداً في المسافة، وُلِد حب وخفق قلبي يوماً بإيقاع أسرع. والآن مشيت رجلاً انطفأت فيه شعلة لكنها لم تمت بل خُتِمت في غرفة مخفية ما في كيانه. لقد توقف الوقت والعاطفة كلاهما ومشيت بعينين جافتين لأرى الحب يموت في حديقة عربية قديمة. وتحت أشجار الزيتون رأيت سريراً صغيراً انحنت فوقه والدة محرّم وهمست.

في مكان ما نادى صوت خافت سركيساً، ولوحت يد صغيرة شفافة كجناح فراشة باتجاهي قبل أن تسقط. يا الله! يا الله! أقول لك إن الحياة يجب ألّا تكون قاسية هكذا على إنسان. بكيت في أعماقي، بكيت، أقول لكم، كطفل كسير الفؤاد، لكنّ عينيّ كانتا جافتين فيما أطللت عليها وتساءلت عن لمعان عينيها السوداوين الرائعتين في شحوب خديها الغائرين، وتساءلت عن صوت لا يزال حياً في جسد مُضنى إلى هذا الحد. لقد اختفى جمالها المشع كما يمضي حلم. ركعت وقبلت يدها المنهكة والدقيقة والهشة.

النقيب طوروسيان مع اثنين من قادة المجموعات وراء خطوط العصابات التركية

«حبيبي، هل صحيح أنني بين ذراعيك أخيراً؟ كنت خائفة جداً من أن يعثر الموت عليّ قبلك». حاولت أن تهمس أكثر ولكنها سعلت وأندت الدماء شفتيها وتسلل الألم إلى عينيها.

سألتها أن تهدأ وأخذتها بين ذراعيّ وتحدثت عن كل شيء: أخبرتها عن شقيقتي، ووالديّ، والخطة التي كنت منخرطاً فيها. وتحدثت لأتمكن من سماع صوت كلماتي فأعرف بأننا كنا لا نزال حيين. غفتْ وسررتُ بذلك، إذ كان عليّ المغادرة فوراً وتمضية الليل في اجتماع حربي في منزل شيخ عربي.

في الصباح كنت إلى جانبها مجدداً، أتساءل كيف بقيت على قيد الحياة. ولاحظت أن عينيها كانتا تشعّان كنجمتين. وحوالى منتصف بعد الظهيرة، حين قدَّم الغداء في بستان الزيتون، وكنا أنا وأمها نأكل قرب سريرها، بدت مشرقة.

كان الخدم قد حملوا المائدة بعيداً، وكانت زوجة الباشا قد دخلت إلى المنزل للحظة حين عانت جميلة نوبة سعال رهيبة، ثم بدت تختنق وحاولت النهوض، لتقع على مخدة مضمخة بالدماء. هرعت طلباً للنجدة وجاء الخدم مع زوجة الباشا. حملتُ جميلة بين ذراعيّ، وذاب الألم والذعر في عينيها حتى التمعتا مجدداً كنجمتين، نجمتين في ليلة شرقية، وذبل الجفنان رويداً، فتوفيت كحلم عابر.

دفنوها في اليوم التالي فيما كانت الشمس ساطعة، وقرأ الحجة آيات من القرآن. لا أعرف ما حدث لي بين وفاتها وانهيال التربة على قبرها. ابتعد الناس. وقف وحيداً، ثم مشيت إلى الطريق حيث كان أصدقائي ينتظرون.

قدنا أحصنتنا لسبع ساعات، وفي الليل مررنا عبر أبواب مدينة القدس.

في الصباح زرنا مكتب المفتي الأكبر للعرب وعرضنا خططنا، ثم انتقلنا إلى مكتب الحاكم العسكري البريطاني للحصول على ممر آمن إلى أريحا ونهاية خطوط الحلفاء. تحركت كرجل كان لا يزال يحلم، فالعادة والتدريب العسكري كانا قويين جداً ولفتني الجيش القوي من الجنود الكنديين والأستراليين والهنود المعسكِرين لأميال على مشارف المدينة. كان لقوة كهذه أن تسحق بسهولة الفرق التركية الفاقدة للمعنويات، ودُهِشت لأن الجنود كانوا يستريحون بكسل هناك.

في أريحا جرى تفحص أوراقنا بدقة، وأوقفنا حتى الغسق. ثم، وبعد عصب أعيننا بشدة، كي لا نتمكن من مراقبة مواقعهم، جرى اقتيادنا لمئة ياردة إلى القاعدة الأمامية البريطانية في وادي العوجا.

خلال تلك الليلة كلها قدنا أحصنتنا، مسترقين الطريق على امتداد غور الأردن. عند الفجر دخلنا إلى قرية الشيخ سعيد. ولم أسترح بل تخلصت من ثوبي العربي ولبست بزة النقيب وانطلقت إلى المقر العام التركي في نابلس. كان جسدي مرهقاً فنمت من دون أن أشاهد أحلاماً وأردت أن أنسى.

الفصل الخامس عشر

على طريق الانتقام الدموي

بعد ١٠ أيام على عودتي من وراء الخطوط العربية، حضرت اجتماعاً سرياً في قرية الشيخ سعيد، وأخيراً وصلَنا خبر من الشيخ نوري يوسف مفادها أن ساعة انتقامنا باتت قاب قوسين أو أدنى منا. وكان متوقعاً حصول هجوم مزدوج للإنكليز والفرنسيين بقيادة الجنرال أللنبي خلال الأيام القليلة التالية وطُلِب منا أن نكون مستعدين لنضرب بالتزامن مع قواتهم. واتُخِذت إجراءات خاصة لتعبئة الخيالة العرب وإعدادهم لعمل فوري.

بعد أربعة أيام، في ١٩ أيلول ١٩١٨، وفي وقت مبكر، عند الساعة الثالثة فجراً، هدر الزئير المرعب للمدفعية على طول الجانب الغربي للجبهة الفلسطينية من البحر المتوسط إلى نهر الأردن.

لقد صلى أسطول قوي من السفن الفرنسية والإنكليزية كان يتمركز في مياه

المتوسط الجيش التركي الثامن في طولكرم بنيران مدمرة، ما دفع الأتراك إلى توزيع خطوطهم والانسحاب في فوضى باتجاه نابلس حيث كان الجيش التركي السابع متمركزاً.

وفي الوقت نفسه شنت أفواج إنكليزية كثيرة وقوة من المتطوعين الأرمن (الفيلق الفرنسي للشرق) هجوماً موحداً على امتداد الجبهة كلها، ما تسبب خلال أقل من ساعة في كارثة كاملة للأتراك الذين دب فيهم الذعر وسارعوا باتجاه المقر العام في فوضى عارمة. وانتشرت أوامر مسعورة عبر أجهزة البرق. وتمكنت من إيصال رسالة إلى العربي الذي كان متمركزاً في نابلس لأكثر من أسبوع ينتظر إشارة إلى حلول الساعة الموعودة. كانت الساعة حوالى الثالثة والنصف حين انتقل إلى قرية الشيخ سعيد مع رسالة مني تنص على دعوة الخيالة وعلى أنني على وشك الالتحاق بهم.

بقيت في موقعي لفترة إضافية لأتلمس في شكل اتجاه المعركة على نحو كافٍ. ومن خلال تقارير استمعت إليها، عرفت بأن جنوداً أرمنيين اخترقوا قلب الخطوط التركية وكانوا يتقدمون بانتظام فيما كان الخيالة الإنكليز يطاردون على نحو مزعج الأتراك الفارين في الأقسام الأخرى. وكان القادة الأتراك يائسين.

تلقيت أمراً برقياً من رئيس الأركان شوكت بك بمغادرة موقعي والعمل كرسول بين الجيشين السابع والثامن. لكنني كنت مستعداً للمغادرة من أجل أهدافي الخاصة بي. لم يضطرب قلبي؛ كان بارداً؛ كان انتقامي غير مصحوب بعواطف. لم أرد على الأمر بل قطعت أسلاك البرق في موقعي، وامتطيت حصاني، بل وكدت أصدم وصيفي المذهول فيما انطلقت بعيداً

بسرعة. ودفعت حصاني إلى العدو بأقصى طاقته عبر التلال.

بعيد الساعة الخامسة صباحاً وصلت إلى قرية الشيخ سعيد وقدت حصاني بلا تفكير عبر العشرات من الخيالة المرتدين ثياباً بيضاء. وفيما أسرجوا حصاناً جديداً، خلعت بدلتي العسكرية ولبست جلابية وعقالاً عربيين.

قدت حصاني إلى مقدمتهم شاهراً سيفي ودعوتهم إلى اللحاق بي إلى جسر دامية. نظرت إلى الخلف فيما كنا نمضي بسرعة ورأيت النصال المسلولة لسيوفهم تلمع فيما كانوا يشهرونها، وراقبت الارتفاع والانخفاض لفوهات بنادقهم التي تدلت على ظهورهم وقدّرت الضرر الذي تستطيع هذه الحشود إنزاله. عاودني الشغف، الشغف البارد، شغف العربي بالنصال المسلولة. عبرنا التلال إلى غور الأردن.

بحلول الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة كنا عند الجسر، مختفين في انتظار اقتراب الأتراك المنسحبين الذين شعرت بأنهم سيعبرون النهر عند هذا الموقع. أرسلت أربعة خيالة لقطع أسلاك البرق بين المقر العام التركي والجيش الـ ٧٨.

تأكد ظني سريعاً، فسرعان ما استطعنا رؤية سيل منتظم من الرجال يخرج من الممر الضيق قرب جبال وادي الفارعة. وبمناظيرنا تمكنّا من رؤيتهم يعانون مع مدافعهم في المسيرة الصعبة جداً. وحلق سرب من الطائرات البريطانية في شكل منخفض فوقهم وقتلت القنابل التي انفجرت المئات وعطلت عربات المدافع وعربات الإمدادات.

فيما اقترب الأتراك من الجسر، خرجنا من مخبئنا كإعصار من الخيالة ذوي الثياب البيضاء وانطلقنا باتجاههم بشراسة في هجوم مسعور. ودب هجومنا وصيحة الحرب الثاقبة للعرب الذعر فيهم، فتفرقوا وعدوا مثل أرانب بحثاً عن مخابئ؛ اتجهوا يساراً واتخذوا مساراً باتجاه الشمال يقود إلى بيسان.

أرسلت فوراً رسلاً إلى المقر العام البريطاني في نابلس للإبلاغ عن هذا التطور الجديد، وانطلقت في إثرهم مع العرب الذين كانوا برفقتي. اقتحمنا خطوطهم الخلفية في اندفاعات مفاجئة وهجومية، فطعنا المئات واستحوذنا على بعض المدفعية والمؤن. لم أعد رجلاً؛ أصبحت آلة قتل. فقدت الشعور. أصبح الموت مألوفاً لدي منذ زمن. قتلت لأن الحياة ماتت فيّ ولم يعد ثمة أمر آخر أقوم به.

بعيد الساعة الثامنة صباحاً، كاد الجيشان التركيان السابع والثامن، المنسحبان بسرعة، يصلان إلى محيط بيسان حين قطع البريطانيون عليهما الطريق وصدوهما، فأُجبِرا على الاستسلام.

ووفق اتفاق، كان عليهما بحلول الساعة الرابعة مساء السير بهدوء إلى خطوط الحلفاء كأسرى حرب، ولكن فيما كان البريطانيون ينتظرون، أشعل الأتراك النار في ذخيرتهم وعرباتهم ومؤنهم وحاولوا مجدداً انتزاع حريتهم بالتوجه إلى نهر الأردن. وكان الجزء الذي وجب عليهم عبوره مليئاً بالتلال ولم يكن التقدم السريع ممكناً فيه؛ كانت الشمس على وشك الشروق في صباح ٢١ أيلول ١٩١٨ حين وصلوا إلى حافة المياه. وبدأوا يسعون في فوضى إلى بلوغ الضفة الأخرى والالتحاق بالجيش التركي الرابع وربما إقامة خط دفاع جديد.

لحقت مع مرافقيّ العرب بهم بأقرب ما استطعت حين عرفت بأنهم لم يلتزموا بشروط الاستسلام. وبلغنا خطوطهم الخلفية قرب النهر واقتحمنا صفوفهم في هجمات شرسة. ومجدداً قتلنا كثيرين بنصال باردة، فيما غرق آخرون خلال محاولاتهم المسعورة لعبور النهر.

في هذه الأثناء تحرك الإنكليز الذين كانوا يتبعوننا شمالاً حيث كان لا يزال ستة آلاف تركي يحاولون العبور وأسروهم مجدداً.

وعلى الرغم من أن قوتي المؤلفة من أكثر من ألف خيال عربي بقليل كانت صغيرة مقارنة بالأتراك الفارين، كان الأتراك فاقدي المعنويات تماماً ففقدوا السيطرة تماماً وهرعوا إلى أي ملجأ كان حين شننّا عليهم هجمات مفاجئة. واستمررنا في مطاردتهم عبر الأراضي الأردنية والتضييق عليهم. وعلى الضفة الشرقية للأردن حاولوا أن يستريحوا، ولكن الطائرات البريطانية قصفتهم وأُجبِروا على الفرار مجدداً. وتوجهوا إلى تبنة في انسحابهم المحفوف بالخطر. ولاحقتهم الطائرات ورأيت فصائل كاملة تُمحى بالقنابل البريطانية.

ولم يتنفسوا الصعداء إلى أن وصلوا إلى الممرات الجبلية الضيقة، فاختبأوا بين الأشجار والشجيرات.

وتابعوا المسير، وتوجهوا شمالاً من تبنة إلى إربد.

تبعناهم، وبحلول هذا الوقت أصبح عدد خيالتي حوالى ألفين إذ التحقت بنا قبائل عربية متفرقة خلال عبورنا. وجعلتنا أعدادنا الإضافية أصلب وأبقينا مؤخرة الأتراك في ذعر شديد.

في مساء ٢٢ أيلول فيما وصل الجيش المنسحب إلى محيط إربد لاحظت إشارة هليوغرافية [الهليوغراف جهاز لإرسال البرقيات لاسلكياً باستخدام أشعة الشمس] تُطلَق في السماء. كان مصدرها مقر القائد العام للقوات التركية ولا شك في أنها كانت إشارة حظ أُطلِقت على أمل ضعيف بأن يراها أحد، وكان واضحاً أن اتصالاتهم البرقية كانت معطلة تماماً، فسرت الإشارة وعرفت من الفوج الذي أطلقها أن تعزيزات قوية كانت مطلوبة فوراً لحماية درعا ودمشق.

وقرأ الضباط الأتراك في الجيش المنسحب الإشارة أيضاً، فانطلقوا فوراً باتجاه المزيريب. وفي المزيريب حاولوا جمع جنودهم المنهكين والمتعبين في شكل ما من التنظيم والانضباط، وأرسلوا فوجين إلى الجنوب الغربي باتجاه درعا فيما توجّه الجنود الباقون شمالاً باتجاه دمشق.

وشعرت بأنهم ارتكبوا خطأً فادحاً بتقسيم قواتهم واغتنمت الفرصة. قدت العرب في هجوم شرس مركز على القوات المسارعة للدفاع عن درعا، ما أجبر أحد الفوجين على العودة والفرار باتجاه المزيريب، فيما تشتت الفوج الآخر في الاتجاهات كلها.

لم نعطِهم الوقت لإعادة التجمع في ما لو كانت معنوياتهم عالية كفاية ليتمكنوا من القيام بذلك. قيادة سريعة وقوية للأحصنة، وهجوم قاسٍ، مفاجئ عادة، وبعض الأسرى، ونرحل.

بعد تشتيت الفوجين المتجهين إلى درعا، قدنا أحصنتنا بسرعة كبيرة وراء الجزء الآخر من الجيوش المنسحبة وبلغناه في منطقة الشيخ مسكين. حصل

هذا في ٢٤ أيلول وكان الصدام دموياً، لقد هزمناهم واخترقنا صفوفهم؛ كانت خسائرهم في الرجال كبيرة جداً.

انطلقنا مجدداً. استراحة بسيطة. قطعنا أسلاك البرق التركية مجدداً، هذه المرة بين المقر العام الرئيسي والجيوش المتحصنة.

وبلغتنا أنباء مشجعة؛ عرفنا بأن جيشاً عربياً قوياً بقيادة الأمير الشريف فيصل، قائدهم العام، وسبعة قادة متمكنين آخرين، من بينهم صديقي الشيخ نوري يوسف، شن هجوماً على المعقل التركي في درعا وطرد تماماً الجيش التركي الرابع الذي كان متمركزاً هناك وأجبره على الفرار.

لقد بدأ الآن التحول الأكبر للحرب في الشرق الأدنى. كانت تفصل مسافة لا تتعدى سبعة أو ثمانية أميال بين الجيوش السابع والثامن والرابع، ولكنها لم تبذل أي جهد للتجمع. بدت مشلولة من الخوف وغير منضبطة أبداً فهي فرت بقوتها كلها باتجاه دمشق، المعقل التركي الوحيد المتبقي.

لم يُنزَل انتقام في شكل عديم الرحمة على ضحاياه أكثر من الانتقام الذي أنزله العرب. لم يتوانَ الأمير فيصل وجيشه القوي في مطاردتهما الجيش الرابع؛ قطّعاه إرباً، وخلّف الأتراك وراءهم نهراً من الدماء.

في كل يوم كانت قواتي، خلال مطاردتها الجيشين السابع والثامن، تنمو عددياً باطراد، فالمئات من العرب التحقوا في كل يوم بنا من القرى والقبائل في الداخل. احتسبت أخيراً حوالى ستة آلاف خيال كان كل منهم أكثر ميلاً إلى التهور والانتقام من الآخر.

في عملي العسكري كله لم أشهد حرصاً في الرؤية ووعياً وشجاعة وانضباطاً كتلك التي أبداها خيالة الصحراء هؤلاء.

لم يكن من شيء اسمه الاستسلام؛ وعرف الأتراك أنهم لا يستطيعون أن يتوقعوا أي رحمة. كان انسحابهم الأكثر دموية ربما خلال الحرب. طبعاً استرحنا ونمنا لبضع ساعات من وقت إلى آخر، ولكن بدا أن ما من عين أغمضت وما من عضلة استراحت في صفوفنا خلال تلك المطاردة التي لا تُنسى. قدت آلة قتل تحركها البغضاء وعملت في شكل كامل. وكانت العاطفة قد جفّت فيّ وكنت غير مكترث للموت سواء أنزلته أو راوغته.

في صباح ٣٠ أيلول، عند الساعة الخامسة والنصف تقريباً، وصلنا إلى موقع يبعد سبعة أميال جنوب دمشق. وشعرت بأن العدو سيحاول مغادرة المدينة والفرار فاتخذت إجراءات لإفشال خطة كهذه. وأمرت قواتي بالتحرك بالسرعة القصوى إلى الوجهة الشمالية الغربية المفضية إلى إحدى الطرق السريعة الرئيسية المؤدية إلى المدينة. وبحلول الساعة العاشرة والنصف، كنا في الموقع حيث تنحدر الطريق بحدة. وهناك انتظرنا.

كان الوقت بعيد الظهيرة حين سمعنا وقع حوافر الأحصنة من بعيد. وخلال دقائق قليلة أبلغتْ مواقعنا على التلال أن ثمة قوة من فوج يلديريم التركي تتحرك بسرعة وأن الخيالة يتقدمون المشاة.

أمرت رجالي بامتطاء أحصنتهم، وكانت صيحة الحرب عبارة عن صوت عالي الطبقة طغى على ضجيج الأحصنة الممتطاة السريعة. كان العرب كالمجانين في اقتحام صفوف العدو وهم يضربون ويقطعون ويغمدون

نصالهم في الأتراك المذهولين. وبعد الصدمة الأولى، جمع الأتراك بيأس قواتهم وحاولوا شق طريق لهم بالقتال. كانت خسائرهم هائلة وكانت المعركة دموية وخالية من الرحمة. وخلال ساعة كان الأتراك الناجون يتراجعون باتجاه أبواب المدينة.

لم نلحق بهم. أمرت خيالتي الأشداء بالتراجع إلى موقع قريب من الكسوة، وهي قرية صغيرة عند أطراف دمشق شعرت بأنها تقع مباشرة في طريق الجيش التركي الرابع الذي كان مطارداً من رجال الأمير الشريف فيصل. وأملت في صد الأتراك ووقف تقدمهم إلى دمشق. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهيرة حين ظهر الجيش التركي الرابع وهو في وضع فوضوي. ومجدداً، وكطوربيد، انطلقنا خيالة جامحين في كتلة مجنونة بيضاء وزاعقة، وهاجمنا الأتراك، وقتلنا المئات. وكان ظهورنا مفاجئاً جداً وكانت قوة غارتنا سريعة جداً، فلم يبذلوا سوى جهد بسيط، هذا إن استطاعوا ذلك، في الدفاع عن أنفسهم. وهاجمناهم في قلب صفوفهم وحولها، ومضينا قبل أن يتمكنوا من إعادة تنظيم أنفسهم.

بحلول الساعة الخامسة والنصف مساء، كان الموقف التركي شديد الخطورة. كانت قواتي أمامهم، وكان الأمير فيصل والقادة المشاركين في المؤخرة، وكانت القوات البريطانية بقيادة الجنرال أللنبي تنفذ اقتحامات في داخل الصفوف التركية وتقترب من محاصرة الجناح الغربي.

استسلم الأتراك وسارعوا إلى الخطوط البريطانية إذ عرفوا أن السيف العربي لم يوفِّر يوماً عدواً.

في ذلك المساء التحقت بنوري يوسف والقادة العرب وسمعتهم يباركونني باسم الله.

عاطفياً كنت لا أزال غير قادر على الانفعال بنصرنا. لقد ساعدت في كسر ظهر الجيش التركي، وبدأت السلطنة العثمانية ترتعد تحت عبء الهزيمة. وخلال أقل من أربعة أسابيع، كانت الجيوش التركية، السابع والثامن والرابع، قد مُحِيت عملياً؛ تُرِكَ الآلاف من الجرحى ليموتوا على جوانب الطرق؛ وأُسِرت آلاف لا تُحصَى. ولم يعد حلفاؤهم الألمان قادرين على المساعدة إذ أُجبِروا على نقل الجنود المتوافرين جميعاً إلى الجبهة الأوروبية في جهدهم اليائس الأخير لتأخير الهزيمة.

في صباح ١ تشرين الأول ١٩١٨، سارت القوات العربية والإنكليزية مجتمعة إلى دمشق واستولت على المدينة. ولم يدخل الأمير الشريف فيصل، القائد العربي العام، إلى المدينة إلا بعد بضعة أيام. واستُقبِل بالأبهة والمكانة الخاصين بقيصر عائد من انتصار. وكست الأعلام الملونة المختلفة للحلفاء كل نافذة. وصدحت الموسيقى في الهواء، موسيقى عسكرية وهتاف وضوضاء وحماسة صاخبة.

ولم يدخل الأمير الشريف فيصل كقائد فاتح بل كرجل ذي كرامة هادئة، وقاد حصانه إلى الساحة حيث كان القائد التركي جمال باشا أوقف فيها رجالاً عرباً شرفاء وشنقهم من دون مسرحية المحاكمة العسكرية حتى.

لم يكن لدى الشريف فيصل، وهو رجل سلطة وقدَر، الحساس كما أظن والطيب، كلمات تنم عن فخر عسكري. رفع يديه شكراً لله وعبّر عن

امتنانه للاستقبال.

وبعد يوم على دخولي إلى دمشق، دخل باقي الجيش العربي بحمولاتهم وجاء وراءهم على جمل رجل أسموه خواجة المصاري أي صراف الرواتب. وعلمت أن راكب الجمل هو النقيب لورنس، المعروف اليوم بلورنس العرب. وحضر إليه الشيوخ مع رجالهم ليسدد لهم فواتيرهم المصدقة من القادة العرب.

لم يقم النقيب لورنس وفق معلوماتي بأي شيء للتحريض على الثورة العربية، ولم يؤدِّ أي دور في التكتيكات العسكرية العربية. وحين سمعت به للمرة الأولى كان صراف الرواتب، لا أكثر. وهكذا كان بالنسبة إلى شقيق الملك فيصل، الأمير عبد الله، الذي عرفته.

لا أكتب انتقاصاً من قدْر أحد. كنت رجلاً مقاتلاً. على البعض القتال وعلى البعض الآخر الدفع.

الفصل السادس عشر

لقائي بشقيقيّ والتحاقي بالفيلق الفرنسي للشرق

في ٤ تشرين الثاني ١٩١٨، بلغت دمشق أنباء مفادها بأن متطوعين أرمناً من أميركا توصلوا إلى تفاهم مع الفرنسيين والحلفاء وُعِدوا فيه بأن تكون ولاية كيليكيا التركية وطناً لهم. ونصت تقارير على أنهم كانوا يسيرون على امتداد ساحل المتوسط باتجاه بيروت. وتدبرت إجازة من القوات العربية وجمعت قوة من ٨٠٠ شخص من الأرمن المحليين المتطوعين وغادرنا بعد فترة وجيزة إلى بيروت.

بدوت وكأن روحي عادت إليّ حين منحنا المقر العام العربي أوسمة عسكرية لدى مغادرتنا، وأرسل الحلفاء ممثلين عنهم لجعل المناسبة رائعة.

وطوال الطريق، حيتنا القرى العربية، وبدت رحلتنا حفلة وإجازة مستمرة.

عاودني الشعور مجدداً، وتساءلت إن كنت سأرى شقيقيّ وخططت لرحلة سريعة إلى حلب من أجل شقيقتي.

وبعد أربعة أيام، وصلنا إلى بيروت واستقبلنا وفد من المتطوعين الأرمن.

سألت فوراً جندياً أرمنياً إن كان يعرف أي أحد في فيلقه يتحدّر من إفيريك.

قال: «نعم، سيدي. يتحدر رقيب وعريف، وهما شقيقان، من إفيريك أساساً».

سألت: «وما اسماهما؟».

قال: «بارسيغ وآرام طوروسيان».

خفق قلبي في أعماقه إذ شعرت بأنني سألتقي قريباً بشقيقيّ اللذين كانا متمركزين هنا مع الفيلق الأرمني الآتي من أميركا.

سألت الجندي أن ينقل خبر وصولي إلى شقيقيّ، وذرعت القاعة الكئيبة ذهاباً وإياباً. وبعد قليل، مشى إليّ شابان وسألا: «هل من رجل هنا باسم النقيب طوروسيان؟ هو شقيقنا ونريد أن نراه».

نظرت إلى وجهيهما بلهفة، ثم سألت: «هل ستعرفانه حين تريانه؟».

«طبعاً. افترقنا لسنوات كثيرة، ولكننا متأكدين أننا سنعرفه إن التقينا به».

قلت: «حسناً، فتشا حولكما، واصعدا إلى الطبقة الثانية، وإن وجدتماه أخبراني».

العريف آرام طوروسيان، شقيق النقيب طوروسيان. جاء متطوعاً مع شقيقه من الولايات المتحدة. قاتل بشجاعة في فلسطين وعند جبهة كيليكيا. نال أوسمة من إنكلترا وفرنسا

بعد قليل، عادا وقالا إنهما كانا يعرفان أنه موجود، ولكنهما لم يتمكنا من العثور عليه.

قلت لهما: «انظرا جيداً، فهو قريب منكما». ومع هذه الجملة، عرفاني وتعانقنا عناقاً حاراً.

جلسنا وأخبرنا قصصنا. ولم تكن قصتي مبهجة لهما.

عرفت منهما أن رسالتي وصلتهما عبر السفارة الأميركية ونشرا الخبر بأسرع ما استطاعا بين الأصدقاء والمواطنين. وكانت النتيجة أن ألفي متطوع انضموا إلى الحلفاء. وحصل هذا في صيف ١٩١٧. ونزل الجميع في قبرص حيث التحقوا بالفرنسيين. وخلال سنة، قاتلوا وانتصروا عند الجبهة الفلسطينية. تحدثنا لساعات وساعات.

في اليوم التالي غادرت مع شقيقيّ لجلب شقيقتي بايزر من حلب. ولم نتحدث سوى عن لم شملنا.

وجدناها - ميتة - ومدفونة في المقبرة الوطنية في حلب حيث لا يزال رفاتها إلى يومنا هذا. كانت قد توفيت من الحزن والوحدة والحرمان الذي عانته.

انهار شقيقاي وبكيا ولكنني لم أستطع سوى أن أقف جاف العينين شاهداً على الحزن الذي تملكني ولكن من دون أن أعبّر عنه. في حديقة قديمة في شبه الجزيرة العربية نظرت إلى عينين كنجمتين ذابلتين ومات شيء ما فيّ.

* * * *

بقيت في بيروت لشهرين تقريباً إلى أن وصل روميو، القائد الفرنسي للقوات الأرمنية، للاستيلاء على كيليكيا. وأُرسِلت سرايا أرمنية كثيرة على طريق إعادة التوطين لضمان العودة السالمة للاجئين إلى ديارهم.

ونُقِلتُ إلى مدينة الإسكندرونة فيما سار شقيقاي مع الجزء الأساسي من الجيش، إلى أضنة، وهي من المدن الرئيسية في كيليكيا.

وفّر الأتراك في خوف وذعر أمام الفيلق الأرمني، ولكن في الطرق الجبلية المعزولة كمنوا للقوافل الأرمنية المتفرقة التي جاءت من الجهات كلها وهاجموها. وسرعان ما أصبح ضرورياً تأسيس مواقع ومواكبات عسكرية في مختلف أرجاء الولاية.

في هذه الأزمة، أُرسِلت مع ٥٠ رجلاً إلى المنطقة قرب بياس حيث كان الأتراك قد تجمعوا بأعداد كبيرة وكانوا يرتكبون سرقات واعتداءات لا تُحصَى تحت جنح الظلام.

لقد نفّس الأتراك المهزومون عن غضبهم كلما وجدوا قافلة عزلاء. وكانت ثمة قوافل كثيرة كذلك. وعجبت لصلابة شعبي فيما ناضلوا للذهاب إلى الموطن الممنوح لهم والأمن الذي وُعِدوا به. جاؤوا رثين ومشعّثين بأعداد كبيرة: رجال بلحى كثيفة، ونساء مرهقات وضعيفات في ثياب رثة، وأطفال ضعفاء ونصف جياع. كان الخوف لا يزال يستوطن عيونهم، وحين كانت تُعرَض عليهم مرافقة من موقع عسكري إلى آخر، كانوا يحاولون تقبيل أيدينا عرفاناً.

وفيما مرت الأسابيع، ازدادت وتيرة الهجمات من العصابات التركية

المتفرقة، وبدأت أتساءل عن المصدر المحتمل لأسلحتهم وذخائرهم. وأبلغت المسألة إلى المقر العام ونلت موافقة على شن غارة على قراهم. وفعلت، ولدهشتي الكبرى، وجدت أن مخازن السلاح والذخيرة الخاصة بهم كانت تُموَّن من الفرنسيين.

أبلغت معلوماتي في برقية إلى قادتي في الإسكندرونة. ولم يُتّخَذ أي إجراء، وبدأت أشعر بشبهات حول الموقف.

وبعد وقت قصير، أمرني العقيد روميو بتنظيم سرية من ٤٠ خيالاً والانتقال فوراً إلى مدينة أضنة.

في ٢٨ آذار ١٩١٩ وصلت إلى غايتنا، بعدما قطعت بعض المسافة بالقطار.

كانت كيليكيا تتنفس الحرية هناك. كانت شوارع المدن والقرى مزدحمة، وكان كل يوم يوم احتفال. بدت السلطنة التركية تتفكك. فمنذ توقيع الهدنة، خضعت المنطقة حول أضاليا [أنطاليا اليوم] لاحتلال إيطالي، وسميرنا لاحتلال يوناني، وكانت القسطنطينية جزئياً بأيدي الحلفاء.

بدت أشهر الربيع والصيف هادئة، ولكن مع اقتراب الخريف، ظهر تبدل واضح في موقف أصدقائنا وحماتنا الحلفاء، الفرنسيين والبريطانيين، وشعرت بأن مكيدة كانت تُحاك قبل فترة طويلة.

كانت أعداد غفيرة من أسرى الحرب الأتراك تُطلَق باستمرار من الإنكليز، وتنتقل يومياً عبر كيليكيا من طريق خط ألدن للسكك الحديد.

وفجأة أُخلِيت المواقع في عينتاب ومرعش وكيليس وأضنة من حراسها

البريطانيين وسُلِّمت إلى الفيلق الأرمني غير المستعد ومن دون شرح كافٍ. ولمّح أحد الضباط الإنكليز إليّ أن معاهدة سرية باتت قائمة بين الفرنسيين والأتراك ستؤدي في نهاية المطاف إلى إخلاء الحلفاء لكيليكيا. وخلال أقل من شهر، كانت القوات البريطانية كلها عملياً قد سُحِبت.

وكانت الخطوة التالية التي عومِل بها شعبي كبيادق أكثر مأساوية: استقال الحاكم العسكري الفرنسي لكيليكيا من منصبه وعيّن تركياً خلفاً له.

شعر شعبي بالمرارة؛ كانوا قد تلقوا ما اعتبروه وعوداً غير قابلة للنكث. وشعرت بالمرارة ولكن ليس بالمفاجأة إذ كنت أعرف غدر الدبلوماسية. كانت الحرب تصنع من الرجال في المعركة وحوشاً، وحوشاً شريرة تتحلى في غالبية الأحيان بالبطولة؛ أما الدبلوماسية فكانت لعبة بنات آوى. وكنت أفضّل القتال.

ما إن سمعت بخطوة الحاكم العسكري الفرنسي حتى قررت إبقاء عيني على المقر العام. وفي بعد ظهيرة أحد الأيام، قيل إن رائداً تركياً غادر المقر العام للعقيد روميو. أمرت باللحاق به، ودخل إلى معسكر تركي عند أطراف المدينة.

في تلك الليلة، ارتديت ثياباً مدنية وانتقلت إلى المعسكر التركي. ودخلت عملياً إلى خطوطهم، وابتسمت وحييت الحراس المشدوهين إلى حد كبير بالتحية الودودة المعتادة «السلام عليكم». ردوا في شكل شبه تلقائي، وعرّفت بنفسي، كأمين بك، النقيب المدفعي من أدرنة، وعرضت صوراً لنفسي في البزة التركية لطمأنتهم.

رُوفِقت إلى المسؤولين البارزين الذين بدوا مسرورين بزيارتي ولكنهم تساءلوا عن السبب وراء جرأتي على التسكع وحدي في المحيط مع توافر الفرص كلها ليقرر عربي راغب في الانتقام أن يقتلني بسهولة. كان لدي رد سلس على ذلك، فشرحت أنني كنت في إجازة من الفرقة الحلبية وتوقفت عندهم في طريقي إلى قيصرية. ولإعطاء روايتي الصدقية وتعزيزها قصتي، قلت لهم إنني أتظاهر بأنني أرمني خوفاً من التقدم أكثر في رحلتي بسبب تقارير اقتراب وحدة أرمنية ضخمة من ١٥ ألف رجل من مرسين.

أصبحوا تدريجياً أكثر قابلية للتواصل.

سالت: «هل يستعد جنودكم جميعاً للمغادرة مباشرة إلى منازلهم؟».

ضحكوا وأكدوا لي أن من شبه المؤكد أن الجنود لن يفعلوا ذلك؛ كانوا سينضمون إلى جيش مصطفى كمال الذي كان رجلاً قوياً والذي سيبرئ جرح تركيا وسيستعيد قريباً أراضيها الضائعة.

«لقد أصبحت الأمور بالنسبة إلينا جميلة وحسنة الطالع، أيها النقيب، إذ تحول أعداؤنا الحلفاء الآن إلى أصدقاء نحن في أمسّ الحاجة إليهم. طبعاً، ليس صعباً فهم الوضع: هم جميعاً راغبون في التحكم بتركيا، ولكنهم لا يستطيعون الاتفاق في ما بينهم، لذلك يقدمون إلينا السلاح والذخيرة. هم يفضلون ترك تركيا بين أيدي الأتراك على تركها مشتتة بين أيديهم، فثقتهم بعضهم ببعض أقل من ثقتهم بنا».

وقال ضابط آخر: «الأمر المزعج جداً لنا الآن هو الأرمن؛ هم أقوياء إلى حد كبير هنا في كيليكيا إضافة إلى أنهم مسلحون جيداً. لكن الفرنسيين

يؤكدون لنا أن كيليكيا ستُعاد لنا خلال أشهر قليلة».

شاركتهم ضحكهم بحذق وفي التصفيق الذي تلا المواقف.

نوقشت خطط مختلفة، وعلمت بأن الفرنسيين ضمنوا سلامة عبور الأتراك إلى أضنة وأرسلوا حصصاً تموينية في المساء السابق لتلبية الحاجات الفورية للأتراك.

لدى حلول أول المساء، غادرت بتردد بادٍ، وكانت أمنياتهم الطيبة تتردد في أذنيّ.

لم أنم جيداً تلك الليلة، إذ بصفتي عسكرياً كان عليّ وضع خطة عمل.

وفي الصباح التالي، سارعت إلى مجلس الاتحاد القومي الأرمني ونقلت إليه المعلومات التي جمعتها، واقترحت في الوقت نفسه خطة عمل من ثلاث نقاط:

١- رفع علم الثورة في كيليكيا،

٢- القبض على الضباط الفرنسيين جميعاً ومرافقتهم إلى خارج الولاية،

٣- تسليح البلدات كلها وتحصينها باعتبارها مهددة بهجوم فوري، خصوصاً البلدات الحدودية، والمداخل الرئيسية إلى أراضينا كلها.

وأشرت إلى أن الحلفاء عندئذ قد يحترمون وعودهم قليلاً.

رُفِضت مقترحاتي. كنت عسكرياً، وواجهت المسألة مباشرة، إذ تألف المجلس من رجال أعمال أثرياء، جاهلين تماماً المسائل السياسية والعسكرية

ومهتمين بنجاحاتهم الشخصية أكثر من خيانة الحلفاء لشعبهم. أصروا على قناعتهم بأنهم محميون بقرارات مؤتمر باريس. وحاولت أن أشير إلى أننا لم نكن نستطيع استخدام القرارات والكلمات في مواجهة الرصاص، ولكنني لم أتمكن من إقناعهم بالكارثة المحدقة التي كانت تلوح كسيف على الولاية.

مرت ثلاثة أشهر أو أكثر. وبحلول هذا الوقت، كان الرسل الأتراك يتواصلون علناً مع السلطات الفرنسية.

وصل أمر من الحكومة الفرنسية ينص على أن للجنود الأرمن الراغبين في الاستقالة من الخدمة العسكرية الحرية للقيام بذلك.

وكان أكثر من نصف المتطوعين الأرمن من أميركا مقتنعين لمدة طويلة بخيانة الفرنسيين إيانا وسافروا بحراً إلى أميركا يملؤهم الاشمئزاز وخيبة الأمل.

وحل محل العقيد روميو العقيد فليبِد - ماري.

تجمعت العاصفة. بدأ المهاجرون الأتراك يظهرون في الأنحاء كلها. ونشب الاضطراب. وكان في إمكان المرء الشعور بالاتجاهات الخفية. وعلى امتداد شرق كيليكيا وشمالها الشرقي، بدأ أتراك كماليون يحاصرون المدن الحدودية. وفي الوقت نفسه تقريباً، استُدعِيت القوات الفرنسية من محيط مرعش، تاركة السكان ضحية سهلة للمهاجمين. وفي أقل من أسبوع، دخل الأتراك إلى المدينة وذُبح حوالى ١٢ ألف أرمني، فيما تجمد حوالى ستة آلاف جندي وماتوا دنقاً.

وبدأ الأتراك الكماليون يظهرون بأعداد أكبر، وفي منطقة هادجين بدأوا بإزعاج السكان الأرمن. كانت ألف عائلة تقريباً فقط تعيش في ذلك الجزء، ولأشهر قاتلت ببسالة دفاعاً عن نفسها، متوقعة دائماً مساعدة فرنسية كانت موعودة ولم تصل قط.

وساءت الأوضاع. واستمر الفرنسيون في أداء لعبتهم الثلاثية. كانوا أحياناً يساعدون الأتراك؛ ثم يقدمون مساعدة صغيرة إلى الأرمن؛ وأحياناً كانت مصالحهم الخاصة بهم تطغى فيُهدَّد الأتراك والأرمن معاً ويُضغَط عليهم ويُوضَعون في مواجهة بعضهم بعضاً.

وخلال هذه المراحل غير المستقرة، كنا أنا ومفرزتي نحمي القرى الصغيرة المحيطة بأضنة.

شعرت بعجز وخيبة وربما بيأس مهمِل. تعبت من اللعبة وقررت الاستقالة من الخدمة الفرنسية، وهو عمل كان سهلاً جداً فأنا لم أوقع قط اتفاقية وكنت حراً في المغادرة متى أردت.

في هذه الأثناء، كان الاتحاد القومي الأرمني يطلب متطوعين من الأرمن لحماية أضنة في شباط ١٩٢٠. قبلت قيادة الجبهات عند الخطوط الغربية والجنوبية. ولخمسة أسابيع قدمت خدماتي، ولكن حين رأيت الفرنسيين يناورون ولا يسمحون لنا بالعمل كما نريد، شعرت بأنني لن أتمكن من تنفيذ خططي، فاستقلت.

وراء خطوط العصابات التركية

في نيسان ١٩٢٠، بعد حوالى سنة ونصف السنة على الهدنة، لم تبدر إشارات إلى سلام في تركيا. كانت أعمال اللصوصية تتفاقم وبدأ أتباع مصطفى كمال يقلقون الداخل ويرهِبونه. وذُبح جنود فرنسيون فيما أصبح الأتراك أكثر ثقة وقوة، وهكذا تعرض الخائنون لخيانة. وانتشر العصيان في البلاد.

وبعد أقل من أسبوع على استقالتي من الخدمة الأرمنية التطوعية، كنت في طريقي إلى المقاطعات الجبلية على رأس ١٥ خيالاً شرساً ومصمماً، وكانوا جميعاً قناصة، وخيالة مهرة، وقادرين على التحدث بالتركية ببلاغة.

كانت مغامرة كاملة؛ على الرغم من امتلاكي خطة حفظتها عن ظهر قلب، عرفت أن لا أمل. لكن كان عليّ أن أستمر في التقدم لأن القلق الغامض

وغير القابل للتعبير عنه كان يمنع عليّ الراحة. فكّرت في جميلة ووالديّ وبايزر والباشا ومحرّم كأناس لم يموتوا بل كأشخاص استوطنوا حلماً. لم يكن من شيء حقيقي في العالم. كنت يائساً، وإن قُيِّضت لنهايتي أن تكون يائسة فذلك مقبول أيضاً. ارتدينا بزات رجال العصابات التركية لتسهيل دخولنا إلى القرى التركية ونشر دعايتنا.

كانت نيتي تغطية أوسع مساحة ممكنة من أراضيهم واستخدام كل وسيلة للتشويش عليهم ومفاجأتهم بنشر القصص الأكثر إقلاقاً عن قوة الأرمن والفرنسيين وعزمهم. وفيما لم أستطع أن أقاتلهم أملت في أن أخيفهم بما يكفي لجعلهم يترددون قبل مهاجمة القرى المسيحية التي كانت عزلاء عملياً وكان سكانها يتألفون عموماً من نساء وأطفال.

كانت خبراتي ومغامراتي فيما طفت من مكان إلى مكان مليئة بالأمور التي يلزمها قصة طويلة عن المغامرات الشخصية البعيدة عن التاريخ، وبما أنني لست راوياً جيداً، أخشى أن تجعل المغامرات الشخصية أي قصة طويلة أصلاً تبدو أكثر استحالة. لكنني لا أستطيع أن أمتنع تماماً عن رواية الذكريات، وأبرز حادثتين ترفضان مبارحة ذاكرتي وتصران على أن تُروَيا.

طفنا أمكنة كثيرة عبر البلاد الجبلية لأسابيع كثيرة، ونلنا ثقة القرويين والجنود، وعلّمت وتعلمت كثيراً من القوات الكمالية الأكثر يأساً ومن العصابات المغيرة المؤلفة من قرويين أتراك.

وبدا أننا عند كل منعطف طريق كنا نجد أدلة على أعمال وحشية. وجدنا جثثاً لجنود فرنسيين مقطعة الأوصال ومشوهة فلا يمكن التعرف عليها.

وجلسنا عند نيران معسكرات واستمعنا إلى قصص تشي بالدماء والبربرية. وأحياناً دفنّا موتى وحاولنا مساعدة محتضرين. كان هذا الفيلق الشهير والشجاع، بقيادة الرائد ميشال، قد انتصر في مواجهات كثيرة عند جبهة مقدونيا. وفي محيط بوزانتي (كيليكيا) فُوجِئوا وأحاط بهم الأتراك، وفي الهجوم المباغت، ذُبِح أكثر من نصف الرجال. وقاتل الباقون مخترقين الصفوف التركية وعثروا على ملجأ في قلعة، وبقوا هناك لخمسة أسابيع. حاولنا إنقاذهم، ولكن في كل مرة كنا نُرَد على أعقابنا.

وفي إحدى الليالي، فر الجنود الفرنسيون، بقيادة الرائد ميشال الشجاع، عبر أبواب القلعة، واخترقوا التحصينات التركية، حاملين جرحاهم، الذين بلغ عددهم ٣٠٠، وتوجهوا غرباً إلى طرسوس. ويوماً بعد يوم، مرت بنا عصابات كردية وتركية تنشد أناشيد النصر.

وفيما كنت في بوزانتي، كان شقيقاي، الرقيب بارسيغ والعريف آرام، مع ٣٢ رجلاً فقط من قواتهم، يقاتلون. وقاتل بارسيغ، باعتباره قائد جسر ميسيس، ببسالة لثلاثة أيام متواصلة ضد قوات كمالية من ألفي رجل، وأنقذ مع رجاله أكثر من ألف لاجئ أرمني ووصلوا جميعاً بأمان إلى غايتهم أضنة.

وفي يوم من الأيام قرب طرسوس، عرفنا بأن ٢٠٠ أو أكثر من رجال العصابات كانوا في طريقهم إلى نهب المدينة وقتل مسيحييها. وكانت عصابتي صغيرة جداً لصدهم، فعمدت إلى حيلة للحصول على مساعدة القرى التركية المحيطة.

كان أحد رجالي، واسمه مارديغ، ضليعاً في طقوس العبادة الإسلامية ويستطيع أن يحاكي ببراعة قولاً وركوعاً أي حجة تركي. حصلنا له على رداء حجة وأُعِدت العدة لأن يلقي خطبة مهددة ومحذرة.

وسبقنا رجلان من رجالي بيوم وأعلنا لزعماء القرية حلول مناسبة دينية. ونُظِّف جامع المقاطعة وفُرِشت سجادة في شكل خاص على المنبر.

وجاء حوالى ألف قروي تركي، أمي وجاهل، لتحيتنا، وقبلوا بورع يد مارديغ فيما مشى ببطء باتجاه الجامع برأس منحنٍ وسحنة مقدسة لرجل ورع.

لا أظن أن مارديغ تسلى في حياته كما فعل آنذاك. تجمع الناس حول نافورة الجامع ليتوضأوا ويغسلوا أيديهم ووجوههم وأقدامهم، ودخلوا بهدوء إلى حضرة الحجة الذي كان يُفترَض أن يملأ أرواحهم بروح النبي. كانت اللحظة متوترة، وشبه هستيرية، لنا؛ كانت ممتعة وخطيرة. ومشى مارديغ بشجاعة ومهابة إلى المنبر وجلس باحتفالية على السجادة نفسها التي فُرِشت له.

فوجئت بالصلابة والوضوح اللذين اتسم بهما صوته، وفوجئت وارتحت فيما تلا فاتحة القرآن (سورة الفاتحة): «بسم الله الرحمن الرحيم...». وبانت على عينيه نظرة ألم وعلت ملامحه فيض من المشاعر المقدسة، قلّب عينيه وحرك ذراعيه في شكل محموم، ثم وبصوت أعلى حتى، أعلن مهمته.

بدأ بالقول:

«اسمعوا يا أتباع محمد ويا إخوتي الأعزاء، واستمعوا جيداً إلى الأمنيات المقدسة لقائدنا الأقدس. نعيش في أيام حزينة وشريرة، تتعرض خلالها منازلنا وبلادنا وديننا المقدس إلى الظلال السوداء للموت والدمار.

لقد دخل القادة السيئو السمعة لحكومتنا، جمعية الاتحاد والترقي، في النسيان بعدما ضحوا بحيوات مليونين من شباننا. وتستمر الحرب فيما سائر العالم في سلام. ما من منزل حتى في أبعد قرية لم يخسر عزيزاً. لكن الأمر لم ينتهِ. لقد حرّض قادتنا بأعمالهم الوحشية ضد الأرمن الكفار العالم علينا. أليست بلادنا ملأى بالمئات من الجنود الأجانب الذين يجبروننا على الخضوع؟ أين قادتنا اليوم؟ في أماكن غير معروفة، بأمان. لقد هجرونا في أكثر المراحل حرجاً وحملوا معهم الثروة الباقية في خزينتنا المنهوبة. يجلسون في بلدان أجنبية في جمال وضوء الشمس وراحة مع عشيقاتهم، فيما نبقى ونعاني. واليوم يبرز شرير آخر في وسطنا، قائد جديد، مصطفى كمال، نظم جيشاً جديداً من قطاع الطرق المتعطشين للدماء الذين ينهبون قرانا، ويغتصبون نساءنا، ويجبرون من بقي من أطفالنا وشباننا على الالتحاق بخدمتهم وأعمالهم الإرهابية.

يا له من وضع رهيب نواجهه. ماذا ستكون النهاية؟ يقنعونكم بقتل المسيحيين لتنالوا الجنة، فيما في الحقيقة هم يريدون الاستفادة المادية الشخصية. يقدمون لكم أكاذيب كريهة.

إن محمدنا غاضب وحزين جداً لأن أيدي المسلمين غارقة وملطخة بدماء المسيحيين. فلننهض كمؤمنين فعليين ونرفض خدمة هذا الطاغية مصطفى كمال. فلندمر جيوش عصاباته ونمنعهم من الدخول إلى قرانا. هكذا فقط يمكننا أن نتوقع رضا الله وننقذ شرفنا وشباننا ومنازلنا».

قام ماردیغ بعمل مذهل. أثرت كلماته في كثيرين منهم وتجمعوا حوله ليشكروا بتبجيل نصيحته ومشورته المقدستين.

وشكر الزعيم التركي للقرية التي يوجد فيها الجامع الحجَة الجديد شكراً جزيلاً، وتمنى عليه أن تطول زيارتنا. وبسرعة، خشيت أولاً أن تكون مفرطة، اعتذرنا عن عدم قبول الطلب، وقلنا إن علينا أن نرافق الحجة الطيب إلى قرى أخرى ليتمكن من تحذيرها من غضب الله قبل أن يفوت الأوان.

وغادرنا واعدين إياهم بالحماية في حال هوجموا فيما نحن في المحيط، وضمنّا شبه وعد منهم.

أمضينا الليل في خان كوزولوك حيث أكد لنا صاحب الخان التقرير عن توجه ٢٠٠ كمالي إلى طرسوس. وعلمنا لاحقاً بأن من المتوقع أن يمروا في هذه القرية في اليوم التالي وبدأنا نتساءل عن مصيرنا.

خلال الليل بأسره خططنا لطريقة نحتال بها عليهم فنجعلهم يفرون، وهي مغامرة بدت مجنونة لـ١٦ رجلاً. وكان قرارنا شجاعاً أكثر منه منطقياً وتركز على ممر غورلك الضيق الذي كان على العصابات الكمالية المرور به

في طريقها إلى طرسوس.

في الصباح التالي نهضنا باكراً وانتظرنا. اقتربت الساعة من التاسعة حين سمعنا جلبة خيالة يقتربون وسرعان ما سمعنا أغانيهم السفيهة. وخلال وقت قصير، حييناهم بلغة الإخوة.

شرحت أننا مؤيدون أشداء لمصطفى كمال، وأُرسِلنا كفريق استطلاع لحراسة الممر وضمان أمنه لجنوده الأوفياء عبر هذه الطريق تحديداً، ففي الماضي، هوجِم كماليون كثيرون ونُهِبوا من عصابات قوية من المنشقين كانت تنشط في هذا الجزء. وحذرتهم من ألّا يتجرأوا على تقدم إضافي حتى ما بعد الساعة الحادية عشرة لأنني كنت أود أن أجري تحقيقاً إضافياً لضمان أمنهم.

وكان الخان جذاباً، ولا بد من أن قصتي بدت حقيقية، وكان خداعهم سهلاً. لكن وفيما كنت على وشك قيادة رجالي بعيداً، تجمعوا حولنا حاملين نصالهم بتهور شديد، وللحظة خشيت من أن نكون قد تجاوزنا حدنا في النهاية. لكنهم عبروا ببساطة عن بسالتهم وأخبرونا عن خططهم لانتهاك كل عذراء مسيحية في طرسوس. وبوحشية مفرطة وبيّنة، حضونا على الإسراع.

ما إن ابتعدوا حتى حشنا أحصنتنا واتخذنا مواقع في الأطراف الصخرية المطلة على ممر غورلك الضيق. وأرسلت اثنين من رجالي إلى القرية التي كنا قد زرناها قبل يوم وطلبنا مساعدة فورية باسم الله. وخلال ٤٥ دقيقة فقط التحق بنا زعيم القرية ورجاله.

وُضِعت بنادق عند مدخل الممر الصخري ومخرجه وعلى جوانب المنحدرات الوعرة انبطح رجالنا متخفّين ومستعدين للكمين.

اقتربت الظهيرة قبل أن يأتي الكماليون ويتعرّجوا عبر الممر. وانتظرت حتى دخل الرجل الأخير إلى الممر فأعطيت الإشارة. انتهت المعركة في نصف ساعة، وأصبح الممر مكاناً لقتلى ومحتضرين.

وانتشرت أخبار الهجوم بسرعة، فخلال يومين أُرسِلت سرايا كاملة من الكماليين لحراسة الممر.

وبعد المعركة، لجأنا إلى الجبال واختبأنا لأسبوع. ثم سافرنا لنكسب ثقة زعماء قرى جديدة، ونُفشل خططاً تركيا بالخداع أو القتال. وقاتلنا وقتَلنا حتى أُنهِكنا.

قدت حصاني رجلاً لامبالياً، وتحولت شعلة القضية اليائسة إلى جمرة في الفراغ الكبير الذي بدا أنه حياتي. وفجأة وجدت نفسي من دون مهمة، ومن دون آمال جامحة أسير وراءها.

لكن جرأتنا والقناعة بأننا أتراك موالون انتشرتا في التلال. ودعانا زعيم قرية الذي سمع بأننا عدنا إلى التحرك على الطرق، إلى العشاء هناك. ولِمَ لا؟ قبلتُ؛ كان أمراً يجب ألّا أفعله لولا أنني لم أشعر بضياع كبير في فراغ أيامي. كنت قبلاً شجاعاً، وأصبحت الآن متهوراً، فعلى الطريق إلى قرية مضيفنا، مررنا عبر قرية أخرى قريبة جداً من قريته إذ لم تفرّقهما سوى بضعة أميال. وبدا أن رجالي فكروا في أن علينا أن نحاول استرضاء القريتين معاً، ووافقت ولكنني أصررت على الذهاب وحدي. كنت ضجراً حتى

الموت من رجالي، من حصاني. رغبت في رفقة وحدتي. أخذت مسدسي فقط وبضع قنابل يدوية ومشيت.

أعتقد أن العشاء مع مضيفي كان ممتازاً، وكانت القهوة التركية كثيفة وطيبة، وكانت النارجيلة منبّهة؛ يرتبط تذكري للمناسبة بحالة الجمود الكبير ا لذي كانت تعيشه المنطقة.

فجأة بدأت كلاب القرية تعوي، في لحظة، كما بدا، بدأ صراخ مستمر وعالٍ عند الباب. واتخذت الحياة معنى جديداً. امتُقِع لون زعيم القرية وتردد في الرد. أصبحت نقيباً أو زعيم «عصابة» مجدداً. أمرت مضيفي بالبقاء في الأعلى، فيما نزلت الدرج لأستعلم.

فتحت الباب ووجدت كماليَّين مسلَّحَين. كان هذا مهماً! كانت لحظة تحقيق الهدف الذي كنت أعيش من أجله! أغلقت الباب، وأقفلت المزلاج، وسحبت مسدسي، وصعدت الدرج بسرعة مجدداً. وما أن وصلت إلى الغرفة حيث تناولنا العشاء، حتى بدأ المسلحان بإطلاق النار على النوافذ. زحفت على الأرض ورميت قنبلة يدوية. رأيت شبحين يفترقان في الظلام فيما فرا للاحتماء بالأشجار والصخور.

أُصيب الزعيم وزوجته وأولاده بالذعر، وسمعت عويلاً جعل الليلة تنافس ليلة خنازير ممر الفتحة. وكان الزعيم في ذعره عاجزاً، وكانت صرخات زوجته تخترق الآذان والأبدان، خصوصاً حين رميت عليّ أحد أحجبتها، لباس المرأة الإسلامي الذي يصل إلى أسفل القدمين، وأمسكت بيد طفلتها وسارعت إلى الباب الخلفي. كنت أخشى عندئذ حصول خديعة، فأكدت

لها أن الطفلة ستُقتَل إن حاول أحد الصياح فيما كنت أغادر. لا أعرف إن كنت سأنفذ تهديدي أم لا. ففي ظل الخوف من الخيانة وغريزة البقاء، يقدم الرجال على أعمال إجرامية كثيرة.

ونجحت الحيلة، ولن أخبركم السبب أو الطريقة أبداً. مررت قرب الزعيم الكمالي فيما كنت أسير، وأمرنا بخشونة أن نبتعد بسرعة من مجال إطلاق النار. أعرف أن الأمر يبدو مذهلاً، ولكنه يبقى حياً في ذهني فلا أزال أرى الجرأة تلك الليلة وأشعر بها، الجرأة التي امتلكتها حين مشيت على طريق مواجهة للبيوت الخلفية للقرية ويدي تقبض بشدة على يد طفلة صغيرة.

ربما سرنا لنصف ميل قبل أن اختبأت خلف بيت، وخلعت الحجاب، ودفعته في يدي الطفلة وأمرتها بخشونة بالذهاب إلى أقرب بيت وألّا تتجرّأ على مغادرته فأنا عائد مع جيش كبير من الرجال المتعطشين للدماء. هي تسلية راقية أن ترعب الأطفال الصغار!

جريت إلى القرية المجاورة، وحين وصلت إلى هناك وجدت رجالي قلقين قرب أحصنتهم ومذعورين من أصوات نيران البنادق التي كانت تصلهم ضعيفة. صحت وأنا ألهث، وحييت القرويين باسم الله لجعل كل رجل يحمل أسلحة يلحق بنا لأن جيرانهم كانوا يتعرضون لهجوم من رجال عصابات. امتطينا أحصنتنا وقدناها في فوضى. ولم يملك الكماليون فرصة تُذكَر حين أحطنا بهم. حلفوا بالله أنهم محمديون وجنود نظاميون، ولكن بمساعدة القرويين قتلناهم بالرصاص، ببرودة كبيرة. ثم أمسكنا بأحصنتهم وغادرنا بها بذريعة اللحاق بالباقين المتراجعين، فيما أمرنا القرويين بالبقاء.

وفي الواقع، عدنا مجدداً إلى التلال، وإلى يومنا هذا، لا أعلم إن كان زعيم القرية ذلك قصد خيانتي.

الحرب التي ترونها مسألة بطولة. يموت بعض الرجال ويعيش البعض الآخر ليكتبوا عنها.

أخيراً انطفأت الشعلة الأخيرة الباقية فيّ وحاولت الانتقام. كان مسعانا خالياً من الجدوى بوضوح، وقد طغى علينا التاريخ. وكانت جهودنا غير مثمرة وعبثية. وقررت أخيراً أن أضع جانباً سيفي ومسدسي. لم تكن كيليكيا وطناً أرمنياً بل مرجلاً يغلي تُطبَخ فيه المكائد بدم شعبي.

أبلغت عصابتي قراري وسألت أفرادها إن كانوا يرغبون أولاً في اللحاق بي إلى بلدة إفيريك الصغيرة.

أوصلتنا ثلاثة أيام من السفر إلى الوادي المستطيل المألوف المحمي بجبال «إرجيس» المكسوة قممها ثلجاً. ذهبت من دون حزن لإرضاء توق لا يشبع لم أحاول أن أفهمه. كنت أنظر في أعماقي إلى ذاتي.

سافرنا ببطء غرباً وبلغنا ظلال الأشجار عند طرف البلدة فيما كانت الشمس اختفت تقريباً وراء الجبال.

مررت ببستان أبي، وهو كان زاهراً يوماً بأشجار الفاكهة والأنيق بحقوله المزروعة. كان كل ما بقي الآن عبارة عن أرض جدباء وصفوف مجنونة من الجذوع المحروقة والمشتتة والأغصان الخالية من الحياة والمشوهة في شكل بائس على خلفية الغسق.

كنت ترجلت عن حصاني وكنت أمشي حين اقترب مني رجل عجوز. بدا وجهه مألوفاً وبدا أنه عرفني. أخيراً تذكرت أنه طحان بلدتنا. نصحني بعصبية ألّا أمضي قدماً إلى القرية التي باتت الآن محتلة من الأتراك والأكراد، فيما كانت قوة كبيرة من الكماليين تعسكر في الجانب الشرقي من المدينة.

تباطأت، ولا أدري لماذا، فأنا لم أكن عاطفياً. كنت رجلاً ماتت عواطفه.

وفي الظلمة، غادرت وتوجهت إلى الغابات عند أسفل الجبال حيث أمضينا الليل.

بتدرج وحذر عدنا إلى أضنة. وأكد كل يوم من رحلتنا أفكارنا عن أن القضية الأرمنية في كيليكيا ضاعت في شكل يائس. حين بلغنا أضنة، وجدنا السكان الأرمن يفرون يومياً، أناساً حزينين وخائفين ومضللين.

وفي مقابلة مع السلطات الفرنسية، أُوضِح لي تماماً أن مغامرتي الخاصة أزعجت هذه السلطات وأقلقتها، ونُصِحت بإلحاح بالرحيل بحراً إلى أميركا.

بحثت عن شقيقيّ واتفقنا جميعاً على أن القضية ضاعت.

أبحرنا من أضنة ليلاً فيما هيمنت سماء خالية من الغيوم على المياه وبزغت نجمة جميلة.

فهرس الأعلام

أ

آنيك (السيدة) ١٧٣

ابراهيم باشا ٢٠٧

أتاتورك، مصطفى كمال ١٨، ٢٨٧، ٢٩٠

أراتشيل أفندي ٣٠

إردم، حاقان ٢٧، ٢٨

أرطغرل ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٩

أكتر، أيهان ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧

أكشام، تانير ٢٦،٢٥، ٢٧

أللنبي (الجنرال) ٥٧، ٢٦٣

انطونيوس، جورج ٣٣
أنور باشا ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٨، ٣٦، ١٠٣، ١١٣، ١١٩، ١٣٠، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠
أوهانس ٢٣
أياس، عبد الرحمن ٨

ب

بركتاي، خليل ٢٧
بل، جرترود ٣٥
بليغ بك، محمود ١٨٠
بيتش، ادوارد ٣٦

ت

تاونشند (الجنرال) ١٤٨، ١٤٩
تومسون، كامبل ٣٤

ج

جمال باشا ٢٤، ١٨٠، ٢٧٢
جميلة ١٩، ٢١، ٢٥، ٧٨، ٨٤، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٣، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢، ٢٥٨، ٢٥٤، ٢٨٨
جواد باشا ٢٠، ٢٢، ٨٦، ٩٥، ١١٤، ١٢٥

ح

حاجي سعيد ٢٤٨

خ

خليل باشا ٣٦، ٨٤، ٩٥، ٩٦، ٢٠٠

د

داريوس (الملك) ١٤٩
ديريه، كيريفيس ١٣٦، ١٣٩

ر

رضا، جعفر ٢٢٧
رضا، علي ٢٢٧
روميو ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٤
الريس، رياض نجيب ٨

ز

زكي بك، صالح ٢٣

س

سايلير، برهان ٣٠
سعيد (الحاج) ٢٥٢

ش

شرايبر، لويز ٢٨
شكري باشا ٧٨
شوكت بك، مصطفى ١٨٠، ٢٠٩، ٢٦٤

ص

صالح بك ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٨
صوفي (السيدة) ١٧٢، ١٧٤

ض

ضياء بك ١٧٦

ط

طلعت باشا ٣٨، ١١٨، ١٣٠، ١٧١، ١٧٢
طوروسيان، آدم ٢٩، ٢٧٦
طوروسيان، بارسيغ ٢٩، ٢١١، ٢٧٦
طوروسيان، بايزر ٢١٨، ٢١٩، ٢٧٨
طوروسيان، سركيس ٧، ٨، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٤٠، ٤١، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ١١٦، ١١٨، ١٦٦، ١٧١، ١٨٢، ١٩٢، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٧
طوروسيان، فارتوهي ١٥٩

ع

عادل بك ٢٠٣
عاصي بك ١٧٦
عائشة خانم ٢٣٣، ٢٣٤
عبد الله (الأمير) ٢٧٣
عبد الحميد (السلطان) ٦٤

عبد الكريم باشا ١٨٢، ١٨٣
عز الدين، يوسف ١٧٦
علي بك ١٧٦
علي رضا بك ١٨٠
غارو، أرمين ٣٨، ٤٠
غولتنر، فوندر ١٢٠

ف

فخرية هانم ١٧٦
فراميان، أرشاك ٣٩
فون ساندرز، لمان ١١٩، ١٣٧، ٢٣٦
فون ماكنسين ١٨٦
فيصل (الشريف) ٢٦٩، ٢٧١

ق

قرة بيت أفندي ٣٠، ١٢٦، ١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٥٩، ١٧٧

ك

كشيشيان، جوزف ٨
كشيشيان، جوزف ١٥، ٤١
كمال، مصطفى ٢٨٧
كيتشنر (اللورد) ٣٥
لورنس، تي. إي. ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٢٧٣

م

مارديغ ٢٩٠
ماك كالوم، جون أرشيبالد ٥٨
مانكجيان، زافين ٧
محرّم ١٠٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٤٠، ١٤٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٢، ١٩٣، ٢٤٦، ٢٥٢، ٢٥٨
محمود (الشيخ) ٢٥٣
مكرديش أفندي ٣٠
موسى (الشيخ) ٢٠٧، ٢٠٨
ميشال (الرائد) ٢٨٩

ن

نوري بك، يوسف ٢٤، ٣٢، ١٩٣، ١٩١، ٢٢٥، ٢١٧، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٣، ٢٧٢

هـ

هربرت، أوبري ٣٦، ٣٧
هوغارث، ديفيد جي ٣٤

فهرس الأماكن

أ

آسيا ١٨٠

آسيا الصغرى ١٤٦

إدرين ١٨

إربد ٢٦٧

الأردن ٢٣٦، ٢٦٧

إرضروم ٣٨

إرمينيا ٣٩

أريحا ٢٦١

إزمير ١٨٠

اسطنبول ١٩، ١٣٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٨، ١٦٦
أسكي شهر ١٤٧
الإسكندرونة ٣٨،٢٨٠
المانيا ١٦، ٥٦، ٨٣، ١٨٠
إميزيك ٥٥، ٦٧، ٧٤، ٨٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٩٢، ١٩٦، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٧٦
الأناضول ٣٢، ١٠٠، ١٠١، ١٠٩
انكلترا ٦٢
أوروبا ٣٢
أوزون كوبري ١٣٤

ب

باريس١٢١، ٢٨٤
بريطانيا ٢٠، ٢٣، ٣٨
بغداد ٣٦، ٢٢٥، ٢٢٦
بلغاريا ١٨، ٥٦، ١٨٠
البلقان ٣٢، ١٧٩
بوفارست ١٨٨
بيروت ٣٢، ٥٦، ٢٧٦، ٢٧٩

ت

تركيا ١٨، ٢٠، ٥٦، ١٠٥، ١٠٨، ١٧٩، ١٨٤، ٢٨١، ٢٨٢

تشاناكالي ٣٠، ٣١
تكريب ٢١٠

ج

جبل رواندز ٢٢٤
جبيل ٨
الجزيرة العربية ٢٣، ٢٤، ٣٤، ١٥٨
جزيرة غاليبولي ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٣١، ٨١، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٥١

ح

الحسكة ٨
حلب ٨، ٣٥، ١٩٦، ٢٢٨، ٢٧٦، ٢٧٨

خ

خليج ساروس ٩٤، ١٠٠، ١٠٥، ١٣٦، ١٤٦، ١٨٠
خليج سولفا ١٤٦
الخليج الفارسي ٣٦

د

دجلة ٢٠٠، ٢١٢
الدردنيل ٥٦، ٥٧، ٨١، ٨٣، ٨٨، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١١١، ١٢٠، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٦، ١٥٤

دمشق ٣٢، ٣٤، ١٩٤، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥
ديرالزو ٨
روسيا ٢٠، ٦٢، ٦٣، ١٠٦

س

ساريمساكلي (قرية) ١٨١
سورية ٢٣، ٣٤، ٣٥
سشنق ١٤٠

ص

صربيا ١٨١
طرسوس ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٣

ع

العالم العربي ٧، ٢٣
العراق ٢٣
عمان ٨

ف

فارس ١٤٨
فرنسا ٢٠، ٢٣، ٣٨، ٣٢، ١٠٥
فلسطين ٧، ٢٣، ٢٤، ٥٦، ٥٧، ١٩٢، ٢١٦
فيلادلفيا ٥

ق

القامشلي ٨
القاهرة ٣٥، ٣٦
القدس ٨، ٣٤، ٢٥٤، ٢٦١
القسطنطينية ١٩، ٢٤، ٣١، ٣٨، ٥٥، ٦٨، ٧٤، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٨، ١٣٠، ١٣٥، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٩، ١٥١، ١٧١، ١٧٦، ١٨٠، ١٩٢، ١٩٤، ٢٢٨، ٢٥٢
قطمة ١٩٥
القلمون ٨
قناة السويس ١٠٦، ١٣٥
القوقاز ١٤٦

ك

كافالا ١٨٢
كركميش ٣٥
كيليكيا ٥٦، ٦٤، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣

ل

لبنان ٧، ٢٣، ٣٤

م

مصر ٢٣

ل

لندن ٣٣

م

مقدونيا ٢٣، ١٤٦
الموصل ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢١٠، ٢١٥
موناستير ١٨١، ١٨٤

ن

نابلس ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦
النمسا ٥٦، ١٨٠
نهر الاردن ٢٦٣

هـ

الهند ١٤٨

و

وادي اليوسف ٢٥٦
الولايات المتحدة الأميركية ٢٣، ٢٨، ٤٠، ٥٦، ٦٥، ٢١٨، ٢٢٥

ي

اليونان ١٨، ١٨١

النقيب سركيس طوروسيان

من الدردنيل إلى فلسطين

كان سركيس طوروسيان، المواطن الأرمني المولد في السلطنة العثمانية، جندياً متفوقاً دافع عن الباب العالي على الرغم من مخاوف متأصلة فرضت عليه أن يروّض شياطين نائمة في روحه. ولأنه فعل ذلك خلال معظم شبابه، وتخرج من كلية عسكرية بارزة، وتلقى تدريباً متقدماً في ألمانيا، وخدم بتميز في الجيش، واستحق أوسمة لمهارته، وقاتل بنزاهة لحماية مصالح بلاده وتعزيزها، فقد قام بإنجازات أقل ما يُقال إنها كانت استثنائية.

تروي قصة حياته الواردة في هذا الكتاب المآسي التي واجهها الأرمن والولادة الجديدة التي سمحت بها القومية العربية، وقد حولت هاتان الحقيقتان القمع إلى نجاة وأبدلتا بالمظالم فرصاً. لذلك كان من المفيد تقديم ترجمة هذا الكتاب إلى القارئ العربي.

جوزيف كشيشيان

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS
ISBN 978-9953-21-595-2
9 789953 215952